رواية

كوبنهاغن مثلث الموت

Copenhagen - Triangle of Death

حسين السكّاف

Husain Alsagaaf

العارف للمطبوعات

كوبنهاغن

مثلث الموت

أول رواية عراقية تتناول ظهور الإرهاب وأسباب ظهوره في العراق

بعد الاحتلال وسقوط نظام الديكتاتور عام 2003

صدرت الطبعة الأولى عن دار ميريت في القاهرة

في 01 يناير /كانون الثاني 2007

حسين السكّاف

كوبنهاغن

مثلث الموت

رواية

العارف للمطبوعات

كوبنهاغن - مثلث الموت

حسين السكّاف

الطبعة الأولى 2015
القياس: 14 × 21
لوحة الغلاف: "بين عينيكَ وبيني" للفنان العراقي عباس الكاظم
عدد الصفحات: 351
ISBN 978-614-441-051-6

نشر وتوزيع

شركـة العـارف للأعمـال ش.م.م.

بيروت – لبنان
00961 79 839503
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن – هاتف/فاكس 4650624 00962
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

الإهـداء

إلى نشوان الزيادي

الروح العراقية، التي ولدت في غير أرضها

....

تذكر أن الوطن شعار أجوف حين يتلفظه غيرك من البشر،

مجرد شعار.

تذكر أن الوطن هو المكان الذي تأنس فيه وإليه روحك،

روحك وحدها تعرف معناه ومكانه،

روحك فقط.

وطنك الذي يمنحك الدفء والبهجة،

المكان الذي يحتضن تاريخك وحاضرك

وطنك أنت...

وأنت من تأنس إليه وفيه روحي.

حسين السكّاف
E-mail: halsagaaf@hotmail.com
Mobil: 0045 27440907

(1)

شعر بشيء يلامس وجنته اليسرى، اهتز بدنه، وبشكل مفاجئ، ودون أدنى تفكير راح ينظر بفزع صوب اليسار. لم يتسنَ له أن يتبين مصدر الشيء الذي لامسه، فالصرخة الآدمية الآمرة جاءت مدوّية في مسامعه بشكل مفاجئ، صرخة كادت توقف نبضات قلبه.

- لا تتحرك، اِقْفزْ إلى الخلف، اِقْفزْ بسرعة وأترك المقود، بسرعة، بسرعة...

كان صوتاً آدمياً لشخص ملثم، لمحه علاء وهو يحاول أن يمرر جسده المرتعد بين كرسي القيادة والكرسي الذي تحتله زوجته. انصاع للأمر دون تفكير، ولكنه استطاع أن يلمح بنظرة خاطفة وهو يحشر نفسه بين الكرسيين، فوَّهة بندقية كلاشنكوف، تيقَّنَ حينها وعلى الفور بأنها هي التي لامست وجنته.

حين استقر في المقعد الخلفي لسيارته، انفتحت أبواب السيارة الجانبية، وفي لمح البصر قفز شخصان داخل السيارة ليكون علاء وسطهما، بينما أخذ الملثم مكانه خلف المقود.

- علاء، هل تعرف هؤلاء؟ هل نحن في حكم المخطوفين الآن؟

قالت كميلة بلغتها الدنماركية التي أثارت سخط الغرباء الثلاثة.

- لا تتكلمي وإلا أفرغت رصاصات هذا المسدس في رأسك!

قال الرجل الملثم الجالس خلف المقود، ثم أشار بمسدسه إلى علاء قائلاً:

- قل لها ألا تتكلم، وأن تجلس في هدوء، وأنت كذلك، وتذكر: أية حركة منكما سيكون ثمنها حياتكما.

انتبه علاء إلى جسده المرتعش، وعضلات بطنه التي تقلصت بشدة، سحب نفساً عميقاً من بين شفتيه، ثم انتبه إلى السرعة المخيفة التي أصبحت عليها نبضات قلبه. وبسرعة، وقبل أن يشرح الأمر لكميلة قرر اغتنام الفرصة معتمداً على عدم فهم الخاطفين للغة الدنماركية. راح يكلمها بشكل سريع وبجمل مختصرة:

- عليك البقاء هادئة. لا تبدي أي امتعاض. أعتقد أن هؤلاء متخصصون بالخطف. أرجوكِ أن تتركي الموضوع لي، أعرف أنه أمر مرعب، ولكن تحلي بالصبر والهدوء. حاولي أن تخفي جهاز الموبايل بعد أن تطفئيه. القوة والتماسك في هذا الموقف مهمة جداً...

قطع كلامه بعد أن شعر بوخزة فوّهة المسدس تنغرس بين صف أضلاعه تحت إبطه الأيمن.

- كل هذا من أجل أن تقول لها أسكتي؟ اسكتْ والتزمْ الهدوء!

قال الشاب الجالس إلى يمين علاء.

راحت كميلة تنظر إلى الأمام وهي تحاول دس يدها اليمنى في حقيبتها الجلدية السوداء، راحت تتلمس الأشياء، تتعرف عليها ثم تتركها... يا للشيطان، أين الموبايل؟... قالت في سرها وواصلت البحث بأعصاب مشدودة زادت من تصبب العرق حتى تضمخ

جسدها بحبيباته، وراحت تنساب بعضها بشكل واضح من بين إبطيها وجبينها وخلف أذنيها.

انحدرت السيارة بسرعة، وبشكل مفاجئ جهة اليمين، وأخذت تهتز بشكل مخيف أدى إلى إفلات أصابع كميلة لجهاز الموبايل، بعد أن عثرت عليه. صارت السيارة تسير على طريق ترابي وهي تهتز، جراء الحفر الصغيرة والأحجار، تاركةً وراءها غمامة ترابية صفراء كثيفة. حاولت كميلة أن تدس يدها وتبحث عن جهاز الموبايل مرة أخرى، جاءت أصابعها على الجهاز هذه المرة دون عناء، ضغطت على جهتِهِ العلوية لثواني معدودة، هي الفترة الزمنية التي تعلمتها كميلة نتيجة الممارسة، والتي كانت كافية لإغلاقه، عندها أخرجت يدها وراحت توزع نظراتها بين المشهد الأمامي الذي تتلاشى جزيئاته بسرعة نتيجة السرعة التي تسير بها السيارة، وبين ذلك الإنسان، السائق، الذي خلع اللثام عن رأسه وهو يردد... الحر لا يطاق... عندها أطالت كميلة النظر إليه وهي تبتسم، انتبه السائق لنظراتها وقال:

- لماذا تنظرين إليَّ هكذا وتبتسمين، هل أنا قرد؟

لم تفهم كميلة ما قاله الشاب الأسمر ذو الشعر الفاحم الكثيف، ولكنها استطاعت أن تخمن ما قاله من خلال التعبير القاسي الذي أظهرته عضلات وجهه، فبادرته بجملة استخدمت خلالها الإنجليزية:

- أنت شاب وسيم.

أشار برأسه إلى علاء قائلاً:

- ماذا تقول هذه الكافرة؟

- إنها تقول بأنك شاب وسيم.

أظهرت ملامح الشاب قليلاً من الزهو، لكنه سرعان ما ترجم إحساسه قائلاً:

- طبعاً نحن نمتلك من الجمال الكثير، ونمتلك الكرامة وعزة النفس، أكثر بكثير من الجمال، ولكنكم أتيتم لتقتلونا وتدمروا كل شيء فينا، أنتم أرواح كافرة، لا تعرف سوى مصالحها الشخصية، أتيتم لتسرقوا خيراتنا وكرامتنا وأرواحنا في وقت واحد...

نظر صوب كميلة مرة أخرى مبتسماً وأضاف:

- تريدون ارتكاب كل هذه الجرائم بأقصر وقت ممكن، فأنتم أناس عمليّون، لا وقت لديكم كي تضيعوه كما تعودنا نحن، ولكن هيهات، فنحن لكم بالمرصاد.

على الرغم من أن ما سمعه علاء كان تهديداً مباشراً وبُغضاً واضحاً، إلا أنه شعر بقليل من الارتياح الحذر، فلقد كانت جملة الشاب السائق الأخيرة تحمل معنى واحداً، هو أن الأمريكان جاءوا ليدمروا العراق، وهذا يعني أنه ربما يعتقد بأن كميلة أمريكية الجنسية، وراح يفكر ملياً. صحيح أن الدنماركيين قد شاركوا باحتلال العراق، إلا أن عراقيي المناطق الوسطى والشمالية لا يفكرون إلا بالأمريكان، كون القوات الدنماركية تعسكر في محافظة البصرة فقط، وهم قلة لا يتجاوز عددهم الخمسمائة والخمسين جندياً، أي أن هؤلاء الخاطفين لم يقوموا بخطفه، هو وكميلة على أساس أنهما يحملان الجنسية الدنماركية، وهذا بحد ذاته مريح بعض الشيء، ولكن ماذا لو كان الخاطفون قطاع طرق ولصوص؟ ماذا لو كانوا من التكفيريين الذين يقتلون على الهوية؟ ماذا لو كانوا

من رجال المخابرات العراقية وفدائيي صدام؟ ماذا لو... ماذا لو...؟

أخذت الأفكار تدور بسرعة مذهلة في رأس علاء، وهي تتلاطم بصورها القاتمة المرعبة، حتى جاء صوت الشاب من خلف المقود قاطعاً لها:

- أنت علاء كاظم، صحيح؟

- نعم، صحيح!

أجاب علاء بسرعة والدهشة تأسره ثم سأل على الفور:

- هل تعرفني؟

- كلا، ليس المهم أن أعرفك، المهم أن هناك من يعرفك.

- وهل الذي يعرفني، هو من طلب منكم إحضاري؟

شعر علاء أن صيغة سؤاله ربما تكون مستفزة بعض الشيء، فسارع محاولاً تعديلها:

- أقصد...

- أصمتْ ولا تتكلم! ولا تسأل أسئلة سخيفة مرة أخرى.

قال الشاب الذي يقود السيارة بغضب واضح. لاذ علاء بالصمت بعد أن تأكد من أن تخمينه كان صائباً، فالسؤال قد استفز الشاب.

شعرت كميلة بغثيان ورغبة في التقيؤ جراء الاهتزازات المتكررة وكثافة الغبار الذي عبأ فضاء السيارة، فطلبت من السائق التوقف، وهي تضع يدها على فمها، نظر الشاب صوبها وأشار إلى المكان المنحصر بين قدميها قائلاً:

- تقيأي هنا، لقد شارفنا على الوصول.

- أين سنصل؟

سأله علاء واضاف، رافعاً من وتيرة صوته:

- ومن أنتم؟ أين ستأخذوننا؟

شعر علاء بألم ساخن مفاجئ يستقر في قمة رأسه وفقد الوعي...

◆

بالأمس، وعند تمام الساعة الثامنة صباحاً، وصل علاء بصحبة كميلة أندرسن بسيارته الكيا البيضاء، إلى حدود مدينة بابل. عندها لاحت من بعيد ملامح القصر الخرافي الذي بناه صدام حسين، على قمة تلة ضخمة لم تكن موجودة من قبل. راح علاء يشرح لكميلة قصة بناء ذلك القصر، وكيف أن أفضل المهندسين والمعماريين من العراقيين وغير العراقيين جُندوا لتنفيذ مشروع القصر، وكيف تكونتْ تلك التلة التي أصبح اسمها "جبل" على لسان العراقيين، ومن أين أتوا بالتراب المكوّن لها، ثم حدثها عن المسابقة التي أجريت لتصميم مضخة مائية غير كهربائية. مضخة بدائية تعمل دون أية مساعدة تكنولوجية، تقوم برفع الماء من أسفل التلة إلى أعلاها، لينساب ساقياً الحدائق المحيطة بالقصر...

- يبدو أنه أراد أن يبني الجنائن المعلقة لنفسه؟

سألته كميلة.

- بالضبط هذا ما أ راده وهذا ما حصل.

قال علاء، ثم سألته كميلة:

- ومن فاز بالمسابقة؟

- حينها وبعد فترة وجيزة، شاع على لسان الناس، أن مهندساً من الاتحاد السوفيتي، قد فاز بالمسابقة، ولكن، وحسب ما كان واضحاً من خلال أجهزة الإعلام العراقية فإن المشاركات لم تنقطع. لقد قدم الكثير من المهندسين والفنيين التقنيين مشاريعهم وأفكارهم المقترحة للدخول في المسابقة. استمرت المحاولات حتى وقت متأخر، أقصد أن المتسابقين استمروا بدخول حلبة المنافسة لغاية السنتين الأخيرتين من سنوات حكم صاحب القصر، لقد كان مبلغ الجائزة حين الإعلان عنها، مليون دينار عراقي، في الوقت الذي كان الدينار الواحد يساوي ثلاثة دولارات...

قطع علاء حديثه عندما أصبح على مقربة من الشارع المؤدي إلى منطقة الآثار، والذي كان وما يزال يسمى بشارع الموكب. وعلى بعد عشرين متراً من ناقلة الأشخاص الأمريكية التي أخذت مكانها وسط الشارع المؤدي إلى بوابة عشتار، أشار الجندي الأمريكي الذي وقف كالصقر على ظهر المركبة، إلى سائق السيارة "الكيا" بالتوقف وعدم الاقتراب. توقفت السيارة، وانفتح بابها الأيمن لتترجل كميلة. راحت تلوح إلى الجندي بإشارات فهم منها أنها تريد الاقتراب منه والتحدث إليه. أشار الجندي لها بعلامة الاقتراب لوحدها.

اتجهت كميلة صوب الجندي، وحين أصبحت المسافة بينهما كافية لسماع ما تريد قوله، أشار لها بالتوقف. أذعنت لأمره، وراحت تشرح له باللغة الإنجليزية التي تجيدها. أوضحت بأنها صحفية دنماركية أتت لإنجاز دراسة عامة وشاملة حول منطقة آثار بابل، وأنها تمتلك جميع الأوراق الرسمية والتصاريح الخاصة التي

من شأنها أن تيسر مهمتها. نزل الجندي من على الناقلة وتوجه نحوها. مد يده وصافحها وعرَّفَ نفسه، العريف مايكل. أخذ الأوراق وراح يتصفحها، ثم نظر صوب المرأة مبتسماً وقال:

- أوراق لا غبار عليها، رسمية وصحيحة، ولكني أعتذر عن عدم السماح لكِ بالدخول إلى المنطقة، هكذا هي الأوامر.

شعرتْ ببعض الضيق، وأعدتْ نفسها للدخول بمجادلة ربما ستؤدي إلى مشكلة تكون نتائجها بأسوء الأحوال رجوعها إلى السيارة حيث علاء بانتظارها. صمتت لثواني ثم قالت:

- تقول بأنها الأوامر! صحيح؟ طيب أوامر من؟ أريد التحدث إلى من أصدرها.

ابتسم العريف وقال بخبث:

- بالتأكيد يمكنكِ التحدث مع من أصدر الأوامر، إنها القيادة العامة، موجودة في العاصمة القطرية الدوحة، هل تعرفينها؟ عليك الذهاب إلى هناك، حينها يمكنك أن تتحدثي معهم.

ازداد انزعاجها وتحول إلى غضب حاولت السيطرة عليه فقالت:

- هذا غير صحيح، القيادة العامة تصدر أوامر عامة، ولا تصدر أوامر بشأن منطقة صغيرة كهذه...

نظر العريف إليها بعينيه الزرقاوين نظرة خبيثة وقال:

- إذا كنتِ تعتقدين بأن هذه المنطقة صغيرة وليست ذات أهمية حتى تصدر القيادة العامة تعليماتها بخصوصها، لماذا أتيتِ من أقصى شمال أوربا إليها؟ أو لماذا أرسلكِ رؤساؤكِ في العمل من أجل أن تكتبي عنها؟ أرجوكِ لا تجادلي كثيراً، فأنا لا أمتلك

الوقت ولا الصلاحيات للحديث معكِ، أرجوكِ الرجوع من حيث أتيتِ.

شعرتْ بأنها على وشك الخسران، فرجوعها دون تحقيق هدف الرحلة يعني الفشل، أطرقتْ برأسها وراحت تنظر إلى الأرض الأسفلتية، ثم رفعت رأسها نحو العريف وقالت:

- في هذه الحالة عليَّ أن أطلبَ منكَ تسهيل مقابلتي برئيسكَ المباشر، عسى أن أجد عنده الوقت الكافي للحديث.

هز مايكل رأسه إشارة إلى تورطه بالحديث مع إنسانة عنيدة، ثم استدار ليبتعد قليلاً عنها حتى أصبح ملاصقاً لعربته. أخرج جهاز أسود بحجم كفه، وراح يتكلم بصوت منخفض، وحين انتهت المكالمة اقترب من كميلة قائلاً:

- عليكِ السير حتى ذلك الكرافان الأبيض، هل شاهدته؟ هناك ستجدين مَنْ يمكنه الحديث معك.

- شكراً.

قالت كميلة وتوجهت صوب الكرافان بعد أن أشارت إلى علاء الذي مازال يجلس خلف المقود، والذي فهم من الإشارة، أن عليه الانتظار، فالأمر ليس سهلاً، تماماً كما كانا يتوقعان.

ففي مساء الأمس، تحدث علاء وكميلة، وثلاثة من أصدقائه المقربين، الذين أتوا لزيارة صديقهم العائد بعد غياب دام أكثر من ثلاثة عشر سنة، عن أمور كثيرة، كيف أن علي محمد قد تزوج أخيراً بعد أن كان مضرباً عن الزواج سنوات طوالاً، وكيف أن سعدي جبار المضمد الصحي، استطاع جمع الحشود لإسقاط نظام الدكتاتور في مدينة المحمودية قبل دخول القوات الأمريكية، ثم

تحدث نوري حسن الفنان التشكيلي ومعلم مادة الرسم في إحدى مدارس المحمودية الابتدائية وصديق علاء منذ الطفولة، عن مشاريعه الحالمة وكيف استطاع، وبمساعدة العديد من الأصدقاء، تأسيس بيت الفن في المحمودية، وتكوين رابطة تضم الفانين والمثقفين من أبناء البلدة، تحدثوا في أشياء كثيرة حتى سألت كميلة سؤالها الذي غير شكل الجلسة إلى جلسة أشبه بالاجتماع السري لخلية تنظيمية عليا.

- ما هي معلوماتكم عن منطقة الآثار في بابل؟

صمت الجميع وراحوا ينظرون إلى علاء وكأنهم يسألون عن الهوية الحقيقية لتلك المرأة. فالسؤال بالطريقة التي وصلت مسامعهم، لا يبتعد كثيراً عن الأسئلة المخابراتية، وهذا ما علمتهم إياه سنوات الحكم السابق. إيجاد أكثر من وجه لأبسط سؤال، حتى لو كان يدور عن الوقت، فربما تكون شفرة سرية. تفكير أرواح قلقة، دربتها دسائس الدولة على تقليب الأمور لأكثر من وجه، وتعذيب الذات بمهارة واتقان. ابتسم علاء وبادر بالحديث وكأنه التقط الحيرة التي ارتسمت على وجوه أصدقائه فقال:

- كميلة أندرسن، زوجتي، صحفية تعمل لحساب إحدى الصحف اليومية الدنماركية، وقد أتت إلى بغداد بمهمة صحفية. المهمة تتلخص، بكتابة تقرير مفصل على شكل مقالات صحفية، حول موقع بابل الأثري، كون الأخبار والدراسات الأخيرة، أفادت بأن الموقع قد تعرض إلى التخريب والسرقة فترة الحكم الدكتاتوري.

- ولكن يا عزيزي، عليكما أن تدركا بأن الدخول إلى ذلك المكان أصبح ضرباً من المستحيل.

قال علي مستخدماً لغته الإنجليزية المقبولة بعض الشيء.

- كيف؟

سألت كميلة فأجابها سعدي جبار:

- علينا ألا نذهب بعيداً، أمس، وأمس فقط، منعت القوات الأمريكية وزير الثقافة من الدخول إلى موقع الآثار، على الرغم من أن الوزير وكما تعلمون يأتي بموكب يضم المرافقين والحماية والسيارات الفارهة، منعوه ورجع خائباً، مع العلم أن مديرية الآثار وتوابعها، صارت فرعاً من فروع وزارة الثقافة، أي أن المكان من ضمن توابع وزارته.

- كيف هذا؟

سأل علاء باستغراب بعد أن ترجم ما قاله سعدي جبار إلى كميلة، فأجاب نوري:

- المتداول بين الناس، أن هناك فرقة من علماء الآثار الإسرائيليين مع بعض الحرس الخاص بهم، قد دخلوا إلى منطقة الآثار منذ اليوم الأول لدخول القوات الأمريكية إلى محافظة بابل، لذلك أصبح الدخول لمنطقة الآثار ضرباً من المستحيل، فهناك، لا وجود لأي فرد عراقي، تصوروا حتى الموظفين والعمال والحرس، من العراقيين، تم طردهم من الموقع.

- ولكن لا أحد يعلم، لماذا العلماء الإسرائيليون بالتحديد، وعن ماذا يبحثون؟

قال سعدي جبار، فبادره علي محمد قائلاً:

- الموضوع يا عزيزي أبا حازم، إن اليهود، أقصد

الإسرائيليين، يبحثون عن جذورهم منذ زمن طويل، ليس في العراق أو أية منطقة معينة، بل في كل بقعة أو زاوية من زوايا كرتنا الأرضية، وهم إن وجدوا أو سمعوا قصة بسيطة تخص تاريخهم في أي بقعة من العالم، حشدوا لها الجهود والأموال، ولا يتركونها حتى يجنوا الفائدة المرجوة منها، وعليك أن تتذكر، بأن قصة السبي البابلي لا تزال تؤرقهم، لذا فهم يبحثون عن أسرار تلك القصة، ويحاولون إيجاد أي دليل تاريخي يعتمدون عليه في مستقبلهم، هل فهمت الآن يا صديقي؟

- إذا هذا الكلام صحيح، فهذا يعني أننا قد دخلنا في مشاكل لن نستطيع التخلص منها أبداً!

قال سعدي جبار وهو يظهر استغرابه.

ولكن كميلة التي أخذت قرار الصمت مكتفيةً بالاستماع إلى ترجمات علاء. صار لون وجهها أكثر توردأ، حتى وصل درجة الاحمرار. لقد أدهشتها المفاجئة، وأحست بشوق كبير للوصول إلى تلك المنطقة والاطلاع على حقيقة الأمر، لقد أصبح للموضوع شكلاً آخر. وما ستكتبه عن المكان ربما يكون ضربة صحفية ذات أهمية خاصة...

(2)

في مساء اليوم الأول من وصول علاء وزوجته إلى مدينة المحمودية، بعد غياب طويل، اتفق مع زوج أخته "الأستاذ شريف" على الذهاب صباح اليوم التالي لشراء سيارة من أجل تسهيل حركتهم وانتقالهم من مكان إلى آخر. اقترح عليه زوج أخته الذهاب إلى معارض السيارات في منطقة البياع كونه يعرف أحد أبناء المدينة هناك، وبهذا يضمن سلامة السيارة، والتخلص من المشاكل الشائعة جراء شراء السيارات، فهناك الكثير من المشاكل التي سمع بها، كأن تكون السيارة مسروقة أو تابعة للدولة، أو أن البائع سبق له وأن باعها لأكثر من شخص.

وفي تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، انطلق الثلاثة مستقلين سيارة الأستاذ شريف، حيث معارض بيع السيارات في مدينة البياع. احتلت كميلة المقعد الخلفي، كي يتسع لها المكان وتتمتع بشيء من الحرية، فيما إذا قررت التقاط بعض الصور من خلال نوافذ السيارة، وما هي إلا عشرون دقيقة حتى وصلوا مكانهم المنشود. أطفأ الأستاذ شريف محرك سيارته بعد أن ركنها تحت لوحة إعلانية كبير مكتوب عليها " معرض الأنوار لبيع وشراء السيارات بكافة أنواعها، لصاحبها عادل الحاج صافي " عندها تذكر علاء، أن صاحب المعرض هو أحد أبناء مدينة المحمودية، وهو أحد أبناء الحاج صافي الذي كان يمتلك سلطة ونفوذاً كبيرين، بسبب أملاكه العقارية الكثيرة، بالإضافة إلى كونه من كبار إقطاعيي

المناطق الزراعية التي تحيط بالمدينة. دخل الثلاثة إلى باحة المعرض بعد أن تجاوزوا سياجه الحديدي المشبك. نظر علاء إلى عدد من السيارات المتوقفة في باحة العرض، وصعب عليه معرفة أنواعها لأنه لم يشاهدها من قبل، فتلك الأنواع التي وقع نظره عليها لم تكن مألوفة أو معروفة في العراق حتى عام 1991 حيث هروبه ومغادرته حدود الوطن، وهي أيضاً غير معروفة في أوربا، سوى ماركاتها، كونها صناعة رديئة، صنعت خصيصاً للدول المنهكة بغياب القانون. توجه الأستاذ شريف حيث المكتب، وهناك استقبله رجل تجاوز الخمسين ببضع سنوات. هيئته جديرة بالاحترام، مبتسم على الدوام لبق كثير الترحاب. وقف الرجل مرحباً حالما شاهد الأستاذ شريف ومن معه، صافحهم جميعاً وطلب منهم الجلوس حيث صف الكراسي القريب من طاولة المكتب، ثم نادى على أحد صبيانه ليأتي بالشاي تعبيراً عن الحفاوة، عندها قال الأستاذ شريف لعلاء:

- أقدم لك ابن مدينتنا، الأستاذ عادل صافي، صاحب هذا المعرض...

ثم نظر إلى عادل وهو يشير صوب علاء قائلاً:

- هذا الأستاذ علاء ابن الحاج كاظم، شقيق زوجتي هل تتذكره؟

نهض عادل وتوجه إلى علاء بعد أن تحرر من زاوية المكتب القريبة من الكرسي الذي كان الأستاذ شريف يحتله، احتضن علاء وتبادلا القبلات، ثم قال موجهاً كلامه إلى شريف:

- وكيف أنساه وهو ابن ذلك الرجل الشريف الذي طالما سمعنا حكاياته ونصائحه ونحن صغار؟

ثم نظر إلى علاء قائلاً :

- أهلاً وسهلاً بك، أتمنى أن تكون بخير، لقد سمعت بأنك تقيم في الدنمارك، كيف هي الدنمارك؟ وهل ما زالت على حالها، الكثير من الجميلات والكثير من الأجبان، ونظافة الشوارع؟

لم ينتظر عادل إجابة من علاء، بل طرح سؤاله وكأنه يريد أن يقول بأنه يعرف الدنمارك جيداً. مد يده إلى كميلة، صافحها مرة أخرى مبتسماً، ورحب بها بلغة إنجليزية بسيطة.

عاد السيد عادل إلى كرسيه حيث طاولة المكتب، وراح الأستاذ شريف يشرح له رغبة علاء وزوجته في شراء سيارة جيدة، على شرط، ألا تكون هناك بعض المشاكل من وراء شرائها. حينها وعلى الفور عرض عليهم صاحب المعرض شراء سيارته الخاصة كي يتأكدوا من أنه يريد خدمتهم على أتم وجه. وبعد تحديد المبلغ، طلب علاء بعد أن وضع الأوراق النقدية بيد عادل صافي، أن تُسجل ملكية السيارة باسم الأستاذ شريف زوج أخته. تمت الأمور بشكل بسيط وفي وقت قصير، اتفق عادل مع شريف على أن يسجلا عقد الشراء غداً لدى كاتب العدل .

تناول علاء مفاتيح السيارة وطلب من زوج أخته العودة بمفرده إلى البيت، وشدد عليه راجياً أن يقوم بشراء خروف ويذبحه قرباناً للسيارة كما جرت التقاليد، فهو يعرف تماماً الطريقة التي تفكر بها شقيقته وتمسكها بالتقاليد خصوصاً الدينية منها، ثم طلب منه عدم نسيان تجهيز وجبة الغداء، لأنه وزوجته سيعودان إلى البيت بعد أن يقوما بزيارة خاصة، كان قد خطط لها من قبل.

انطلق علاء بسيارته الجديدة مصطحباً زوجته التي سارعت إلى

طرح سؤالها القلق، فيما إذا كان يستطيع القيادة في شوارع بغداد دون أي مشاكل. ابتسم وقال لها بقليل من الاعتداد بالنفس، بأنه ابن هذا البلد والشوارع تعرفه جيداً. أخذ الشارع الذي يربط بين منطقة البياع وحي العامل طريقاً له، متجهاً صوب الجسر الدائري المتشعب بفروعه. لم يحد إلى أية جهة، بل اكتفى بالقيادة إلى الأمام حتى صعد بسيارته الجسر الذي كان حافلاً ببعض الدبابات وناقلات الأشخاص التابعة للجيش الأمريكي. لقد كان متجهاً دون أن يدري إلى منطقة تحول اسمها منذ فترة قريبة إلى اسم "المنطقة الخضراء" ومن الطبيعي أن يكون تواجد القوات الأمريكية على مشارف تلك المنطقة كثيفاً. لم يوقفه أحد واكتفت كميلة بالتقاط بعض الصور لعربات الجنود الأمريكان، فلقد اعتاد الجنود أن يشاهدوا العديد من الصحفيين الأوربيين في تلك المنطقة خصوصاً الذين توحي ملامحهم الأوربية بذلك، وعادة ما يكونون بصحبة سائق أو دليل عراقي. توقف علاء بسيارته على بعد أمتار من مركبة أمريكية كانت قد قطعت الطريق بشكل واضح أمام المركبات، ترجّلَ من سيارته بعد أن طلب من كميلة أن ترافقه واتجها صوب الجندي المدجج بالسلاح القريب من مركبته، ألقوا عليه التحية وشرح له علاء السبب في اختيارهما زيارة المكان، ثم أخذ الجندي ينظر ببطاقتيهما الصحفيتين بعد أن طلبها منهما، عندها شرح لهم الأوامر التي لا تسمح بقيادة السيارات الخاصة أبعد من المكان الذي يتواجدون فيه، فطلب من علاء أن يركن سيارته في مكان قريب منه، ويتجولوا راجلين بالمكان.

كان المكان واسعاً بشكل ملفت للنظر، كثير الحدائق بزهورها المتنوعة الأشكال والألوان، إنها ساحة الاحتفالات التي تم إنشاؤها قبل فترة وجيزة من إعلان وقف إطلاق نار الحرب التي

كانت تدور رحاها بين العراق وإيران. مساحة المكان مقتطعة من حديقة كبيرة كانت الملاذ الوحيد لأبناء بغداد لقضاء فترة الأعياد والعطل الرسمية، والتي سميت بحديقة "الزوراء" تيمناً بأحد أسماء بغداد، وتلك الحديقة الواسعة، شهدت بناء أول برج سياحي في تاريخ بغداد، أطلق عليه "برج بغداد" الذي بني على شكل منارة أو مئذنة.

كانت الساحة خالية من الناس، تتوزع المركبات العسكرية على جوانبها. حينها عاد علاء بذاكرته وراح يصور لزوجته، مشاهد أول احتفال شهدته تلك الساحة، عندما احتفل العراقيون بمناسبة انتهاء الحرب التي راح ضحيتها مئات الآلاف من الشبان العراقيين على مدى ثماني سنوات، وكانت المرة الأولى التي يحتفل فيها العراقيون بالماء، حيث ابتكر العديد من الشبان لعبة التراشق بالماء، حتى أصبحت تلك اللعبة هي العنوان الرئيسي لترجمة الفرحة الهستيرية التي أصابت العراقيين بعد فقدانهم الأمل بتوقف طاحونة الحرب.

وقف الاثنان تحت نصب ضخم جداً يزيد ارتفاعه عن الأربعين متراً، يتكون من ساعدين برونزيين متقابلين، وقبضتا الساعدان تحملان سيف في كل منهما، يتلاقى السيفان في منتصف المسافة تماماً ليشكلا "قوس النصر"، نظر علاء إلى كميلة وقال لها مبتسماً وكأنه حقق عهداً كان يشغله لفترة طويلة:

- هذا يا عزيزتي هو "قوس النصر" الذي طالما تمنيتِ مشاهدته. قوس للنصر، صار رمزاً لحربٍ خاسرة!!

بادرت كميلة بالحديث ونظراتها لا تعرف الاستقرار في مكان واحد:

- لقد خمّنت ذلك حالما دخلنا هذا المكان الواسع.

ثم نظرت إلى الأعلى وقالت:

- يا الله كم هو ضخم هذا النصب!! إنه ضخم لدرجة تظهر قبحه بشكل واضح، هل تعرف بأني لم أشاهد في حياتي أقبح من هذا النصب؟ إنه مخيف لدرجة تمنحك إحساساً بالوحدة والرعب!

ضحك علاء بصوت عالٍ وقال:

- هذا هو صدام حسين، يُظهر تمسكه بالدين حد الإغراق، يبني أكبر الجوامع ويمنح أضخم المنح إلى الجهات الدينية، وإذا أراد أن يشيد بناء، ويغض النظر عن الهدف من ورائه، فأنه يشيده بمبالغة فاضحة، وكأنه يريد بذلك غسل خطاياه أو الاستتار وراء تلك الأشياء كي لا تظهر قذارته وجرائمه...

ثم استدرك قائلاً:

- هذا النصب القبيح، تم افتتاحه في عام 1989، تماماً في الثامن من آب/ أغسطس، أي في الذكرى السنوية الأولى لانتهاء الحرب العراقية الإيرانية، وهذا يعني أنه بني بعد بناء ساحة الاحتفالات هذه بعامين أو أقل بقليل، وكانت فكرة النصب من بنات أفكار صدام حسين، وهذه اليد التي تمسك السيف واليد الأخرى المقابلة هما يدا صدام حسين شخصياً، بعد أن تم أخذ قوالب عليهما، أذكر أني قرأت كتاب " النصب التذكارية " لسمير الخليل. بالمناسبة هل تعرفين أن اسم سمير الخليل، هو اسم مستعار؟ فالاسم الحقيقي للكاتب هو كنعان مكية!

- أعرفه، لقد قابلته عندما قام بزيارة قصيرة لكوبنهاغن عام 1996...

ابتسمت بغنج واضح وقالت:

- في ذلك الوقت لم أكن قد تعرفت عليك بعد...

ثم عادت إلى طبيعة كلامها السابق وقالت:

- في ذلك العام كانت كوبنهاغن عاصمة الثقافة الأوربية، وإن مكية كان مدعو من قبل فنان تشكيلي عراقي يقيم في الدنمارك منذ فترة طويلة، كان له مشروع ثقافي وفني ضمن إطار تلك المناسبة.

- نعم، إنه الفنان عباس الكاظم، فنان من أبناء مدينة المحمودية، كان مشروعه يحمل اسم "تحت سماء أخرى" والاسم له دلالة المنفى حيث يقيم المبدع في بلد غير بلده وتحت سماء غير سمائه...

- وأتذكر أن كنعان مكية أقام أمسية ثقافية مهمة في ذلك العام، كانت تحت اسم "النصب التذكارية - من بابل إلى صدام حسين"، كان حديثه مهماً جداً، خصوصاً حول هذا النصب القبيح...

ثم ابتسمت وهي تسأل علاء بقليل من الخبث:

- أليس قبيحاً؟ هل توافقني الرأي؟

ابتسم وأومأ برأسه متفقاً، ثم استمرت كميلة في كلامها:

- الخطورة في هذا التمثال، تكمن في عدة نقاط، فعندما يمر المرء من تحته، فأنه يمر من بين يدي صدام حسين، وكلمة من بين اليدين لها دلالة دينية ودنيوية كبيرة، والنقطة الأخرى، تلك الخوذ العسكرية، المحصور جزء منها في تلك الشبكة، بينما الجزء الآخر متناثر على الأرض، إن عدد تلك الخوذ كما أتذكر من المحاضرة، هو ألفان وخمسمائة خوذة، تحت اليد الواحدة وأنها تعود لجنود

إيرانيين، قتلوا في الحرب، هذا يعني، أن تحت هذا التمثال يوجد الرمز لهذا الكم الهائل من البشر، خمسة آلاف ضحية من ضحايا الحرب القذرة...

قطع حديث كميلة صوت الجندي الأمريكي الذي نادى عليهما معلناً أمره بمغادرة المكان مباشرة لظروف خاصة لم يستطع علاء أو كميلة معرفتها، واكتفيا بتقديم الشكر له خصوصاً بعد أن وافق على طلب كميلة بالتقاط صورة لها وهي تقف إلى جانبه ومن خلفهما الدبابة الأمريكية...

(3)

قبل أيام قليلة، من وصول علاء كاظم وزجته كميلة أندرسن، إلى مدينة المحمودية، كان حليم فارس، ابن خالة علاء، منشغلاً بهمومه الخاصة. هموم لا حصر لها. أهمهما خوفه من أن صديقه القريب من روحه العاشقة، قد تملّكه الغضب وقرر مقاطعته مرة أخرى، لذا، سلكَ حليم الطريق المؤدي إلى بيت صديقه "زاهر" كي يتبين الأمر، وفي منتصف الطريق، سارع حليم فارس في خطواته حالما شاهد زاهر بجسده الطري يتمايل أمامه. كان السوق الشعبي حديث النشأة، أنشأه الناس بشكل عشوائي وسط شارع النعمان الذي يفصل محلة "السراي" عن محلة النعمان. أمسك حليم بذراع زاهر الذي لم يُبدِ أية مقاومة حالما تبين أن حليم من يمسكه، ثم انزوى به جانب الجدار الفاصل بين محل سيد مهدي الحداد والدكان الصغير الذي يجاوره، كان ذلك الدكان في ما مضى محلاً لكوي الملابس استأجره ناصر الأوتجي أواسط الستينيات.

- ماذا بك حبيبي زهّوري؟ لماذا أصبحت تتهرب مني؟ سأل حليم وهو ينظر بعيني زاهر العسليتين.

- ليس هناك شيء، أنا لا أتهرب منك، ولكن الذي فعلته بي ليلة أمس كان حقيراً جداً، لم أكن أتصورك بهذه الحقارة! على الرغم من أنها ليست المرة الأولى، أم تراك نسيت تلك الليلة التي جعلتني أقضيها مع الوحوش في الملجأ؟

- لا، لم أنسَ، ولكن أقسم لك أن الأمر لم يكن مخططاً له، لقد حصل بالصدفة.

- وفي المرة السابقة كانت أيضاً صدفة، أليس كذلك؟ أنت كاذب وحقير يا حليم، أرجوك اتركني.

- أرجوك أن تهدأ، أنت تعرف مقدار حبي لكَ، أرجوك أن تنسى الموضوع، نحن أولاد اليوم...

التفت حليم بسرعة إلى الخلف، ثم عاد بنظره صوب زاهر وقال:

- تعال معي، سوف أطعمك كباباً على حسابي.

سحبه من ذراعه حيث مطعم نجم عبد الله في الجهة المقابلة.

لا أحد يعرف من هو والد زاهر، فالجميع يعرفونه على أنه ابن "أم زاهر" وهو الأخ الشقيق الوحيد لثلاث بنات، الأولى تكبره بستة أعوام، تعمل ممرضة في إحدى مستشفيات العاصمة كما تزعم، والثانية تكبره بعامين، متزوجة من سرحان الميكانيكي، الذي نادراً ما يتواجد في البيت، حيث أخذ من ورشته مكاناً لسكناه، أما الثالثة فهي شقيقة زاهر الصغرى التي تصغره بعامين. وزاهر شاب بسن السادسة عشرة، لم يعرف مقاعد الدراسة من قبل، ولم يسبق له أن اشتغل بأية مهنة، هو الطفل المدلل لعائلته، ملابسه دائمة النظافة رائعة التنسيق، وجيبه لا يخلو من النقود أبداً.

استأجرت أم زاهر بيتاً قريباً من سكة القطار، تماماً في نهاية شارع النصر، الذي يفصل محلة الحسينية عن محلة الجديدة. كان إيجار البيت حين أتت أم زاهر وابنتاها من جنوب العراق إلى مدينة المحمودية هرباً من الحرب الدائرة بين العراق وإيران آنذاك،

عشرين ديناراً، كانت أم زاهر، حريصة على أن تدفعه في وقته المحدد، ولم يذكر لها الحاج حسين الذي يقع الدار ضمن أملاكه أي تأخير، ولكن السؤال الذي كانت النسوة تطرحه على أزواجهن فترة الخلوة، عن مصدر المال الذي تنفقه أم زاهر في معيشتها، كان سؤالاً مقلقاً حقاً سرعان ما أنتشر بين أفواه الرجال في المقاهي والأماكن العامة.

جلس حليم ملاصقاً لزاهر وراح يحدثه بصوت خافت:

- اسمع، سوف أعوضك عن ليلة البارحة، أرجوك أن تنسى الموضوع، وأن تثق، بأن ما حدث لم يكن مخططاً له، إنه فقط صدفة سخيفة، هل اتفقنا؟

كان زاهر ينظر إلى الأرض، ليس بسبب الخجل مما جرى ليلة أمس، بل كان عليه أن يدنو بأذنه من فم حليم ليسمع ما يقوله، وأن يضمن أن لا أحد يسمع حديثهما.

- ولكن كيف تضمن عدم تشنيعهم بي؟

سأله زاهر وأضاف بقلق واضح:

- ألا تعتقد بأنهم سوف يتحدثون بما جرى إلى الآخرين؟

- لا، لا أعتقد، دع الأمر لي، وعلى أي حال، فلقد تكلمت معهم طويلاً ليلة أمس حالما تركتنا، ووعدوني بإبقاء الأمر في الكتمان، ثم لماذا أنت على هذه الدرجة من الغباء؟ كيف تفكر بأنهم سيتحدثون بالأمر؟ عليك أن تفكر بأن هذا من شأنه أن يفضحهم... هل نسيت ما فعلته أنت بالدكتور عماد؟ ثم هل سمعت بأن أحداً يريد فضح نفسه بنفسه؟

شعر زاهر بقليل من الراحة والرضا جراء كلام جليسه، ورفع رأسه حالما شاهد أقدام الصبي الذي قدَّم لهم طبقين من الكباب والخضار، يغطيهما رغيفي خبز. قطع حليم جزءاً من الخبز، وباشر بقضم الطعام وهو ينظر إلى وجه زاهر، متفحصاً مقدار الرضا الذي أظهرته ملامحه الفتية.

كان حليم كاذباً في كل ما قاله بخصوص ليلة أمس، لقد كان الأمر مدبراً، حيث اتفق حليم على مضض، مع ثلاثة من "أصدقائه"، على أن يقدم لهم زاهراً لقمة سائغة على طبق من ذهب. والحقيقة أن اثنين من هؤلاء الثلاثة كانت لهم سلطة قوية على حليم، أكبرهم سناً كان برتبة عميد في الشرطة العراقية، لحظة دخول القوات الأمريكية، وسقوط التمثال. أحيل على التقاعد منذ ذلك الحين، مما سبب له ألماً كبيراً في نفسه، وعلى الرغم من ذلك فلم يجرؤ على تقديم طلب لإعادته إلى الخدمة، بسبب جرائمه التي ارتكبها بحق الناس فترة الحكم السابق، وكان كلما شرع بالتفكير بهذا الأمر، يتراجع وهو يردد الكلمة التي كثيراً ما قالها لنفسه " عليَّ أن أحترم نفسي وأسكت، بدلاً من أن أفتح عليها أبواب جهنم، إن سلطتي الآن تعادل ما كنت عليه عشرات المرات". أما الصديق الثاني فهو دكتور عماد، رجل في السادسة والخمسين من عمره تخرج من معهد المعلمين، وعُيّن معلماً أواخر ستينيات القرن المنصرم في مدرسة "المحمودية الابتدائية الأولى للبنين" - هكذا كان وما يزال اسمها - كان قد انتمى إلى صفوف حزب البعث في سنته الدراسية الأخيرة من المعهد، حاول أن يتمتع بالقرار الرئاسي الذي أصدرته الحكومة العراقية بعد سنوات قليلة من اشتغاله في التعليم. كان القرار يخص المعلمين البعثيين حيث يتيح لهم فرصة الدراسة الجامعية للفترة المسائية، فدخل كلية

الآداب قسم اللغة العربية وتخرج منها قبل اندلاع الحرب العراقية الإيرانية بشهرين. عُيِّنَ على أثر ذلك مدرساً للغة العربية في "إعدادية المحمودية للبينين"، وفي تلك الفترة وصلت درجته الحزبية إلى عضو فرقة، مما أعطاه الحق في الانتساب إلى طلبة الدراسات العليا على الرغم من الدرجة المتواضعة التي حصل عليها في تقدير البكالوريوس، لينال عام 85 شهادة الدكتوراه في اللغة العربية.

أما الشخص الثالث فهو كريم البنا، عامل بناء في الخامسة والثلاثين من عمره. يلقب بكريم "المايع" بسبب لدانة جسده وتمايله المغناج في مشيته، بالإضافة إلى صوته الذي يميل إلى الأصوات النسائية، وحركاته الإيمائية التي لا تخلو من الأنوثة عند الحديث... وكان المتفكهون ممن عرفوه، وأصحاب النظرة الثاقبة "جنسياً"، ينسبون سبب العلاقة الغريبة بين العميد ناهض والدكتور عماد، بعامل بناء بسيط مثل كريم البنا، إلى تلك الأنوثة الواضحة التي يمتلكها "كريم المايع"، حيث لم يكن خافياً على أحد حالة الشذوذ الجنسي التي كانا يتمتعان بها الدكتور والعميد.

اتفق الثلاثة مع حليم، على أن يستدرج زاهر إلى محل العطارة الذي يمتلكه، وبالفعل، وحين حلت الساعة السابعة مساءً، كان زاهر يجلس في غرفة المخزن التابعة للمحل. أغلق حليم محله وتظاهر بأنه أقفل الباب بإحكام، إلا أنه ترك الباب مغلقة دون إقفالها، ثم أطفأ إنارة المحل ودخل المخزن حيث زاهر.

- الآن نحن بمفردنا...

قال حليم ثم أضاف وهو يحتضن زاهر:

- لقد اشتقت لكَ كثيراً.

قبَّلَ شفتيه وأطال القبلة، كان الاثنان في حالة وقوف... وما هي إلا ثوان حتى انتفض زاهر فزعاً، حين وقع نظره على ثلاثة أشخاص يتلصصون عليه من خلف ستارة القماش التي كانت تفصل المحل عن المخزن، أخذه الهلع وزادت نبضات قلبه أكثر مما كانت عليه من قبل حتى كاد يغمى عليه.

❖

حين دخل الثلاثة إلى المخزن، لم يحاول حليم تبرير الموقف، ولم يتفوه بكلمة واحدة، بل اكتفى بالابتسامة، التي لاحظها زاهر، وقابلها بدهشة واضحة، وراح يتوسل الثلاثة وهو يشرح لهم كيف أن حليم أغواه وأجبره على تلك الفعلة، وأن أهله سيقتلونه لو عرفوا بالأمر. أثارت الجملة الأخيرة التي قالها زاهر، الضحك لدى الأربعة المحيطين به، كونهم يعرفون جيداً عائلته منذ قدومها إلى المدينة، وأنها عائلة تمتهن الدعارة ومتخصصة بإغواء البنات حتى تكوَّنت لدى أم زاهر، خلية تضم في أسوأ حالاتها عشر نساء. وضع العميد ناهض يده على كتف زاهر وقال له:

– لا تخف، ولا تسيء الظن بنا، نحن نعرفك جيداً، أنت ولد مؤدب وخلوق، ولكن عليك أن تفكر بأننا من الممكن أن نكون أصدقاءك، وإذا كنت لا تعرفنا جيداً، رغم أننا أصحاب فضل عليك وعلى عائلتك، فيمكنك أن تسأل حليم عن الذي ألغى حكم القصاص بكَ... هل تتذكر الورقة التي علقها المجاهدون في المدينة منذ فترة وجيزة، والتي تقيم عليك حد القتل، وإهدار دمك كونك تمارس اللواط كما يزعمون؟

ثم قال حليم على الفور:

- نعم، هذا صحيح، العميد ناهض والدكتور عماد هما من توسطا لك عند المتدينين بعد أن شرحت لهم الأمر.

- ليس هذا فقط، بل إن الكثير من الشكاوى كانت تصل الفرقة الحزبية حول نشاط عائلتك المشبوه...

قال الدكتور عماد وهو يداعب شعرات لحيته السفلى ثم استدرك:

- طبعاً كانت مجرد افتراءات على عائلتك، كانت الشكاوى تتهم العائلة بممارسة البغاء، وكنت أنا الذي يمزق تلك الشكاوى، ويمكنك أن تسال والدتك، فهي تعرفني جيداً.

شعر زاهر ببعض الارتياح، على الرغم من أن نبضات قلبه، أبت أن تنخفض، فقال والدموع بدأت تهطل من عينيه:

- طيب، وما المطلوب مني الآن؟

سحبه الدكتور عماد بلطف واضح، بعد أن اتخذ من كيس الفاصوليا الكبير مقعداً له. لم يُبدِ زاهر أية ممانعة حتى أصبح بين فخذين الدكتور الذي طوقه بذراعيه وراح يدلّك ظهره قائلاً:

- نحن نريد منك أن تصبح صديقنا، صديقاً فقط لا غير، تماماً كما أنت صديق حليم، ستصبح منذ الساعة صديق العميد وكريم وصديقي بالإضافة إلى صداقتك مع حليم، هل هذا صعب؟

- كلا، ولكن أنتم كبار في السن، فكيف نكون أصدقاء؟

سأل زاهر في خبث واضح.

- ولماذا أنت صديق حليم وهو في الأربعين من عمره، ها؟

قال عماد مبتسماً، وهو ينظر في عيني الصبي الذي راح يبتسم بوجه الدكتور، بعد أن سمع صوت حليم وهو يطلب منه الكف عن إثارة السخافات، والتمنّع غير المبرر، لتستمر حفلة العرس الجماعي وتأخذ وقتها كما يجب وكما خُطط لها.

◆

اللحية التي أطلقها الدكتور عماد، والتي أصبحت تغطي بعض الملامح الأنثوية من وجهه، والتي كانت تميزه عن غيره لزمن طويل... تشبه إلى حدٍ ما، لحية الشيخ عباس "أبو رعيصه". أما طول قامته ونحافته ودشداشته وسرواله وكوفيته، فتشبه إلى حدٍ كبير، هيئة الشيخ عباس في ملابسه وألوانها. إلا أن لحية الشيخ عباس "أبو رعيصة" أطول عمراً. والفرق بين عمر اللحيتين، يزيد على ثماني سنوات. الشيخ عباس لم يتخرج من مدرسة، أية مدرسة، بينما الدكتور عماد يحمل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية، وبينما لم يسبق للشيخ عباس العمل في مجال التدريس، أو تخرج عليه أحد الطلاب، كان عباس أبو رعيصة تلميذ الدكتور عماد عندما كان معلماً في مدرسة "المحمودية الابتدائية الأولى".

لحية الدكتور عماد، نمت في فترة الثلاثة أشهر التي كان يختبئ فيها رجال الأجهزة الأمنية والحزبية التابعة للنظام الساقط. كان دخول القوات الأمريكية وانقلاب الموازين وزوال السلطة السابقة بوقتٍ قياسي، لم تعرفه أي دولة في العالم من قبل، هو ما دفع أصحاب لحى اليوم إلى الاختباء خوفاً من تكرار أحداث انتفاضة عام 91 الشعبية، وحين تسنى للمختبئين الخروج من جحورهم، بعد أن شعروا بالأمان وتذوقوا طيبة ضحاياهم ونقاء ضمائر وبساطة

أهل الضحايا، خرجوا إلى شوارع المدينة، بهيئة جديدة لم يعتدها أهل المدينة من قبل، فمنهم من ادعى المرض والشيخوخة بدليل لحيته البيضاء، ومنهم من أعلن توبته، توبة نصوح إلى الله تعالى، وقسم آخر سكن المساجد المنتشرة بشكل غريب في أحياء المدينة. مساجد وجوامع وحسينيات انتشرت بسرعة مذهلة فترة التسعينيات، في الوقت الذي كان عدد المساجد والحسينيات في مدينة المحمودية، بعدد أصابع اليد الواحدة، قبل ذلك الوقت.

إن انتشار الجوامع والمساجد والحسينات، كان السبب الرئيس وراء ظهور رجال دين جدد. كانوا في الأمس من أبناء الشوارع وأصحاب عاهات وماضٍ سيئ. وكان عباس واحداً منهم. ولَقَبْ "أبو رعيصة" الذي حظي به منذ أيام الصبا، معروف لدى العراقيين من حيث دلالته، على أن حامل اللقب مصاب بداء الصرع، وفي الحقيقة أن عباس لا يشكو من المرض، إلا أن أعراض المرض كانت تنتابه حينما يحتد ويتكلم بعصبية واضحة. يأخذ جسده بالارتعاش وتتيبس شفتاه. وتلك الظواهر كانت السبب المباشر ليطلق أقرانه عليه لقب "أبو رعيصة" وأصبح هذا اللقب ملازماً له حتى يومنا هذا.

ترك عباس المدرسة قبل أن يجتاز الصف الثالث الابتدائي، وفي عام 95، حين أتم الثلاثين من عمره، اشتغل في حراسة مواد بناء مشروع لمبنى صغير قيد الإنشاء، تعود ملكيته إلى رجل ميسور الحال. نشأت علاقة حميمة بين عباس وصاحب المشروع، الذي أراد من عقاره أن يكون، جامعاً يؤم الناس للصلاة كي يكسب ثواباً في آخرته. وما هي إلا بضعة أشهر حتى صار الجامع كامل البناء والتجهيزات. حينها بدأ الحاج خضير صاحب العقار، بالبحث عن

رجل دين يلتزم الآذان، ويئم الناس في الصلاة، ويكون المسؤول عن إتمام طقوس العبادة، كما هو حال الجوامع والمساجد الأخرى. صار عباس "أبو رعيصة"، المسؤول المؤقت عن الجامع وما يحتويه، وأصبح بعد أيام، المؤذن المؤقت للجامع. والغريب أن عباس كان قد حذف عبارة "حي على خير العمل" من الآذان، التي كان قد استخدمها في بداية عمله كمؤذن في جامع الحاج خضير. جاء ذلك التغيير والحذف، حسب أوامر الحاج خضير، الذي ارتعد واهتز بدنه، عندما سمع عباس "أبو رعيصة" يطلق تلك العبارة في آذانه. وعلاوة على ذلك، صار عباس، يتبع المذهب الذي يتبعه الحاج خضير. وبعد أن عجز الحاج خضير، عن العثور على رجل دين حقيقي، ليدير شؤون الجامع، أصبح عباس "أبو رعيصة" شيخ الجامع، ولبس العمامة البيضاء، وأصبح يئم المصلين ويلقي الخطب الدينية يوم الجمعة، ليصبح الحاج خضير أمام الأمر الواقع. فقبِلَ بما قسم له الله الذي وهب له الشيخ عباس، وكان الحاج خضير كلما نظر في وجه عباس يقول مبتسماً "يحيي العظام وهي رميم".

حين خرج الدكتور عماد من عزلته، أو فترة اختفائه، بدأ يرتاد الجامع الذي وجده أكثر أمناً من أي مكان آخر، معتبراً دخوله إلى الجامع، ومحادثة الشيخ عباس، وبعض الأفراد الذين يتواجدون هناك أحياناً، هي الخطوة الأولى للعودة إلى الحياة الاجتماعية، والاندماج في أجواء المدينة مرة أخرى. ومع مرور الوقت أصبح الجامع ملاذاً لأكثر الرجال الذين عاشوا فترة الاختباء ولبستْ وجوههم اللحى، وتحول الشيخ عباس "أبو رعيصة" تحت تأثير المال خادماً لهم، وهناك اجتمع الدكتور عماد بعد فترة انقطاع مريرة، بالعميد ناهض وحليم فارس وكريم البنا ومحمود درديري

وغيرهم، حتى عثر عليهم حميد هلال ليكوّن أول خلية عمل (جهادية)، ولتكون تلك الخلية فيما بعد، المسؤولة عن عشرات الخلايا المسلحة، ويكون الجامع مخزناً للأسلحة والذخيرة والمتفجرات، دون علم "أبو رعيصة" الذي كان ينظر إلى المال، ويغض الطرف عن الأمور الأخرى، حتى أنه لم يسمح لنفسه بالتفكير عن نوعية وطبيعة الأشياء التي يخبئها الدكتور عماد، في غرفة مخزن الجامع، خوفاً من أن يكتشف أمره وفضوله، وينقطع عنه سيل المال...

(4)

حين توجهت كميلة أندرسن صوب الكرافان الأبيض، الذي أشار إليه العريف مايكل، كان شعور انتصار اللحظة يغمرها، فلقد خطت الخطوة الأولى، بشكل صحيح، وها هي الآن تستعد بكل قدراتها حيث الخطوة الثانية. اقتربت من باب الكرافان الضيقة، ثم توقفت على أثر صوت قريب جاءها من جهة اليمين... نعم سيدتي... نظرت صوب مصدر الصوت فوقع نظرها على شاب بسحنة أوربية لا يتعدى عمره التاسعة عشرة. بادرته بطلبها وأخبرته بأنها تريد مقابلة السيد آمر الموقع، أصطحبها الشاب داخل الكرافان، وحال دخولها شاهدت غرفة خشبية جدرانها وأرضيتها تكتسي لوناً واحداً، لون الخشب الصاج، شاهدت أمامها منضدة مكتب كبيرة بعض الشيء وإلى يمين المنضدة أريكة بقماش صوفي فاقع الألوان يغلب عليه اللون الأحمر، وكان يجلس خلف المنضدة رجل بملامح زنجية يميل لون بشرته إلى اللون البني الفاتح، كان الرجل في الثلاثين من عمره يرتدي الملابس العسكرية الأمريكية التقليدية، وكان لهيئته ولون بشرته السبب المباشر في استحضار مخيلة كميلة أندرس لصورة كولن باول وزير خارجية أمريكا سابقاً، نهض الرجل ومد يده اليمنى إشارة إلى إذن التقرب منه، اقتربت كميلة بخطوتين كانتا كافيتين ليلامس فخذيها حافة المنضدة، مدت له يدها صافحته وقالت:

- كميلة أندرسن، صحفية دنماركية، أعمل لصالح جريدة يومية دنماركية.

بادرها الرجل قائلاً:

- الرائد توم، تفضلي بالجلوس.

عاد الرجل إلى كرسيه وجلست كميلة حيث أشار إليها الرائد بالجلوس على الكرسي القريب منها والمجاور لمنضدة المكتب جهة اليسار، ثم قال:

- بماذا يمكنني أن أساعدك؟

نظرت كميلة صوبه وابتسمت كونها على يقين تام بأن العريف مايكل قد شرح له الأمر عن طريق جهاز الاتصال عندما كانت في طريقها صوب الكرافان. قالت:

- أريد أن أتجول في المكان، وألتقط بعض الصور، فالمهمة التي أنا بصددها تكمن في حصر كمية الخراب الذي تعرضت له منطقة الآثار فترة حكم الرئيس المخلوع...

ثم استدركت:

- بالطبع، بعد أن أتأكد من حصول الخراب، فربما تكون مجرد إشاعة!

ابتسم لها الرائد توم وقال بنبرة ودودة:

- الأمر ليس سهلاً كما تتصورين، فالمنطقة أصبحت منطقة عسكرية بحتة، وهناك أوامر مشددة من الجهات العليا بعدم دخول أي شخص إلى المنطقة إلا بأذن صادر من القيادة العامة.

شعرت كميلة ببعض الإحباط، ولكنها لم تستنفد كل ما لديها غاية الآن، فقالت:

- قد يكون هذا صحيحاً، ولكنك تستطيع أن تتصل بالقيادة العامة وتخبرهم بمهمتي وتحصل على الموافقة إن أردت ذلك!!

نظر الرائد صوبها نظرة استغراب مفتعل، استطاعت كميلة أن تكشفه بسرعة، فأحست بقوة تسند روحها القلقة. قال الرائد:

- سوف أحاول الاتصال على الرغم من يقيني بصعوبة الحصول على الموافقة، ولكن هذا يتطلب بعض الوقت.

- كم يتطلب؟

وجهت كميلة سؤالها إلى الرائد وهي تبتسم وأضافت:

- ساعتين؟... ثلاث؟ لا يهم سوف أنتظر.

تعالت ضحكة صاخبة من فم الرائد، حتى بان صف أسنانه العلوي بعد أن رفع رأسه إلى الأعلى، وقال:

- الأمر ليس بهذه السهولة، ربما يتطلب أياماً، قد تتجاوز الأسبوع.

"إنها دفعة واضحة باتجاه اللاعودة، يوجهها لي هذا الأمريكي" قالت كميلة في سرها، ثم تغيرت ملامحها بسرعة كبيرة، نهضت من على كرسيها ووقفت أمام الرجل الذي لا زال جالساً، انحنت صوبه بجذعها النحيل حتى صار وجهها يقابل وجه الضابط وكانت المسافة الفاصلة بينهما لا تتعدى بضعة سنتيمترات كانت كافية كي يصل عطر الكولونيا الذي استخدمه الضابط بعد حلاقته الصباحية إلى أنف كميلة، حينها قالت وبهدوء تام وجدية واضحة:

- اسمع! من مصلحتك ومصلحتي أن تسمح لي بالدخول إلى هذه المنطقة والتجوال بها، فهناك لغط في الشارع العراقي يقول بأن هناك علماء آثار إسرائيليين ينقبون في المنطقة ويريدون أن ينقلوا بعض الآثار إلى إسرائيل، وحين أكون أنا في المكان والتقط بعض الصور ولا أجد أي أثر للعلماء المزعومين سوف أكتب في الصحف الدنماركية والعراقية بمساعدة زوجي الصحفي العراقي الذي يجلس داخل سيارته في الخارج، أن تلك الإشاعة باطلة وليس لها أية علاقة بالحقيقة، هل فهمت الآن؟ سوف أكون غداً صباحاً هنا، في مكتبك هذا، وسوف تسمح لي بالدخول، هل اتفقنا؟

تغيرت ملامح الضابط واكتسى لونه صفرة واضحة، وازرقت شفتاه المرتجفتان على حين غرة، ابتسم بتشنج وطلب من كميلة الجلوس ثم قال:

- يمكنكِ أن تأتي في أي وقت فمكتبي مفتوح لك، ولكن أمر الدخول إلى الموقع صعب جداً كما أخبرتكِ، وعلى العموم غداً هو السبت، وبكل تأكيد سأكون هنا عند الساعة الثامنة صباحاً، وأعدك بأني سأحاول الاتصال بالقاعدة.

نهض الرجل ومد يده إلى كميلة ليصافحها إشارة لنهاية المقابلة، ابتسمت المرأة وهي تشعر بالانتصار، مدت له يدها وودعته على أمل اللقاء غداً في الثامنة صباحاً كما حدد الموعد بصورة غير مباشرة...

(5)

لم تكن المؤامرة التي دبرها حليم فارس لصديقه زاهر في دكان بقالته، هي المؤامرة، أو حركة الغدر الأولى، بل سبقتها مؤامرة أخرى، أكثر قساوة وأشد وقعاً في نفس الصبي، والحقيقة أن حليم لم يكن هو مَنْ خطط لها، بل كان لتلك الواقعة أثرها المأساوي في نفس حليم فارس، الذي أخذ عهداً على نفسه ألا يكررها مرة أخرى، وأن يكون حذراً في كل مرة يكون زاهر بصحبته، فالعشق الذي يتملّك حليم تجاه زاهر، أكبر من أن يفكر في إيذائه.

حدث ذلك، عندما قام حليم فارس، باصطحاب صديقه وخليله إلى منطقة اللطيفية، بعد أن أبدى الصبي بعض الممانعة، كون المنطقة خطرة ويكثر فيها الجماعات المسلحة، ولكنه رضخ إلى رغبة حليم، بعد أن تيقن من إصراره، وتعهده بضمان سلامته، خصوصاً وأن الوقت لازال مبكراً، فلم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً. استقلا سيارة "كيا" تتسع لتسعة ركاب "ميكروباص"، كانت وجهتها منطقة اللطيفة التي تبعد مسافة لا تتجاوز السبعة كيلومتر عن مركز مدينة المحمودية.

كانت منطقة القرية العصرية - إحدى مناطق ناحية اللطيفية - شبه خالية إلا من الكلاب السائبة، وبعض الصبية الذين اتخذوا من الفسحات الصغيرة أمام منازلهم ملعباً لهم. سارَ الاثنان مسافة لا تزيد عن العشرين متراً، مبتعدين عن أسفلت الشارع العام، حتى توقفا عند سيارة تويوتا خضراء اللون. نظر حليم إلى الشخص

الجالس خلف المقود. ابتسم ومد يده مصافحاً، ثم انفتحت الأبواب وجلس حليم جوار السائق بينما جلس صديقه في المقعد الخلفي، وحال إغلاق الأبواب انطلقت السيارة صوب الحقول. نظر حليم صوب زاهر وقال له:

- هذا صديقي سلمان، أعرّفك به، ربما يكون صديقك أنت أيضاً في المستقبل.

ضحك سلمان بصوت عال ثم تبعه حليم بضحكته الماجنة الشهيرة، فأبتسم زاهر قائلاً:

- لي الشرف أن يكون صديقي.

أخرج سلمان علبة سجائره. سارع زاهر باستلال واحدة حين عرض عليه سلمان العلبة، تبعها حليم بأخذ الأخرى على الرغم من أنه ليس من المدخنين، حتى أنه رفض إشعالها وفضل الاحتفاظ بها بين شفتيه. عند ذاك جرى بين حليم وسلمان حديث عام، حرارة الجو، وشحة المياه، وارتفاع الأسعار، ثم أبدى حليم امتعاضه الشديد من ارتفاع أجور النقل بسبب أزمة البنزين على الرغم من أنه يباع في الشوارع وبكثرة، ولكن بعشرة أضعاف سعره الرسمي، نظر سلمان إليه نظرة سريعة ثم ابتسم وقال بشيء من الاعتزاز:

- أزمة البنزين لكم أنتم وليس لنا، نحن يأتي البنزين إلينا وبالكميات التي نطلبها، أما إذا رغب أحد منا أن يذهب إلى محطة الوقود لملء خزان سيارته، فما أن يراه مدير المحطة، حتى يستقبله بنفسه ويقوم شخصياً بملء الخزان مجاناً.

نظر حليم صوب زاهر حالما سمع الجملة الأخيرة، وأومأ برأسه مبدياً إعجابه بما سمعه وكأنه يقول، أنظر كيف أختار

الأصدقاء وكم هم على مرتبة عالية من الأهمية، فبادر زاهر بطرح سؤالاً على سلمان:

- إذا كنت تحصل على البنزين بهذه السهولة، فلماذا لا تقوم ببيعه بالسعر المضاعف؟ والله خلال شهر واحد يمكنك شراء بيتٍ فخمٍ.

نظر سلمان إلى زاهر من خلال المرآة الصغيرة أمامه وقال:

- يبدو أنك لم تعرفنا بعد، ليس نحن من يبيع البنزين في الشوارع...

ثم ضحك بصوت عال وقال غامزاً له:

- هذه من عمل صغار السن، مثلك حبيبي.

شعر زاهر ببعض الإحراج، وعرف أنه يتكلم مع شخص له سطوة ونفوذ، فحاول أن يصلح الأمر وقال:

- لم أقصدك بالتحديد، ولكن من الممكن أن يقوم أحد الأشخاص بهذه المهمة، أقصد يشتغل لحسابك.

علت ضحكات سلمان وامتزجت مع ضحكات حليم الذي راح ينظر خلفه ليعطي صديقه بعض الإشارات التي توحي بتغيير الموضوع، ثم قال:

- بالمناسبة سلمان، هل هناك فتاة جميلة نستطيع تزويجها لزاهر، لقد أصبح رجلاً ونريد أن نزوجه؟

- نعم، هناك الكثير، أنا مثلاً تزوجت قبل أيام للمرة الثانية، فتاة جميلة لم تتجاوز السادسة عشرة بعد، ولكن هل أنت متأكد من أن صديقك يستطيع تدبير الأمر بمفرده؟

علت ضحكاتهم وراحت تتعالى أكثر بعد أن غمز حليم بكلامه قائلاً :

- المسألة سهلة جداً، وعلى العموم لا تقلق، فأنا حاضر وعلى استعداد تام للمساعدة.

توقف سلمان بسيارته بعد أن تجاوز حائطاً طينياً مواجهاً لجهة الغرب، وبعد أن استدار إلى اليمين حيث المكان المخصص لوقوف السيارات، الذي تفصله بضعة أمتار عن بيت كبير المساحة بهندسة بسيطة وبطابق واحد. بناء يشبه المدارس الريفية، غرف متلاصقة ببعضها تشغل الأضلاع الأربعة المحيطة لباحة الدار بأرضيتها الكونكريتية، بالإضافة إلى باب كبير يتوسط الضلع الغربي وآخر قبالته أقل منه حجماً يتوسط الضلع الشرقي.

طلب سلمان من حليم وزاهر أن يتبعاه بعد أن توجه شمالاً حيث باب حديدي مطلي باللون الأخضر يتوسط الجدار الطيني. تجاوز الثلاثة الباب الحديدي، فظهرت أمامهم زريبة خالية من مواشيها، كانت مساحة الزريبة واسعة بعض الشيء، وكان حليم يعرف المكان جيداً، فلقد سبق له المجيء عدة مرات، وكان حضوره إلى هذا المكان لا يتم إلا إذا اقتضت الضرورة. صار الثلاثة وسط الزريبة، فظهر غطاء كونكريتي مرفوع عن فتحة مخصصة للدخول تحت الأرض حيث الملجأ. وحين صار الثلاثة في قعر الملجأ، وتبادلوا التحية مع توفيق الأعرج ورجب خضر، توزعوا على أسرة خمسة كانت منتشرة على محيط المكان. قدم لهم توفيق شاياً، وراحوا يتبادلون الحديث في مواضيع مختلفة، حتى رن هاتف سلمان المحمول. فتح الهاتف ووضعه ملاصقاً لأذنه اليمنى، ولم يقل سوى كلمة " ألو، نعم " وراح ينصت جيداً

لبضع ثوان ثم أغلق الاتصال، ونظر صوب حليم قائلاً:

- الأستاذ في انتظارك، علينا الخروج الآن.

ثم نظر إلى زاهر وطلب منه البقاء في المكان إلى حين عودة حليم.

خرج حليم وسلمان، وبعد أن صارا على الأرض، عمد سلمان إلى إغلاق الفتحة بشكل جيد، تأكّد بأن مَنْ في الداخل لا يمكنهم الخروج من الملجأ حتى يقوم هو أو شخص آخر بإزالة القضيب المعدني الذي حشره بين المحبسين الصغيرين المشتركين بين غطاء الفتحة وإطارها الحديدي.

راح زاهر يجول بنظره متفحصاً المكان، ثم زادت نظراته سرعة وهي تنتقل من زاوية إلى أخرى بعد أن لاحظ نظرات توفيق ورجب تتجهان نحوه مصحوبة بابتسامات يعرفها جيداً، فهو صاحب الخبرة الكافية لترجمة تلك المواقف منذ عدة سنين، تماماً منذ أن كان في العاشرة من عمره، حين قضى ليلة كاملة بأحضان أحد سائقي الشاحنات. كان ذلك السائق في زيارة قصيرة لأم زاهر، شأنه بذلك شأن الكثير من السائقين وأصحاب المهن الحرة الذين يزورون المرأة زيارات قصيرة لا تتجاوز نصف الساعة في أغلب الأحيان. حينذاك، وعندما أفرغ سائق الشاحنة حمولته اللزجة في جسد أم زاهر، طلبت منه أن يوصل ابنها الوحيد إلى مدينة العمارة من أجل زيارة جدته التي لم تره في حياتها إلا مرة واحدة عندما كان في سن السادسة.

صار زاهر يبتسم لتوفيق ورجب، وراح يطلق أسئلته حول المكان وحول صعوبة العيش فيه، وبعد قليل دنا منه توفيق وجلس إلى جانبه ثم قال:

- هل أنت خائف؟ إن هذا المكان هو آأمن مكان في هذه الدنيا، لذا فالخوف منه أمر مضحك جداً...

ضحك ونظر صوب رجب نظرة سريعة ليعيد نظره على شفتي زاهر وأضاف:

- على العموم إذا كنت خائفاً فيمكنك أن تحتمي بأحضان عمك توفيق وعمك رجب.

طوق توفيق الصبي بين يديه وراح يقبل شفتيه. أبدى زاهر بعض الممانعة الخفيفة وهو يتحجج بأن حليم لا يرضى ذلك، ولو عرف بما يفعله توفيق به ربما سيقتله، أثارت كلماته تلك نوبة عارمة من الضحك بين توفيق ورجب الذي سرعان ما علق على كلام الصبي قائلاً:

- لا عليك، لن يعرف شيئاً...

اقترب رجب من صيده الثمين وراح يداعب شعره ثم هبط بشفتيه يقبل رقبته، انصاع الصبي لرغبات توفيق ورجب بعد أن أقنع نفسه بأن لا أحد سيخبر حليم بما يجري، ثم بدء اللهاث وتبادل الأماكن والوضعيات لأكثر من ساعتين.

◆

دخل حليم الباحة الكونكريتية، التي تتوسط الغرف المتراصة والمتقابلة، داخل البيت المجاور لزريبة الحيوانات، وكان سلمان قد ظهر من باب إحدى الغرف، بعد أن دخلها منذ لحظات، وبعد أن طلب من حليم الانتظار عند شجرة التوت، التي تتوسط الباحة الكونكريتية، كي يتفيأ بظلها كما جرت العادة، أومأ سلمان لحليم بالاقتراب والدخول إلى الغرفة، ابتسم حليم وهو يدخل الغرفة، ثم قال:

- ماذا نعمل مع سيدنا الذي لا يتذكرنا إلّا بين الحين والآخر وكأننا غرباء؟

استدار إلى اليمين بعد أن تحرر من إطار الباب الخشبي، ليجد العقيد حميد كما شاهده في المرة السابقة، رجلاً في منتصف الأربعينيات من عمره ضخم الجثة أسمر البشرة، ذا كرش ضخم يمنح المرء حين يراه للوهلة الأولى، شعوراً بأن صاحبه يتنفس بصوبة بالغة، كان يرتدي دشداشة بيضاء وسروالاً أبيض من نفس القماش، يضع على رأسه كوفية بيضاء وعقالاً رفيعاً. اقترب حليم منه، صافحه وهمَّ بتقبيل يده، ولكن حميد سارع إلى سحبها طالباً من حليم الجلوس على الفراش الإسفنجي الذي يرتفع عن الأرض بما يقارب العشرين سنتيمتراً توزعت على جانبه الملامس للجدار عدد من الوسائد الملونة. أخذ حليم مكانه بجانب العقيد حميد، الذي طلب من سلمان مغادرة الغرفة وإغلاق الباب. كان صوت مكيف الهواء يشكل مصدر اطمئنان لحميد، كونه يسلب الفرصة ممن يريد استراق السمع لما يدور بالغرفة من أحاديث، وما يزيد من روح حميد اطمئناناً، تداخل صوت المكيف مع ضوضاء مولد التيار الكهربائي الذي وضع على مسافة بعيدة بعض الشيء خارج حدود المنزل، في مكان يشبه السقيفة الصغيرة مغطاة بقطع كبيرة من البلاستك وسعف النخيل، لحمايتها من حرارة الشمس أو المطر.

- ما هي الأخبار؟

سأل حميد.

- الأخبار جيدة بعض الشيء...

أخرج حليم ورقة صغيرة من جيب قميصه، ومد يده إلى حميد، ناوله الورقة قائلاً:

- هذه بعض الأسماء لشبان من المدينة، بعضهم تطوع في صفوف الحرس الوطني والشرطة، وبعضهم الآخر ينتظر جواب التعيين، وقد أشرت الحالة الخاصة بكل اسم.

- عظيم جداً، هل عرفت مَنْ مِن هؤلاء على استعداد للتعاون معنا؟

- والله سيدي، المسألة محتاجة بعض الوقت، وأنت تعرف حساسيتها، ولكن لا تقلق، سوف أتبين الأمر بأسرع وقت.

ضحك حميد بصوت عالٍ ومد يده إلى وجنة حليم، اعتصرها وهو يقول:

- ملعون، وهل عرف القلق طريقه إليَّ من قبل؟

ثم أضاف بصوت يعلوه الجدية:

- من الضروري أن نعرف خلال الأيام القليلة القادمة، موقف أصحاب هذه الأسماء قبل أن نتدخل في إجراءات التعيين، مفهوم؟

أشار حليم برأسه علامة الإيجاب واستمر حميد بالكلام:

- اسمع! لقد أمرت ثلاثة من رجالي بمراقبة شركة اللحوم التي أصبحت مقراً للجيش الأمريكي، وأعطيتهم ثلاثة أيام فقط، وعليك أن تزودني بأي خبر أو أي شيء يفيدنا عن ذلك الموقع، مفهوم؟

- مفهوم سيدي، وإن شاء الله لن أقصر بهذا الأمر البسيط.

- بالمناسبة، هل عرفت بعض المتعاونين من أبناء المدينة مع القوات الأمريكية أو الحكومة المضحكة.

- كنت ليلة أمس عند العميد ناهض، في بيته، وكان محمود درديري والدكتور عماد في ضيافته، وقال لي إن هناك أشخاصاً متعاونون مع الأمريكان، وأنه سوف يتأكد من أسمائهم في غضون يومين.

- يعني ليلة أمس كنت في بيت ناهض؟ هل كانت ليلة حمراء؟ خصوصاً وأن الدكتور موجود؟

قالها وهو يداعب وجه حليم، الذي بادره برد كان حميد يحفظه عن ظهر قلب:

- الليالي إذا لم تكن حمراء، فمن السخف أن تحسب من العمر.

ضحك حميد بصوت عال ثم قال:

- ملعون، تجاوزت الأربعين ولاتزال مراهقاً. بالمناسبة، ما هي أخبار سعدي جبار؟

- مَنْ؟

سأل حليم بقليل من الدهشة، واضاف:

- هل تقصد أبو حازم؟ سعدي ابن جبار الأوتجي؟

- نعم، وهل هناك غيره؟ لماذا أراك قد ارتبكت؟ هل بينك وبينه علاقة أو اتصال؟

طرح حميد أسئلته بصرامة واضحة، فأجابه حليم بقليل من الإرباك:

- لا، لا أبداً، ولكن سعدي ابن مدينة، وأنا أعرفه منذ كنت طفلاً! ولكن سيدي أرجوك أن تخبرني، وأن تعذرني لسؤالي هذا، لماذا تسأل عنه؟

- اسمع حليم! أنا لا أعرف هذا الرجل بشكل جيد، بل أعرفه كواحد من أبناء المدينة، وهو صاحب محل صغير جعله مكتب للطبابة وزرق الإبر والتداوي البسيط، ولكن أصدقاءنا في منطقة اليوسفية كلفوني بجمع بعض الأخبار عنه، وهذا كل ما في الأمر.

ارتعد حليم حين سماع ما قاله العقيد، فلم يكن يتصور أن أحداً يفكر في إيذاء إنسان عُرِفَ عنه شهامته وضحكاته التي يعرفها أغلب أبناء المدينة، وراح يفكر سراً ويتفحص كل زاوية يعرفها عن ذلك الرجل، ثم قال:

- أنا أعرف سعدي جيداً، فهو رغم انتمائه إلى الحزب الشيوعي العراقي، فإنه طيب جداً، وشهم جداً، يساعد الناس ويسأل عنهم بشكل مستمر، وليست عليه أي نقطة سوداء، فالكل يحترمه ويكن له الحب!

ضحك حميد بصوت عال، وبدا كرشه ككرة للعبة السلة في يد لاعب محترف، واكتسى لون وجهه الأسمر زرقة واضحة نتيجة احتقان الدم فيه، ثم قال:

- والله أنت غبي، لم أكن أتصورك بهذا الغباء، إذاً فهو رجل شريف يحب الناس ويحبونه؟

قال ذلك بطريقة ساخرة وراح يعد على أصابعه ميزات سعدي جبار:

- هو شيوعي، وشهم وشريف، فماذا تريد أكثر من هذا السواد؟ ثم هل نسيت ماذا عمل هذا الشخص في المدينة قبل فترة وجيزة من دخول الأمريكان إليها؟ هل نسيت كيف جمع الناس وراح يهتف أمامهم مطالباً بسقوط السيد الرئيس وحكومته؟ وكيف قام ومن معه بتمزيق وتهديم الصور والنصب الخاصة بالرئيس القائد؟ كل هذا وتقول إنه إنسان طيب؟

شعر حليم بتقلص في عضلات بطنه وأخذ العرق يتصبب من جبهته، وقال بارتباك واضح:

- والله سيدي لم أسمع بهذا، وأنت تعرف بأنني في ذلك الوقت كنت في الأردن!!

- نعم، أعرف أنك كنت تبيع رجولتك إلى الأردنيين بأبخس الأثمان، ولكن هذا لا يمنع كونك واحداً منا، وعليك أن تعرف كل صغيرة وكبيرة، أم تراك قد نسيت؟

شعر حليم بأن الموقف أخذ يتصاعد بخطورة واضحة، مما دفعه إلى احتضان العقيد حميد ليطبع قبلة على رقبته، وراح يتكلم بطريقة مليئة بالميوعة، دون أن يرفع شفتيه عن رقبة سيده:

- حبيبي، حمودتي، أنتَ تعرف كم أحبك، أرجوك ألا تغضب عليّ، فغضبك يقتلني، سامحني أرجوك...

ابتسم حميد، وسرعان ما تحولت ابتساماته إلى قهقهات، وكأن حليم قد داعب أدق عصب حسي فيه. ثم قال:

- ليست هناك مشكلة، بالتأكيد أسامحك، فأنا أعرفك منذ أن تم سوقك إلى الخدمة العسكرية الإلزامية قبل أكثر من عشرين سنة، ولكن عليك أن تكون حذراً، وأن ترصد كل شيء، هل فهمت؟

رفع حليم رأسه ونظر في عيني حميد وهو يقول بميوعة مصطنعة:

- لقد فهمت كل شيء، يا معلمي الأول والأخير.

ثم طبع قبلة على شفتيه وعاد إلى جلسته السابقة.

- هناك طلبية أتتنا من إخوتنا المجاهدين، يريدون أن نرصد العاهرات، كل فتاة أو امرأة تمارس البغاء، علينا أن نعطي اسمها إليهم، ليس هذا فقط...

نظر إلى حليم نظرة خبيثة وأضاف مبتسماً:

- يريدون أيضاً أسماء الذكور ممن يمارسون اللواط.

قال ذلك ثم انفجر ضاحكاً. امتقع وجه حليم بشكل واضح وتيبست شفتاه وهو يسأل:

- هل أنت جاد في ما تقول؟! أرجوك سيدي ألا تمزح معي، الأمر خطير جداً، وبعيد عن المزاح...

- لا عليك، لن نعتمد أي اسم إلا عن طريقك، وبهذه الطريقة تكون أنتَ في الجانب الأمين...

قال حميد وهو مستمر في ضحكاته وأضاف:

- إلا إذا أردت أن تعطينا اسمك، فالأمر يعود لك!!

- سيدي أرجوك، أكاد أموت وأنت تضحك!!

- لا عليك، افعل ما أمرتك به، أنت عيننا المهمة في المدينة، فكيف نفرط بك؟

اطمأن حليم بعض الشيء، وقال:

- سوف أفعل كل ما طلبته مني، هل هناك أوامر أخرى؟

- كلا، هذا كل شيء غاية الآن.

ثم هَمَّ واقفاً وهو يقول:

- عليك الذهاب الآن!

دس يده في جيب دشداشته وأخرج ثلاثة أوراق من فئة المئة دولار، دسها في جيب حليم الذي سارع بالوقوف حال وقوف سيده. خرج الاثنان إلى باحة الدار، وكان حميد يضع ساعده الأيسر على كتف حليم، وأصابعه تلامس الثدي الأيسر لحليم حيث الأوراق الخضراء تأخذ مكانها داخل جيب القميص. استوقف حميد صاحبه وقال له بلهجة صارمة:

- بين الأوراق المالية التي في جيبك الآن، ورقة صغيرة، عليك أن تسلمها إلى "أبو مجاهد"، بعد أن يوصلك سلمان إلى الشارع العام، عليك أن تأمره بأن جميع من يجدوهم في السيارة يجب أن يقتلوا، وألا يفارقوا المكان حتى يتأكدوا من موتهم، هل فهمت؟

هز حليم رأسه علامة بالإيجاب، وعند وقوفهما عند باب الدار الرئيسي، كان سلمان[1] يجلس خلف المقود مستمتعاً بسماع أغنية

(1) نظر سيرة (1)، سلمان داود الحاج سلمان، ص311.

شعبية من خلال جهاز تسجيل سيارته، اقترب الاثنان من السيارة، فخرج سلمان واقفاً حالما شاهدهما.

- سلمان! عليك أن توصل حليم إلى الشارع العام، هل فهمت؟

قال حميد ذلك بلهجة صارمة، فأجاب سلمان بالإيجاب وبالطبع لم يفته أن يختم قوله بكلمة سيدي. حينها طلب حليم من سلمان أن ينادي زاهر، وحين سمعه العقيد حميد، قال بشكل مباشر وبنبرة لا تخلو من الأمر:

- كلا، أتركه هذه الليلة عند الشباب، لقد سئموا المكوث في هذا المكان وهم بحاجة إلى بعض الترفيه.

- ولكن سيدي، ماذا سأقول لوالدته عندما تسألني عنه؟

- عليك أن تدبر الأمر، هل هذه صعبة عليك؟

ابتسم حليم لسيده وأظهر الموافقة على الرغم من أنه كان يحترق في داخله، خوفاً من أن يذهب زاهر بظنونه إلى أن إصرار حليم على اصطحابه إلى هذا المكان كان مدبراً من قبله وبالاتفاق مع الآخرين.

❖

في اليوم التالي، توقفت سيارة التويوتا الخضراء عند دكان حليم. ضغط السائق دواسة المنبّه ثلاث مرات، ثم انطلق إلى وجهته، انتبه حليم إلى صوت المنبه، وحين رفع رأسه، شاهد زاهر يقف أمامه وقد تغيرت ملامحه بشكل مخيف، عينان حمراوان، وهالة سوداء تحيط بهما، الشعر منفوش على غير عادته، وبقعة دائرية حمراء مزرقة اللون مطبوعة على وجنته اليمنى، اقترب حليم

من زاهر الذي ظل واقفاً ينظر إليه، وحين اقترب أكثر، وأصبح على مسافة لا تزيد عن النصف متر، بصق في وجه حليم وقال:

- أنت حقير، وأنا غبي.

ثم استدار ومشى حيث الطريق المؤدي إلى بيته. حاول حليم اللحاق به، ولكنه تأخر بعض الشيء بسبب ذلك الباب الصغير الذي حاول فتحه والذي كان يفصل بينه وبين زاهر. باب صغير بارتفاع متر واحد يكمل حين غلقه شكل الدكة الخشبية التي تستخدم لعرض البضاعة. غاب زاهر عن أنظار حليم، فرجع الأخير حيث كان.

باءت كل محاولات حليم، في إعادة العلاقة الخاصة بينه وبين خليله بالفشل، واستمرت القطيعة قرابة العشرة أيام، حينها اعترت حليم حالة من الغيرة والقلق وصلت في بعض الأحيان إلى الهستريا، حتى اهتدى إلى وسيلة جنونية لا تخلو من الخطورة. فتح تلفونه وضرب الأرقام...

- الو، الله يساعدك سيدي... نعم أنا حليم...، أريد أن أخبرك بأن زاهر غاضب مني جداً، فلقد وصل به الأمر إلى أن يبصق في وجهي، تماماً في اليوم التالي من بقائه عند الشباب... نعم أريد مساعدتك... كيف؟... أن تضعوا اسمه على لائحة الأسماء المحكوم عليها بالموت كونهم يمارسون اللواط... نعم، في اللائحة التي ستعلق صباح الغد، وأن يتم استبدالها بقائمة جديدة تخلو من اسم زاهر في اليوم التالي، هل هذا ممكن؟... أشكرك سيدي، إنها خدمة لن أنساها لك ما حييت، مع ألف سلامة.

جلس حليم على كرسيه وقد شعر ببعض الارتياح، وراح يفكر

بالخطوة القادمة. وبالفعل خرج حليم من داره مع ساعات الصباح الأولى، بعد أن قضى ليلة لا تقل سوءاً عن الليالي التسع التي سبقتها، وصل إلى مركز المدينة حيث تقاطع شارعي النعمان والنصر مع شارع المحمودية العام، كان المكان يشهد حركة صباحية متثاقلة، بائعات الخبر وغيرهن ممن يبعن القيمر (القشدة) وبعض عمال بناء متجهين إلى مكان تجمعهم (المَسْطَرْ). اتجه حليم صوب الجدار الذي اعتادت الجماعات المسلحة تعليق قراراتها عليه، نظر إلى الورقة المعلقة بواسطة مسمار صدئ، نظر لها بتمعن ثم اتجه صوب سكة القطار حيث يسكن زاهر، طرق الباب عدة طرقات وأنتظر حتى انفتح الباب. ظهرت أخت زاهر الكبرى وهي ترتدي قميص نوم أحمر اللون وآثار النعاس واضحة على وجهها.

- صباح الخير، أرجوكِ دعيني أدخل، هناك أمر خطير يخص زاهر!

تنحت الفتاة جانباً وهي غير مصدقة ما سمعت، كان أفراد العائلة نائمين في باحة الدار، فالساعة قد تجاوزت السادسة صباحاً ببضع دقائق، وكانت أم زاهر جالسة على فراشها الإسفنجي. ألقى عليها حليم التحية الصباحية. اقترب منها وجلس قبالتها حتى لامست إحدى ركبتيه ساق المرأة، نظر إلى صدرها الذابل ورقبتها ثم ركز نظراته بعينيها وقال بصوت خافت:

- اسمعيني جيداً، أعرف أن زاهر نائم ولايستطيع أن يسمعنا، لقد قرأت منذ قليل ورقة علقها المجاهدون، أقصد الإرهابيين، تتهم زاهر باللواط!

لطمت المرأة على صدرها الخاوي دون أن تتفوه بكلمة بينما استمر حليم بالكلام بعد أن مسك يدها وقال:

– وانا أعرف كما تعرفين، بأن زاهر شريف ولا يمارس مثل تلك الأفعال، والذي دعاني إلى القدوم إليكِ في هذا الوقت، هو ضرورة أن تمنعيه من الخروج اليوم، اليوم فقط، حتى أتصل بمعارفي وأصحح الأمر، وحين يصحو من نومه عليك أن تشرحي له الأمر، وأن تشرحي له كيف أتيت أنا إلى هنا، وتخبريه أيضاً بما وعدتكِ به، هل اتفقنا؟

– نعم، اتفقنا.

قالت أم زاهر بعد أن سالت دموعها وهي تستمع إلى حليم، حينها ابتسم حليم وقال:

– غداً صباحاً سوف أزوركم وسوف أنقل لك الخبر المفرح...

ثم سأل بقليل من الخبث وهو ينظر إلى مؤخرة الفتاة الصغرى النائمة:

– هل أنا مدعو على وجبة الإفطار صباح الغد؟

– أكيد، أهلاً بك متى شئت، البيت بيتك.

قالت أم زاهر ثم أشارت إلى ابنتها الكبرى لترافق حليم حيث الباب.

❖

عادت العلاقة بين حليم وزاهر على أتم وجه، خصوصاً بعد أن زار حليم عائلة أم زاهر صباح اليوم التالي كما جرى الاتفاق بينه وبينها ليخبرها بأن الورقة التي تدين زاهر بممارسة اللواط قد استبدلت بأخرى جديدة خالية من اسمه. كانت أم زاهر قد أعدت إفطاراً خاصاً إلى حليم وجميع من في الدار، هي وزاهر والأخوات

الثلاث وفتاتان لم يستطيع حليم التعرف عليهما، فلم يسبق له أن شاهدهما من قبل، بالإضافة إلى "سرحان الميكانيكي" الذي طلبت منه أم زاهر المبيت عندها تحسباً لأي أمر طارئ.

في تلك الأثناء كان سعدي جبار قد استيقظ من نومه منذ قرابة الخمس دقائق، وكعادته راح ينظر إلى الإصبع الصغيرة في قدمه اليمنى، تماماً كما اعتاد في كل صباح، وراح يكلمه بكل حب، الكلام المكرر الذي اعتاد أن يقوله مخاطباً تلك الإصبع المسكينة منذ إعلان وقف إطلاق نار الحرب، نظر إليه قائلاً:

- صباح الخير يا صديقي، أيها الجميل الحنون، أنت أشرف من كل الجنرالات، وتأكد بأني لن أؤذيك ما حييت... دس قدميه في نعلين قديمين ووقف ينظر إلى زرقة السماء منتعشاً بنسيم الصباح وهو يحمل برودة خاصة جداً سرعان ما تذوب وتتلاشى تحت حرارة شمس النهار. لم يعتد سعدي أن يلملم فراشه، بل يكتفي بإزاحته حيث سور السطح العالي. كان من عشاق الصباحات الجميلة، وكان كثيراً ما يردد على مسامع أهله واصدقائه فوائد النوم على سطح الدار، كان يقول " حين يفتح المرء عينيه بعد نوم عميق مشبع بالهواء النقي، يشاهد الله، فالسماء أول ما يراه الإنسان، السماء العظيمة التي ترمز إلى مكان الله، عندها يتم الإعلان عن بداية يوم جديد. " أنت والله أولاً، ثم أنت والآخرون "، ولا يهم كثيراً شكل الحوار أو الطلب أو الأمنية التي يتبادلها المرء مع مالك السماء. المهم، أن هناك حواراً " وكان سعدي كثيراً ما يعلن تلك العلاقة الحميمة بينه وبين الله، وطبعاً بطريقته الفكاهية المميزة لشخصيته، كان دائماً ما يعلن، بأنه وربه على علاقة وطيدة، علاقة حميمة لم تعرفها البشرية من قبل.

لا يختلف سعدي جبار كثيراً عن مجايليه من أبناء مدينته، والفرق البسيط الذي كان بينه وبينهم هو كرهه الشديد للدراسة، خصوصاً بعد ما تذوق عظيم الألم وهو صبي صغير من تلك العصا اللعينة التي كانت تلازم يد الأستاذ " جواد المصلح "مدير مدرسة " المحمودية الثانية للبنين". لم يكن سعدي مشاكساً، بل كان كثير الضحك شغوفاً بتأليف النكات التي لا تمس شعور أو كرامة أحد بسوء، وحين يلاحظ أحد المعلمين، كركرات الصبية في الصف الدراسي، يعرف تماماً أن مصدرها سعدي جبار.

تعثر سعدي في دراسته كثيراً حتى وصل المرحلة الأخيرة من الدراسة المتوسطة التي لم يستطيع تجاوزها رغم المحاولات الثلاث المتكررة على مدى ثلاثة مواسم دراسية، حينها كان عمر سعدي يقترب من الثامنة عشرة، وهذا يعني أنه سيساق إلى الخدمة الإلزامية كجندي مكلف، عند ذاك اتخذ القرار بتطوعه في الجيش العراقي بسبب سوء الحالة المعاشية التي كانت تعاني منها عائلته، فراتب الجندي المطوع أكبر بكثير من الجندي المكلف. دخل سعدي جبار مدرسة "الصنايع العسكرية،" وتخصص في قسم الإسعافات أو الطبابة العسكرية، ليتخرج بعد ذلك برتبة نائب عريف "مضمد" كان ذلك عام 1972، عام المفاوضات الحثيثة التي كانت تجرى بين حزب البعث الحاكم، وقيادة الحزب الشيوعي العراقي، من أجل الخروج بصيغة عمل مشترك. وبالفعل، تم الإعلان في تموز 1973 عن قيام " الجبهة الوطنية والقومية التقدمية " بين حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعي العراقي وبعض الأحزاب الكردية، وكان سعدي جبار قد انتمى قبل عامين إلى اتحاد الطلبة العام، وهو تنظيم طلابي تابع للحزب الشيوعي العراقي.

تعرّف سعدي جبار على أغلب المحافظات العراقية نتيجة تنقلاته المتكررة بسبب تلك المعلومة التي كتبت في ملفه الشخصي المحفوظ في سجلات الاستخبارات العسكرية التابعة لوزارة الدفاع، المعلومة كانت مقتضبة جداً " متعاطف مع الحزب الشيوعي العراقي " وعلى الرغم من أن كلمة متعاطف لا تعني أنه منتمٍ، إلا أنها كانت السبب الرئيس في نقل سعدي جبار من معسكر إلى آخر، حتى بداية عام 1978 حيث تم نقله إلى مستشفى الرشيد العسكري في بغداد، ولم يحدث ذلك بسهولة، بل كان بتوصية خاصة من قبل أحد الضباط الكبار، بعد أن توسط له أحد أقربائه، وهو المطرب المعروف " حميد منصور ". صار سعدي جبار يأتي إلى مدينة المحمودية يومياً، بدلاً من سبعة أيام في الشهر، فلقد خدمته ظروف ومكان عمله القريب من منطقة سكناه أن يكون بين أصدقائه وعائلته بشكل يومي تقريباً. وهذا ما شجعه على إنشاء فريق لكرة القدم أطلق عليه اسم " فريق الهواة ".

ضم ذلك الفريق نخبة متميزة من لاعبي كرة القدم الشباب من أبناء مدينة المحمودية، ماجد عبد السيد، عامر حسن علوان، ثامر حسن علوان، شاكر محمد سعيد، مرزا نوري، حسن شناوي وغيرهم، وشاءت الصدفة أن يكون أغلب أعضاء الفريق، ممن سبق لهم وانضموا إلى اتحاد الطلبة العام، فراحت الفرق الأخرى من المنافسين تطلق عليهم " فريق الشيوعيين " وكان حقاً فريقاً متميزاً من الناحية الفنية والمهارات واللياقة البدنية، وصار فريقاً منافساً لأغلب الفرق في المدينة، واستطاع أن يحصل على العديد من الجوائز.

حينما اشتعلت نيران الحرب العراقية الإيرانية كان سعدي جبار

قد أصبح برتبة رئيس عرفاء، فتم نقله إلى إحدى الوحدات الطبية المتقدمة في جبهة القتال. هناك عرف منظر الدم وطعم الموت. مشاهد لم تمر في مخيلته من قبل، كثير من الأرواح زهقت بين يديه، بتر أعضاء، استلال شظايا القنابل من الأجساد، تشوهات حروق وغيرها، وكان كل ذلك يدور أمام ناظريه وهو الشاب البسيط المسالم المحب للحياة، والذي لم يكسب منها سوى مهارته في خلق الضحكة العميقة داخل أرواح أصدقائه وأبناء مدينته.

في إحدى الإجازات الاعتيادية، وحين كان سعدي يشرف على تدريب فريقه، تعرض إلى مصادمة خفيفة بينه وبين لاعب آخر نتج عن تلك المصادمة كسر في الإصبع الصغيرة لقدمه اليمنى مما تسبب في إعاقة طفيفة وواضحة عند المشي، حصل على إثرها إجازة استثنائية لمدة ثلاثة أسابيع، وعندما شعر بأهمية الإجازة وعدم الذهاب إلى وحدته العسكرية التي كانت لا تبعد كثيراً عن الخطوط الأمامية لمواقع " الأعداء "، صار يعمد على كسر أصبعه كلما بانت عليه ظواهر الشفاء.

كان سعدي جبار البياتي، شيوعي الهوى ساخر الطبائع، على الرغم من أنه لم ينتمِ إلى الحزب الشيوعي العراقي، ولم يصبح عضوا فيه حتى ذلك اليوم الذي وقف فيه وسط التقاطع بين شارعي النصر والنعمان وشارع المحمودية العام، كانت الأرصفة حينها مكتظة بالناس، لم يكونوا متبضعين أو بائعين كعادتهم، بل كانوا يترقبون شيئاً، حلماً أو كارثة أو أي موقف آخر أصبح مؤكداً حصوله، وما ينقص تحقيقه سوى الدلالة. وقف سعدي بجسده الممتلئ وسحنته السمراء، نظر إلى الناس وأطال النظر فيهم، حتى انتبه غالبيتهم لوقفته غير الاعتيادية، صاح بأعلى صوته:

- الموت لصدام حسين...

ثم صمت وكأنه ينتظر صدى صوته، ثم صاح مرة أخرى:

- يسقط صدام حسين المجرم...

سكت مرة أخرى حتى انتبه إلى انهمار دموعه على خديه، ثم صرخ بصوت أعلى من ذي قبل:

- الموت لصدام حسين، يسقط البعث، عاش العراق... عاش العراق... عاش العراق...

ثم صمت ولم يصمت صداه، ضاع بين جموع الناس التي أحاطته وحملته على أكتافها، راح ينظر في الوجوه القريبة منه، يتحسسهم، وهو يسمع هتافهم المدوّي، تعرَّفَ على أغلب الذين كانوا يحيطون به والذين صار على أكتافهم، كانوا أعضاء فريق "الهواة" لكرة القدم الذي أسسه منذ خمسٍ وعشرين سنة.

(6)

بعد تركهما منطقة الآثار، وبعد اتفاق كميلة مع الضابط الأمريكي على حضورها غداً إلى المنطقة، وفي طريق عودتهما إلى مدينة المحمودية، حاولت كميلة أن تشرح لعلاء ما جرى في لقائها مع الضابط الأمريكي المسؤول عن القوات المتواجدة في منطقة الآثار، ثم انتبهت إلى أمر غاية في الأهمية، نظرت إلى علاء وأطالت في تحديقها، كانت تفكر في شيء له علاقة وطيدة بالعقلية الأوربية وتعودها، ثم أطلقت تنهيدة واضحة الصوت لتقول بعد ذلك وبشيء من الخيبة والثبات في آن واحد:

- غداً السبت، هذا صحيح، وهذا يعني أن الآثاريين الإسرائيليين، إن صحت الشائعات، لن يعملوا في مثل هذا اليوم. ترى هل يفضل من لا يملك الوقت ولا يستطيع أن يفرط بدقيقة واحدة إلا وأستثمرها في مثل هذه الظروف، أن يأخذ يوماً كاملاً للاستراحة؟

سؤال أطلقته كميلة على نفسها، ولكنه وصل مسامع علاء، والحقيقة أنها كانت تفكر بصوت عال، فما كان من علاء إلا أن يجيب على ما سمعه:

- عليكِ أن تتذكري بأن القوات الأمريكية تتمركز في هذا الموقع منذ أكثر من ثمانية عشر شهراً وهذه الفترة ليست بالقصيرة لأشخاص غير مسموح لهم بأن يفرطوا بدقيقة واحدة من زمن عملهم.

ابتسمت كميلة وهي تنظر صوب علاء، ثم قالت لنفسها بصوت عال:

- الضابط الذي قابلته يتمتع بذكاء ملفت للنظر!

لم يجب علاء على ملاحظة كميلة الأخيرة، واكتفى بالنظر إلى الطريق الذي أمامه، ولكنه في الحقيقة كان يفكر بالتحضيرات التي طلبها من أخته لتكون مناسبة لاستقبال ضيوفه، أصدقائه القدامى، أبناء مدينته وأصدقاء طفولته، وبعد فترة صمت قصيرة قال:

- أعتقد بأنني طلبت من أختي عواطف الكثير، ولا شك بأنها منهمكة الآن بتحضير الأكل وتهيئة البيت لاستقبال الضيوف، فلقد دعوت أصدقائي الذين كانوا في زيارتنا مساء أمس على العشاء على الرغم من أني حددت الموعد في الساعة الرابعة عصراً...

ثم أطلق ضحكة خفيفة وقال:

- يعني غداء وعشاء في آن واحد، فلقد فكرت وكأني لا أزال موجود في الدنمارك، فكرت أن يكون الموعد الساعة الرابعة عصراً حتى نتمكن من تناول طعامنا بين الخامسة والسادسة كما تعودت بطوننا حسب التوقيت الدنماركي.

- ليس المهم متى نأكل، المهم أن تلتقي بأصدقائك وتتحدث معهم، وتشبع رغبتك التي لازمتك سنوات طويلة.

قالت كميلة، فابتسم علاء لكلام عشيقته، وشعر بالفرح المداعب لإنسانيته تماماً كما في كل مرة يتحدث فيها مع هذه المخلوقة الشفافة، فهي دائمة التفكير به وبمشاعره وأمنياته، وكثيراً ما كان يقول لها بأنها أحن عليه من أمه، نظر صوبها نظرة خاطفة وقال:

- أنتِ أحنّ عليَّ من أمي، أحبكِ كما أنتِ، أرجو أن تبقي هكذا ولا تحاولي أن تتغيري قيد شعرة.

أطلقت كميلة ضحكة غنجٍ لا تخلو من الخبث وقالت مازحة:

- إذاً فأنت لا تأمن بنظرية التطور!

أطلق علاء ضحكته دون أن ينسى نبرة التودد الخبيثة بلطفها وقال:

- نظرية التطور وجدت من أجل أشخاص يعانون نقصاً في البناء الروحي والإنساني، وليس لشخص مثلك...

◆

تماماً كما تصور علاء، فلقد وجد أخته منهمكة في عملها، تتنقل بين المطبخ والصالة والتواليت والحديقة، وهي تصدر أوامرها لهذا وتلك من أبنائها وأبناء جيرانها الذين تطوعوا لمساعدتها، صاح علاء عند دخوله بوابة الدار بعد أن ركن سيارته جانب السياج الخارجي للحديقة:

- لقد أتينا قبل الوقت المتفق عليه كي نساعدك في التحضيرات.

- ليس من شيمنا أن نمتهن ضيوفنا!

قالت عواطف وصوت ضحكاتها الفرحة بقدوم شقيقها يتخلل كلماتها، ثم أضافت:

- على الرغم من أنكما أصحاب الدار ولستما ضيوفاً، ولكني أتعامل معكما وكأنكما في شهر عسل، عروسان جدد، والعروسان لا يعملان، أو يُطلبْ منهما عمل أي شيء إلا بعد أن يجتازا اليوم

السابع، وأنتما الآن في اليوم الرابع فقط، يعني أمامكما ثلاثة أيام زواج في زواج.

علت ضحكة علاء لتمتزج بضحكات الصبيان والصبايا في باحة الدار، وترجم علاء لكميلة ما قالته أخته وراحت تضحك هي الأخرى ثم همست لعلاء قائلة:

- هل تعرف عواطف تلك المقولة التي قالها الفيلسوف سورن كيركغارد؟... ترى ماذا ستقول لو عرفت أن معظم الدنماركيين والكثير من الأوربيين يؤمنون بمقولة كيركغارد التي تقول "إن الفكر والزواج لا يتفقان"؟... ربما ستصاب بالجنون لو عرفت أنه قال أيضاً "على المرء أن لا يتزوج بمن يُحب، لأن الزواج كفيل بقتل الحب".

نظر علاء إليها، وقرَّب أنفه من أنفها حتى تلامسا، ثم قال لها وهو ينظر في عينيها الخضراوين:

- نحن زوجان ما دمنا نتواجد هنا في العراق وفي هذه المدينة على وجه الخصوص، لأن الجميع يعرفوننا، أما إذا كنا هناك، فنحن عاشقان.. أوكي؟

قال كلمته الأخيرة بتودد واضح داعب مشاعر كميلة فطبعت قبلة خفيفة على فمه.

الصالة في بيت عواطف " أم أحمد " تتسع لأكثر من عشرين شخصاً، وبما أن الضيوف كانوا أربعة أشخاص. فقد اتخذ الجميع زاوية الصالة المطلة على الحديقة حيث الشباك الكبير مكاناً لجلستهم دون أي قصد.

الضيوف في الحقيقة هم أقرب الناس لعلاء. الكيميائي علي

محمد والمضمد سعدي جبار، والفنان التشكيلي نوري حسن. أما الرابع فهو ناصر شاكر، الشخصية المظلومة، التي لم يتسنَ لها الدخول إلى الجامعة رغم الدرجات الامتحانية المقبولة، التي حققها في امتحان البكالوريا لصفوف السادس الثانوي. فلقد شاء القدر أو حظه السيئ، أن يتخرج من الثانوية للعام الدراسي 81-82، أي العام الذي انكسر فيه الجيش العراقي وتكبد خسائر بشرية فادحة في معركة المحمرة، عندها شعرت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية بأنها قد دخلت في خضم مشكلة مصيرية، فالنقص الهائل بالأفراد الذي عانى منه الجيش العراقي نتيجة الانكسارات، ربما سيؤدي بالنهاية إلى تمكين القوات الإيرانية من احتلال العراق - هذا ما كانت تصرح به القيادة العامة -، لذا اتخذت قراراً حاسماً بعد المشاورات السريعة مع القائد العام، الذي أمر بعدم قبول الطلبة من خريجي الثانويات في الجامعات والمعاهد للعام الدراسي 82-83 ممن حصلوا على درجات أدنى من التقييم المتوسط، ويساقون للخدمة العسكرية الإلزامية. وبهذا عوَّض الجيش العراقي خسائره، وشكلت قطعات عسكرية جديدة بالطلبة الذين تجاوزوا الامتحان النهائي بنجاح. ناصر شاكر شخصية محبة للفن والثقافة، وكثيراً ما كان يحلم بان يكون ممثلاً مسرحياً، ولكنه في حقيقة الأمر محدود التفكير والثقافة، كثير الكلام، شخصية محبوبة جداً على الصعيد الإنساني والاجتماعي.

- كيف كانت رحلتكما إلى آثار بابل؟

سأل علي محمد فأجابه علاء قائلاً:

- لم تكن سهلة، ولكننا سنحاول صباح الغد، فهناك أمل.

- نعم، قابلت الضابط المسؤول عن الموقع، ووعدني بأنه

سيبذل جهده من أجل الحصول على موافقة تسمح لنا بالتجوال في الموقع...

قالت كميلة ذلك ثم نظرت صوب نوري وأضافت:

- بالمناسبة، الفضول يدفعني إلى أن أرى بعض لوحاتك، لقد كلمني علاء عنك، وعرفت بأنك فنان من نوع خاص، لذا أريد أن أكتشف تلك الخصوصية بنفسي.

ابتسم نوري وكان واضحاً عليه بأنه قد فهم فحوى الكلام، حيث تعذر عليه فهم بعض الكلمات، فقال:

- أتمنى ذلك، أتمنى أن تشاهدي أعمالي وتبدي لي رأيك بها، فأنا أعرف بأنك لا تعرفين المجاملة وسوف تقولين انطباعاتك بصدق.

علت ضحكة من سعدي جبار انتبه لها الجميع. حتى لاحظ سعدي أن ضحكته جاءت في غير محلها فقال مبرراً:

- وأنا؟ هل تريدين أن تجربي مهارتي في زرق الإبر؟ أنا ممرض شاطر جداً...

ضحك الجميع وضحكت كميلة بعد أن سمعت الترجمة وأضاف سعدي:

- ولن أسألك عن انطباعاتك لأني سوف أسمعها حالما أغز الإبرة.

وبعد أن هدأت نوبة الضحك، قال ناصر:

- سعدي هكذا، مستودع ضحك وخفة دم، هل تصدقون بأننا أبناء المحمودية كنا في كل إجازة نحصل عليها حين كنا جنوداً في

الحرب، أول شيء نبحث عنه في أول خطوة لنا بشوارع المدينة هو سعدي جبار وسيد جابر وصالح عزاوي وحمزة وعقيل أولاد نوري وجمال جليل وفاضل جويس وغيرهم من أبناء المحمودية الذين إذا اجتمعوا يكونون أفضل فرقة كوميدية يعرفها التاريخ، وأبناء المحمودية يعرفون ذلك، فعندما تسمع الضحكات وهي تعلو من إحدى مقاهي المدينة، فقل أن أفراد الفرقة هناك في المقهى.

- هذا هو الواقع...

قال علاء وأضاف:

- المحمودية بأبنائها، كانت مدينة الثقافة والفن والمرح والشهادات العليا، فابن المحمودية وعلى الرغم من أنني سمعت عدة أشخاص من مناطق أخرى، لا يعرفون المدينة بشكل جيد، حيث يتصورون بأنها قرية أو أن سكانها من الفلاحين فقط. يستطيع أن يشاهد أحدث الأفلام السينمائية والمسرحيات والندوات الثقافية خلال عشرين دقيقة فقط، هي الفترة الزمنية الكافية لوصوله إلى قلب العاصمة بغداد.

- كثيراً ما سمعت من أصدقاء لي من أبناء العاصمة، وأيضاً من الذين يسكنون المحافظات، تلك النظرة عن مدينة المحمودية. فعندما كنت طالباً في معهد الفنون الجميلة، كان زملائي في حيرة من أمرهم تجاهي، كانوا يسألونني عن سبب عدم سكناي في أقسام المعهد الداخلية إسوة بطلبة المحافظات، أقصد مساكن الطلبة، فهم لا يعرفون حقيقة المسافة الفاصلة، بين قلب بغداد ومركز مدينة المحمودية، وكنت أقول لهم بأني أحتاج إلى عشرين دقيقة فقط كي أصل إلى بناية المعهد، وإن المحمودية قضاء تابع إلى العاصمة بغداد، وكان المتفكهون منهم يسألونني عن الحمير والزراعة وطريقة

السقي، لا أخفي عليكم، كانت أسئلتهم تضايقني جداً بداية الأمر، ولكني تعودت عليها بعد أن أسعفني مزاجي المتفكه بعض الشيء، لأحول امتعاضي إلى ضحكات ساخرة.

قال نوري حسن فبادره ناصر بسؤال:

- ولكن الفنان عبد الوهاب الدايني، رئيس قسم السينما في معهد الفنون الجميلة، هو من أبناء المحمودية، ألم يعرفوا هذا؟ ألم تقل لهم ذلك؟

- نعم بالتأكيد، وقلت أكثر من هذا، ولم أنسَ إخبارهم بأن وكيل وزير التربية الأستاذ خالد شكري من أبناء مدينة المحمودية أيضاً، وذكرت لهم أسماء عدة، حتى أصبحوا يلحون عليَّ في طلبهم من أجل زيارة المدينة، فعرفوا كل شيء عنها بعد أن زارها قسم كبير منهم حين دعوتهم واستضفتهم في بيتنا عدة مرات، ولكن الموضوع يتكرر في كل عام، أو على وجه الدقة مع كل وجبة جديدة تدخل المعهد، ويكون أحد أبناء المدينة من ضمنها، فلقد تعرض الفنان التشكيلي عباس الكاظم لنفس الأسئلة عندما كان طالباً في المعهد، ومن بعده الفنان والكاتب المسرحي عبد الأمير شمخي، وتلاه الممثل عامر جهاد، ثم أتيت أنا من بعدهم، وجاء بعدي المسرحي ضياء نعمة ولي رحمه الله، ومن بعده جاء الفنان مهند هادي وغيرهم، وطبعاً هذا يخص معهد الفنون الجميلة فقط، فما بالكم بالجامعات والكليات والمعاهد الأخرى؟

- يا إلهي، كل هذه الشخصيات خرجت من هذه المدينة الصغيرة؟

سأل الأستاذ شريف بشيء من الدهشة، فأجابه سعدي:

- وهناك الكثير، فهناك الكتاب والصحفيون وغيرهم، المحمودية يا أصدقائي كانت تسمى مدينة الفن والثقافة، فهل نسيتم أن في عام 73 أفتتح في المحمودية أول معرض شخصي مشترك لفنانين تشكيليين من أبناء المدينة؟ هل تذكرون كيف كان الناس يخرجون بملابس نظيفة وكأنهم في يوم العيد ليذهبوا ويشاهدوا لوحات الفنان عباس الكاظم والفنان قاسم حمزة؟ وكيف لا تتذكرون المسرحيات التي كانت تقام على قاعة مدرسة "الثانية الابتدائية"؟ كانت تعرض على الأقل، بالإضافة إلى مسرحيات النشاطات المدرسية، مسرحية واحدة في العام، مسرحية من الوزن الثقيل...

علت بعض الضحكات بين الحاضرين بسبب عبارة الوزن الثقيل، ولكن سعدي استمر في حديثة قائلاً:

- كان يشارك فيها شباب المدينة ممن يمتلكون موهبة التمثيل، كانت المحمودية بالفعل مدينة للثقافة والفن.

وحين أتم سعدي جملته الأخيرة، قال علاء وقد ظهرت علامات الأسف على ملامحه:

- ولكن، المحمودية الآن تسمى "مثلث الموت"، أليس هذا محزناً؟

سادت لحظات صمت لم يحاول أي منهم الإجابة على السؤال، حتى دخلت عواطف إلى الصالة بعد أن فتحت الباب الآخر المقابل لباب المطبخ لتعلن أن الأكل جاهز. وبطريقة الأم الحنون طلبت من الجميع أن يذهبوا إلى الحمام المجاور ليغسلوا أيديهم قبل الأكل.

شعر علاء ببعض الامتعاض كونه لم يحصل على إجابة لسؤاله، والحقيقة أن رغبة عارمة كانت تعتريه، في مناقشة ذلك الموضوع، فطالما أبكاه الحال الذي أصبحت عليه مدينته الجميلة، كيف تتحول هذه المدينة الجميلة من مدينة تهتم بالثقافة والأدب والفن، إلى مثلث موت؟ يقتل فيه الأبرياء من البشر كالحيوانات الضالة، يقتلون بدم بارد، أصبحت المدينة رمزاً للرعب والإرهاب والموت المجاني.

◆

جلس الجميع على الأرض، فشكلوا مستطيلاً متكاملاً، أجبرهم على ذلك استطالة الشرشف البلاستيكي الذي مُدَّ على الأرض ووضعت عليه الأواني ليكوّن مائدة عامرة بالسمك المشوي والدجاج المحمص على جمر التنور، والرز والشوربة وعصير قمر الدين. صاح سعدي جبار موجهاً كلامه إلى عواطف:

- ما هذا يا أم أحمد؟ هل نحن في رمضان؟ شوربة عدس وشربت قمر الدين!

ضحك الجميع وباشروا بالأكل بعد أن منحهم الأستاذ شريف الإشارة بالمباشرة حسب أصول الضيافة.

جلست عواطف إلى جانب كميلة وبدأت تقطع لها اللحم بيدها وتضعه في الطبق البلور الذي أمامها، وكانت تختلس النظر بين لحظة وأخرى، لتتفحص معالم زوجة أخيها، الشعر الذهبي يلامس الكتفين، والوجنتان الورديتان والرقبة المرمرية والبشرة البيضاء والعينان الخضراوان الواسعتان، كانت تنظر صوبها وتبتسم بغبطة واضحة، حتى أطلقت كلمة داخل روحها، وصلت مسامع الجميع،

"هذه ليست امرأة، إنها طير من طيور الجنة، والله علاوي يستاهل كل خير، "هنياله"...". لم تهتم كميلة لما تفعله أم أحمد، فتناولت طبق فارغ وطلبت من علاء أن يغرف لها بعضاً من السَلَطَة، حيث السطانية الكبيرة التي أمامه، وحين باشرت كميلة بتناولها، قالت عواطف لشقيقها ببعض من الامتعاض:

- حبيبي علاء، لماذا تأكل زوجتك السَلَطة فقط، هل الأكل سيئ؟

ابتسم علاء وحاول أن يشرح لشقيقته بأن زوجته لا تأكل اللحوم في المساء، فهي متعودة على أكل بعض الفواكه أو الخضار مساءً، هزت عواطف يدها وقالت مستنكرة:

- لذلك أراها ضعيفة! جلد وعظم، "خطية"!

انفجر علاء ضاحكاً حتى كاد يختنق بطعامه، وسألها عن السبب وراء قول كلمة "خطية" فقال:

- لماذا تعتقدين أن ضعفها مشكلة وتقولين هكذا وكأنها مصابة بمرض مزمن؟ إنها رشيقة، خفيفة الحركة ونشطة بسبب رشاقتها.

لم تنظر أم أحمد إلى أخيها، بل اكتفت بالقول وهي تنظر في طبقها:

- ليست هي فقط "خطية" أنت أيضاً، أعرفك جيداً وأعرف تعاسة حظك من الصغر، ترى ماذا يضر لو كان جسم زوجتك يكتنز باللحم؟

صمتت عواطف لثوان، ثم راحت تسأل:

- كم عمرها؟ الواضح أنها أصغر منك! ولكن الأجنبيات لا

يظهر عليهن تأثير السنين، كما نحن عليه وتعاستنا التي تشيب الصبي!!

- ست وثلاثون، يعني أصغر مني بثماني سنوات، هل أنتِ راضية الآن؟

أطلقت عواطف ضحكة خجلى وقالت:

- وما دخلي أنا؟ أنت الذي ينام إلى جانبها، وأنت الذي يقدر.

أطلق الآخرون ضحكاتهم بعد أن فهموا الغمز الجنسي وراء كلام أم أحمد، فقال علي محاولاً تغيير الحديث، مكملاً ما كانوا يتحدثون به قبل أن تدعيهم أم أحمد لتناول الأكل:

- كيف وجدت المحمودية؟ هل شعرت ببعض التغييرات التي طرأت على المدينة؟

قال موجهاً سؤاله إلى علاء الذي حاول أن ينهي ضحكته ليجيب على السؤال فقال:

- أعترف لكم بأني شعرت بالغربة، فالمدينة لم تعد تلك التي أعرفها، لقد تغيرت الوجوه على الرغم من أن معمار مركز المدينة لم يتغير كثيراً، ولكن الناس! أغلب الذين رأيتهم في الشوارع والمحلات غرباء، لا أعرفهم، وهناك حالة غريبة، هي أن الشوارع أصبحت مزدحمة جداً حتى تصورت أن المدينة تكاد تنفجر من شدة الزحام...

قاطعة ناصر قائلاً:

- الأطفال الذين تركتهم صاروا رجالاً ونساءً، وهذا أمر طبيعي، وطبيعي جداً أنك لا تستطيع أن تتعرف عليهم بسهولة.

ابتسم علي محمد الذي لم يرق له ما سمعه، فقال بشيء من العلمية والدراية كعادته:

– حتى عام 78 كان تعداد سكان مدينة المحمودية بأريافها وتوابعها من القرى والنواحي لا يتجاوز المئة ألف نسمة، هذا إذا عرفنا بأن قضاء المحمودية هو أكبر قضاء في العراق مساحةً، ولكن وبعد إنشاء المنشآت العسكرية الست التي تحيط بمدينة المحمودية، بالإضافة إلى ما يتبعها من دوائر ومختبرات وغيرها، ومن الطبيعي أن يُشَغِّل هذه المنشآت والدوائر الحكومية موظفون كثر، فقد تم بناء العمارات السكنية في غرب المدينة لعمال وموظفي تلك المنشآت، والتي تضم المئات من الشقق السكنية، وهذا عدد هائل لو حاولنا استخدام طريقة حسابية بسيطة، فلو قلنا إن معدل العائلة الواحدة التي سكنت في تلك الشقق هو أربعة أشخاص، فسيكون عدد سكان تلك الشقق يساوي أو يزيد قليلاً على عدد السكان الأصلي للمدينة، كان ذلك عام 80، ولكن الآن وبعد مرور أربع وعشرين سنة، كم أصبح هذا العدد؟ لذا تجد أن المدينة تغص بالناس، وأن الشوارع أصبحت لا تطاق جراء اختفائها واختفاء معالمها تحت أقدام البشر وخلف أجسادهم.

– صدقوني، لقد أصبحنا غرباء في مدينتنا، نحن الأبناء الأصليين لهذه المدينة...

قال نوري حسن وأضاف:

– لقد ضاعت أجواء ومعالم المدينة إلى الأبد، فالذين نعتبرهم غرباء، هم الآن يشعرون، ولهم الحق في ذلك، بأنهم أبناء المدينة، وهي مدينتهم التي ينتمون إليها، وهذا طبيعي جداً، فلقد ولِدَ قسم كبير منهم هنا، وأصبح لهم تاريخهم في هذه المدينة...

قطع حديث نوري صوت أتى من الخارج عند باب الدار، فقالت عواطف:

- هذا صوت حليم ابن خالتي.

نهض علاء ليستقبله. فتح الباب واحتضنه مرحباً به وقابله حليم بالترحاب أيضاً، ثم اعتذر له كونه لم يتمكن من زيارته منذ أن وصل قبل أربعة أيام بسبب مشاغله الكثيرة، سحبه علاء إلى الداخل ودعاه للجلوس إلى المائدة ليتناول الطعام، لكن حليم رفض وتحجج بالشبع. جلس حليم على الأريكة حيث انشغل الآخرون بتناول طعامهم.

◆

دخل الأستاذ شريف بصينية الشاي وراح يقدمه بعد أن أخذ كل واحد منهم مكانه على الأرائك والكراسي. جلس علاء إلى جانب حليم وراح يسأله عن أحواله وأموره الشخصية، وكان حليم يجيب على كل سؤال بشكل سريع ومقتضب. لقد حاول علاء التقرب من حليم على الرغم من أنه يعرف جميع مساوئه، ولكنه تيقن أخيراً أن حليم أتى لتأدية الواجب فقط، حينها نظر علاء في عيني حليم وقال له سائلاً:

- هل لازلت تتنكر لصلة القرابة التي بيننا عندما يسألك أي شخص غريب؟...

ثم نظر صوب الآخرين وقال:

- كان حليم وإخوته يقولون لمن يسألهم عنا، بأننا أولاد مدينة واحدة وليست هناك أية صلة قرابة تجمعنا، لأنه وإخوته كانوا يخشون على سمعتهم من التلوث بسببنا، كونهم من البعثيين *

المرموقين " ونحن من المغضوب عليهم حسب قوانين السلطة الساقطة، ثم صار تنكرهم لنا أشد وأعنف، عندما أعدم " صابر " أخي الأكبر...

شعر حليم ببعض الإحراج وأخذ يتململ في مكانه، وقال محاولاً تبرير موقفه وموقف إخوته، فقال والابتسامة خجلى على شفتيه:

- كان ذلك في ما مضى، وأنتم تعرفون الظلم والتعسف الذي كان يكيله النظام السابق على العراقيين، وما كان من تصرفنا ذاك سوى أن نبعد الخطر عنا قدر الإمكان، ولكننا أولاد اليوم، وقد ولى النظام إلى غير رجعة، والله يشهد على أنني كنت أتألم جداً حين أتنكر لعائلة خالتي أم صابر وأبنائها.

- قل لي يا حليم...

قال سعدي جبار سائلاً:

- كيف حال الحصة التموينية عندكم، فأنتم أصحاب المحلات تملكون رقابنا بامتلاككم قوتنا؟

- هناك الكثير من المشاكل بيننا وبين موظفي المخازن، فهم يبتزوننا على الدوام، ويعلم الله كم نعاني حتى نحصل على المواد الغذائية منهم، على الرغم من أنها ستذهب إلى المواطنين، وهي حقهم الطبيعي، ولكن نتمنى أن يكون الغد أفضل من اليوم.

- بالمناسبة، كيف يتلقى الدنماركي أخبار العراق؟ فأنا أعرف أن الأوربيين لا يفضلون الأخبار الرطبة بالدماء؟

قال ناصر موجهاً سؤاله لعلاء. حينها نظر علاء صوب كميلة وطلب منها أن تجيب على السؤال، فقالت:

- نحن نسمع ونشاهد الأخبار بطريقة تختلف تماماً عن الكيفية التي تسمعونها وتشاهدونها، فالمناظر البشعة التي تطرحها الشاشات العربية وهي تصور الجثث المقطعة والمحترقة، وصور القتل المباشر على الشاشة وأمام كافة الفئات العمرية، غير موجودة على شاشاتنا، وهي ممنوعة بشكل صريح، كونها تزرع الإحباط في روح المشاهد، وكثيراً ما تسبب الانهيار العصبي...

قبل أن تكمل المرأة كلامها، قال الأستاذ شريف مقاطعاً:

- ترى على أي حال وجدتِنا؟ أقصد كيف تقيمين حالنا، نحن الذين نشاهد تلك المناظر التي تتحدثين عنا بشكل مباشر وعلى الهواء؟

- المفروض وحسب قوانين علم النفس، أن يكون الإنسان الذي يشاهد الحوادث التي نتحدث عنها، مصاباً بالجنون والكآبة أو انفصام الشخصية، أو يكون في أهون الحالات، جباناً خائفاً على الدوام، ولا أدري بقية الأمراض النفسية كوني لم أختص بعلم النفس، ولكن الواقع يظهر حالة الشخصية العراقية، على عكس ما هو متوقع، بعض الشيء.

- ماذا تقصدين ببعض الشيء؟

سألها علي محمد، فقال علاء بعد أن طلب من كميلة السماح له بالكلام أولاً:

- الشخصية العراقية تعرضت إلى الكثير من التغيير خلال فترة الحكم السابق، لقد تربت على منظر الدم دون أن تختار ذلك، ولكن الحقيقة تقول، أن منظر الدم الذي عُرض على الشخصية العراقية لسنوات طوال، بدءاً من الإعدامات التي سبقت الحرب

العراقية الإيرانية، والإعدامات العلنية خلالها، وسيل الجثث الذي استمر طويلاً، ومنظر الأجساد الممزقة التي كان الأهل والأصدقاء يلقون عليها النظر في مراسيم غسل ودفن الجثث، ثم تكرار تلك المناظر خلال وبعد غزو الكويت. تكونت داخل روح الإنسان العراقي نظرة مستخفة غير إنسانية تجاه الروح البشرية، ومن الطبيعي جداً عندما يكون الإنسان قد تعود منظر الدم، فمن السهل جداً أن يصبح قاتلاً، كونه في الأساس قد تعرض إلى عملية سلب لإنسانيته وبالتالي احترامه للروح البشرية.

- هل تسمحون لي أن أتكلم بصراحة؟

طرحت كميلة التماسها على الحاضرين، وبعد أن أخذت الموافقة من الجميع وقرأت اللهفة في أعينهم، قالت:

- لقد سجلتُ بعض الظواهر التي يشترك فيها أبناء العراق ممن شاهدتهم، فالعراقي يفضل دائماً الجلوس وظهره إلى الحائط، أو يكون مطمئناً إلى أن المكان الذي خلفه لا يسمح لمرور أي شخص آخر دون أن يراه، يضاف إلى هذا، حركة العينين المضطربة، وتعمد انتصاب قامة العراقي في مشيته رغم وضوح الخواء وعدم قدرة رجليه على المشي باتزان، ومن ثم حركة اليدين أثناء الحديث المضطرب الذي غالباً ما يكون بصوت عالٍ، وغيرها الكثير، توحي بأن الإنسان العراقي، لا يقوى على التركيز ومن ثم اتخاذ القرار الصائب في الوقت المناسب، لذا تراه يحاول أن يحل مشاكله بعصبية واضحة وقلق وتوتر...

- لحظة من فضلك يا كميلة، ما هذا الذي تقوليه؟...

قال علاء وهو يبتسم لزوجته وأضاف:

- كل هذا ممكن أن يكون صحيحاً، ولكن عليك أن تتذكري بأنك هنا منذ أربعة أيام فقط، فكيف استطعتِ أن تكوني هذا التحليل الخطير؟

- عليك أن تتذكر، بأنني أعيش مع شخصية عراقية عاشت الحربين بكل تفاصيلها، تذكر بأني أعيش معك منذ خمسة أعوام، وخلال تلك الفترة، عرفت عنك كل شيء تقريباً، فأنت من أخبرتني بكل شيء، بكل القصص والحوادث التي جرت عليك وعلى غيرك، وكما أعرفك، أعرف أيضاً أصدقاءك وعائلاتهم ممن يعيشون في كوبنهاغن، وأعتقد بأن هذا مهم لمساعدتي على تكوين الصورة القاتمة التي سمعتها....

أطرق علاء برأسه صوب الأرض وهو يستمع بإصغاء تام، في حين استمرت كميلة في حديثها:

- ولكنني لم أكمل كلامي، فالذي أريد قوله بعد ذلك، إن الشخصية العراقية بشكل عام متماسكة... كيف؟... لو قارنّا بين كل المصائب والكوارث التي وقعت على كاهل الشخصية العراقية، وبين التأثيرات التي طرأت على تلك الشخصية، نجدها بحق شخصية متماسكة، فعلى الرغم مما نستطيع أن نرصده بصفته تغيير سيئ تعرضت له الشخصية العراقية، إلا أنه أقل بكثير من المتوقع لتأثير المصائب والكوارث، من حروب وقتل وتجويع وسلب للكرامة وغيرها مما نعرفه ولا نعرفه.

- هناك شيء آخر أود أن أضيفه على ما قالته السيدة، هو أن الشخصية العراقية ابتكرت مصطلحات غير إنسانية لتعبر بها عن كارثة إنسانية. فيقال مثلاً على من تم إعدامه جملة " طگو بالدهن " (تم قليه بالزين كما البيض) أو يقال " علّگو من كراعه " (تم

تعليقه كما الخروف)، وهذه جملة أطلقوها على الإنسان المشنوق، وهناك عبارات أخرى تستخف بالروح البشرية بشكل بشع.

قال ذلك علي محمد، فبادر علاء بطرح سؤال مشاكس على زوجته:

- كيف تريدين إذاً أن تستقري هنا؟ ألم تحدثيني عن رغبتك في شراء بيت ببغداد كي تقيمي به، أو نقيم به لفترة قد تمتد أعواماً؟

- نعم هذا صحيح، والحقيقة أني فكرت أن أشتغل في بداية الأمر مراسلة لإحدى أجهزة الإعلام الدنماركية، ثم أدرس طبيعة المجتمع العراقي خلال فترة عملي كمراسلة، لأكون بعد ذلك خبيرة في شؤون العراق داخل الوسط الإعلامي والسياسي الدنماركي.

- إذا كان في نيتكم فعلاً شراء بيت في بغداد، فأستطيع مساعدتكم، على الرغم من أني لا أوافق الفكرة في الوقت الحاضر بسبب سوء الظروف الأمنية.

قال نوري. ثم قال حليم بنبرة متعالية بعض الشيء:

- البيوت غالية الثمن جداً، فكم رصدتم من المال لذلك؟ أقصد ما مقدار إمكانياتكم المالية؟

أجابه علاء قائلاً:

- لقد فكرنا بعشرة آلاف دولار، فهل هذا كافٍ لشراء بيت صغير؟

- وهل المبلغ بحوزتكم أم أنكم تعتمدون بطاقة البنك كما سمعت من الذين قدموا من أوربا قبلكم؟

- هذه ليست بمشكلة، علينا أن نجد البيت أولاً، وهذا يعتمد

بطبيعة الحال إذا كنا لا نزال على رأينا، وبعد ذلك يكون المبلغ سهلاً.

شعر حليم بأن علاء لا يريد أن يخبره بحقيقة المال الذي بحوزته، وشعر أيضاً بأنهما يمتلكان المبلغ، ثم اعترته نوبة من عدم الراحة والانزعاج، فوقف ليعتذر من الجميع كونه على موعد مع أحد الأشخاص، ووعد بزيارة علاء في وقت آخر. ألقى التحية على الجميع وغادر بيت خالته على عجالة من أمره.

نظر علاء صوب ناصر شاكر وسأله:

- ما هي أخبارك؟...

ثم ابتسم ابتسامة ودودة وقال:

- أقصد مشاريعك الثقافية، فالذي أعرفه عنك ولعك الكبير بالأمور الثقافية؟

اعتدل ناصر في جلسته وشعر ببعض الزهو وقال:

- الحقيقة يا صديقي، المشاريع كثيرة، ولكن أين أذهب بها وسط هذا الجو الماطر بالرصاص والغابر برائحة البارود؟ فلقد كتبت أكثر من مسرحية للأطفال، ولي ثلاثة دواوين شعرية جاهزة للطبع، سأطبعها عندما تتحسن حالتي المادية التي لا أجد فيها أملاً لتحسنها.

ابتسم سعدي جبار بعد أن سمع ما قاله ناصر، وقال:

- مسرحيات للأطفال! كم هذا جميل؟ ولكن كيف ومتى يشاهد الطفل عرضاً مسرحياً خاصاً به؟ الأطفال يختبئون في منازلهم؟ حتى الذهاب إلى المدرسة أصبح عسيراً عليهم!

فقال ناصر بشيء من الزهو:

- علينا ألا نستسلم للوقائع، فعلى الرغم من كل ما يحدث، علينا أن نفكر كي نشعر بإنسانيتنا. أعترف أن كل ما مر علينا من كوارث، وكل ما سيأتي من مرارة وقهر، لهو كفيل بتحطيم العقول وسلب الاتزان، ولكن المستقبل لنا. فلا حياة مع اليأس...

- هل تعلم يا صديقي، أن كلمة " المستقبل لنا " هذه قد استخدمها الإنسان منذ قرون عدة، ولا زال يستخدمها، والدليل أنك قلتها الآن...

قال علاء ذلك وقد بان على ملامحه بعض الألم المشوب بالإحباط، ثم أضاف:

- هذه الكلمة خطرة جداً، وخطورتها تكمن في كمية الوهم الذي يغلفها، الوهم الذي زرعته السياسة ورجالاتها في عقولنا، لقد سمعنا هذه الكلمة وغيرها من الجمل والكلمات التي تؤدي إلى نفس المعنى "ثمة شيء يلوح في الأفق" و"لابد أن نصل نهاية النفق" وغيرها الكثير، ولكن هل تحقق منها شيء؟ هل لمسنا مستقبلنا كما كنا نحلم به؟

- ولكن علينا ألا نفقد الأمل، فموت الإنسان بفقدانه للأمل.

قال سعدي فبادره علاء قائلاً:

- هذا صحيح، ولكن، قبل أن ننظر إلى المستقبل، علينا أن نفكر في حاضرنا، أن نجعل من يومنا خطوة إلى المستقبل، ولكننا كنا " نناضل " في تداول الشعارات ومقولات الكتاب والشعراء والسياسيين، تاركين هموم عوائلنا ومتطلبات المدينة وأحلام الأطفال إلى الكثير من الآفات لتفتك بها دون أن نلتفت إليها. علينا

أن نعترف الآن أننا كنا ضحايا شعارات زائفة أدخلها السياسيون في عقولنا، شعارات خاوية لا معنى لها سوى الحلم، والحلم فقط، وهذا بكل تأكيد لا يخدم الواقع.

- هذا كلام لا غبار عليه...

قال الأستاذ شريف وأضاف:

- هل يستطيع أحد منكم أن يدلني على فائدة واحدة جنيناها من حفظنا لمقولات لينين أو ماركس أو مشيل عفلق وغيرهم الكثير، لقد ساق سياسيو هذا البلد الناس إلى التهلكة عن طريق شعاراتهم ومقولاتهم الرنانة، المعارضون ماتوا في السجون والمعتقلات والمقابر الجماعية والمنفى وغيرها، وأصحاب السلطة أدخلوا البلاد في حروب وكوارث امتدت لأكثر من ربع قرن تكللت أخيراً باحتلال دمر البلاد تدميراً شاملاً.

- منذ أن استقر بي الحال في الدنمارك، وشعرت بشيء من الأمان والحرية، وأنا أعد نفسي للعودة إلى العراق، وفي نفس الوقت قررت وبقناعة تامة ألا أمنح مسامعي إلى أي فكر أو تنظيم أو شخص سياسي. تعلمت الكثير وفكرت وكتبت الكثير من المشاريع التي كنت أحلم أن أقدمها إلى ذوي الاختصاص هنا في العراق حين عودتي، ومثلي الكثير، هناك من جمع مكتبة ضخمة طيلة سنوات غربته كي يأتي بها إلى العراق ويقدمها إلى دور الثقافة وغيرها من المراكز، وهناك من فكر في مشاريع تخدم الشارع والبيت والمدرسة والمؤسسات، والحديث عن هذا طويل جداً، ولكن أين ومتى يستطيع ذلك العراقي أن يحقق مشاريعه وأحلامه في خدمة بلده؟ هل هناك ما يشجع على الشروع في تنفيذ أي فكرة تخدم هذا البلد المنتهك؟

– والله هذا الكلام يدمي القلب، وهو ما يشغل تفكير جميع الناس، فالمرارة كبيرة حين يشعر الإنسان بأنه يعيش وينتمي إلى بلد منتهك مسروق، لقد سُرِق كل شيء، الأمن والتعليم والنظافة، حتى الكلمة الطيبة اختفت من على شفاه الناس، صار العراق وطن لحفنة من السياسيين تقاسموا كل شيء فيه، ولم يتركوا حتى الفُتات إلى الناس...

قال الأستاذ شريف ذلك ثم شعر بمرارة وصعوبة الحديث، ابتسم في وجوه الحاضرين وقال:

– ما رأيكم في دورة شاي جديدة حتى نتخلص من مرارة ما تذكرناه؟

وافق الجميع على الاقتراح، فصاح شريف راجياً زوجته بإعداد وجبة شاي جديدة...

(7)

كان حليم فارس صادقاً حين ادعى انشغاله، فلقد ولِدَتْ في رأسِهِ فكرة، هزت كيانه، وصارت تفرز في دمه وخلاياه أحماضاً حيوانية أذابت ما تبقى من ذرات ضمير وشرف داخل روحه. حال خروجه من بيت خالته، وحين صار على مسافة بعيدة من الدار، دس يده في جيب بنطاله وأخرج تلفونه المحمول. ضرب الأرقام ورفع التلفون حيث أذنه.

- ألو، مساء الخير سيدي، نعم أنا حليم... لا، لا ليس هناك أي شيء مقلق، ولكني أملك بعض الأخبار المهمة التي ربما ستفيدك، أقصد تفيدنا في نضالنا ضد الدخلاء، لذا أطلب منك أن تسمح لي بمقابلتك.

- أنا موجود في بيت الدكتور عماد، وكنا نفكر بالاتصال بك الآن، ولكن القلوب عند بعضها كما يقول المثل المصري، عليك أن تأتي في الحال، مفهوم؟

كان ذلك صوت العقيد حميد هلال من الجهة الأخرى.

- نعم سيدي، أنا في طريقي إليكم، مع السلامة.

بعد قرابة العشرين دقيقة من إنهاء حليم فارس مكالمته مع حميد هلال، وصل بيت الدكتور عماد في حي 14 تموز، دخل صالة الضيوف، بعد أن استقبله صاحب الدار. ألقى التحية على الحاضرين وأخذ مكانه إلى جانب حميد هلال بعد أن صافحه

وانحنى ليقبل يده. وبالإضافة إلى حميد هلال والدكتور عماد، كان هناك محمود درديري[1].

(1) أتى محمود درديري إلى مدينة المحمودية عام 77، وبقي فيها. اشتغل وتزوج ومارس الكثير من المهن ولم يفكر بالخروج منها رغم كل المصائب والكوارث التي حلت على رؤوس أبناء المدينة، ومحمود درديري هذا، أتى من مصر هارباً من حكم قضائي أصدر بحقه غيابياً بتهمة القتل والاغتصاب والسرقة، هذا ما كان يشاع بين أبناء المدينة. والغريب أن هناك الكثير من أبناء المحمودية كانوا يتعاطفون مع محمود كونه لا يستطيع السفر إلى بلده ورؤية أهله. حين أتى محمود درديري إلى مدينة المحمودية، اشتغل عامل بأجرة يومية في مقهى " ديعي ". وديعي هو اسم الشخص الذي كان يملك المقهى منذ أواسط الخمسينيات حتى وفاته بداية السبعينيات، ولكن اسم المقهى ظل كما هو رغم تناوب العديد على إدارتها. استمر محمود عاملاً في المقهى لمدة العام ونصف العام، حتى أصبح هو صاحب المقهى بعد أن تخلى عنها آخر شخص كان يستأجرها، لتصبح بعد ذلك، المقهى الخاصة بالمصريين بإدارة " المعلم " محمود درديري، وبعد فترة وجيزة رفعت لافتة من القماش بطول أربعة أمتار وبعرض المتر الواحد، مكتوب عليها بخط الرقعة العبارة التالية " تحية إجلال وإكرام من رواد مقهى 17 تموز إلى الحكومة العراقية وحزبها القائد بمناسبة ذكرى ثورة 17 تموز المجيدة " وبهذا تحول اسم المقهى من " ديعي " إلى " 17 تموز " وأعلن بشكل غير معلن أن المقهى أصبحت مقراً لأعضاء حزب البعث، فرع التنظيم القومي، ثم تبين بعد ذلك أن محمود درديري هو الرفيق البعثي الذي يمسك زمام مسؤولية ذلك التنظيم في المحمودية. وحين اندلعت شرارة الحرب العراقية الإيرانية، أصبح الرفيق محمود درديري يرتدي البدلة العسكرية الحزبية " الزيتوني " ويتمنطق بمسدس. وبهذا أصبح الدرديري الأداة الضاغطة على المساكين من العمال والكسبة المصريين ليدخلهم إلى التنظيم البعثي، ومن ثم تكوين فصائل قتالية تحت اسم " فصائل التنظيم القومي " لتلتحق بقواطع تنظيمات الجيش الشعبي الذي كان يشارك في المعارك الدائرة على جبهات القتال. منذ ذلك الحين، بدأ توافد الجثث المُصدَّرة إلى مطار القاهرة. لقد كان هناك في كل مدينة عراقية، محمود درديري آخر.

انتبه حميد هلال إلى القلق الواضح الذي كان بادياً على حليم فارس، فأمَرَ الدكتور عماد إلى قطع حديثه الذي كان يدور حول التخوف من أعضاء حزب الدعوة والحزب الشيوعي وبقية الناس من البسطاء وأهالي المدينة، من أن ينتقموا من البعثيين نتيجة أعمالهم السابقة التي كانوا يرتكبونها أيام الحكم الساقط، والحقيقة أن الدكتور عماد كان خائفاً على نفسه أكثر من أي شخص آخر. نظر حميد هلال صوب حليم وهو يتفحصه بشكل خاص وقال موجهاً كلامه إلى الآخرين:

- أعتقد أن حليم لديه شيئاً مهماً ليخبرنا به، لذلك تراه قلق على غير عادته، فماذا لديك أيها المراهق؟

قال كلمته الأخيرة تلك محاولاً تهدئة حليم الذي قال على الفور:

- ليس هناك شيء مهماً، ولكن هناك طلب شخصي، يخصني أنا شخصياً، أريد أن أطلبه من السيد العقيد.

- تفضل، أطلب، لك أنتَ بالذات كل شيء ممكن.

- لا، الموضوع شخصي، وأفضل أن أتحدث معك شخصياً.

علت ضحكة من العقيد، وقال مازحاً:

- هل انعدمت الثقة بالدكتور والدرديري؟ لا عليك دعنا نخرج إلى الحديقة لنتحدث.

التفت نحو عماد والدرديري وطلب منهم الأذن كحركة أخلاقية لابد منها.

عندما أصبح الاثنان وسط حديقة الدار، وضع حميد ساعده

الأيمن على كتف حليم، وكانت تلك الحركة تمنحه الشعور بالزهو ولذة خاصة وكأنه يحتوي أو يمتلك الشخص الذي يطوقه، حينها قال حليم:

- في البداية، أرجو منك ألا تفهمني خطأً، الموضوع بصراحة هو صيد ثمين ربما سيدر علينا، أقصد على تنظيمنا الصامد بوجه الاحتلال، الملايين من الدولارات...

اتسعت عينا حميد وهو يسأل عن الكيفية، فقال حليم:

- أنت تعرف جيداً أهمية المواطن الأجنبي لدى حكومته، وأنا أستطيع أن أتدبر أمر خطف أجنبي أو أكثر، كي يتم التفاوض مع حكومتهم، وبهذا نحصل على المال الذي ستدفعه تلك الحكومة، كي يعيننا على شراء السلاح وغيرها من لوازم النضال...

ابتسم حميد واستحسن الفكرة وقال بشيء من الحذر:

- هل تعرف يا خطير، بأنني كنت أفكر بهذا الأمر، ولكن قل لي كيف خطرت لك الفكرة ومتى؟

- الفكرة موجودة في ذهني منذ مدة، خصوصاً بعد أن سمعت بأن التنظيم الإسلامي قد حصل على خمسة ملايين دولار بعد أن أطلق سراح أحد الأجانب الذي كان بحوزتهم منذ قرابة الشهرين...

قال حليم ذلك وسادت فترة صمت، حاول خلالها أن يقرأ ردة الفعل على وجه سيده الذي غرق في تفكير عميق مقلباً الفكرة التي تحدث عنها حليم للتو. أما الريبة والحذر التي أبداها حميد حين راح يتفحص ملامح وكلمات حليم، فلها مبرراتها. فرغم العلاقة الوثيقة التي تربط حليم بحميد، إلا أن حليم يبقى عنصراً ثانوياً محدود الأهمية والمهام. والذي لا يعرفه حليم، هو أن الأجنبي

الذي أطلق سراحه كان محجوزاً لدى حميد ومجموعته، بعد أن تسلمه من مجموعة جيش الإسلام كوديعة بذمته، وأن المكان الذي أطلق سراحه منه، هو الملجأ الذي بنيَّ تحت أرض عائلة حميد هلال الفلاحية، والذي قضى فيه، زاهر عشيق حليم، ليلة كاملة بين أحضان توفيق ورجب. ترى هل يعرف حليم تلك التفاصيل؟ هذا ما كان يدور بذهن حميد ويقلقه، حتى خرج من تفكيره وراح يسأل:

- هذا تفكير عظيم، ولكن ماذا لديك بالضبط؟

- قبل أقل من ساعة، كنت في زيارة لبيت خالتي...

قطع حديث حليم، صوت الدكتور عماد الذي جاء مدوياً وهو يمسك مقبض الشباك الذي فتحه للتو كي يصل صوته لمن يقف في حديقة الدار:

- ماذا تفعلان؟ هل وجدتم حلولاً للقضية الفلسطينية؟ هلما إلى الداخل، فلدينا أخبار جيدة!

رد عليه حميد طالباً الانتظار قليلاً ووعده بالعودة بعد خمس دقائق، وكان الدكتور عماد محقاً في كلامه، فالكلام الذي قاله محمود درديري، له أهمية خاصة نظراً لأهمية المهمات التي تقع على عاتقه، فالدرديري يعتبر أهم حلقة وصل بين الخلايا البعثية من جهة، وبين البعثيين والإسلامين من جهة أخرى، ولو حاولنا تصور المركز الجغرافي لقضاء المحمودية وضواحيها بالطريقة الهندسية وفرضنا أنها تأخذ شكل المربع، نجد أن محمود درديري يقف في منتصف المربع، بالضبط حيث مقهى " ديعي " سابقاً والتي تقع في قلب المدينة حيث تقاطع شوارعها الرئيسية، شارع النصر وعلى امتداده شارع النعمان وتقاطعهما مع شارع المحمودية العام،

ومنطقة التقاطع تلك، كانت تسمى "الفلكه" (الدوّار)، ولنتصور أن الدرديري لازال واقفاً وسط المربع ووجهه يواجه قرص الشمس وقت الفجر، بهذا ستكون زاوية المربع اليسرى جهة الشمال الشرقي هي موقع التنظيمات البعثية في مدينة اليوسفية بمسافة سبعة كيلو مترات عن مركز المربع، وأغلب أفرادها كانوا من حماية الرئيس المخلوع. وفي نفس الاتجاه والزاوية يكون موقع الجماعات الإسلامية "تنظيم جيش الإسلام" بمسافة لا تزيد عن الخمسة كيلو مترات حيث منطقة العدوانية. والزاوية اليسرى جهة الشمال الغربي حيث منطقة القصر الأوسط، تعتبر مركزاً مهماً لتواجد التنظيمات البعثية من فدائيي صدام وأفراد حماية سابقين ورفاق حزبيين بعثيين ضمن تنظيم " جيش محمد " وتنظيمات إسلامية. وأما الزاوية اليمنى جهة الجنوب الشرقي حيث منطقة اللطيفية وتوابعها، فهناك حميد هلال والتنظيمات البعثية من أبناء الفلاحين والعشائر الذين كانوا ينتمون إلى جهاز المخابرات والأمن، والأمن الخاص وفدائيي صدام. وفي تلك المنطقة أيضاً، تتواجد الجماعات الإسلامية مثل جيش الإسلام وأنصار السنة. أما الزاوية اليمنى جهة الجنوب الغربي، حيث منطقة السيد عبد الله وأبو شمع والقرى القريبة من نهر الفرات، ومواقع ثلاث من المنشآت العسكرية المهمة، فالمنطقة تحتوي على العديد من التنظيمات الإسلامية والبعثية والتي تعمل بتنسيق واضح على الرغم من بعض التنافس بينها في ما يخص الوصول أولاً للغنائم ودقة ودسامة الأهداف، وفي داخل المربع وقرب أضلاعه الأربعة ينتشر قطاع الطرق والسرّاق من الجياع والعاطلين عن العمل والعملاء ممن دفعهم جوعهم وخوفهم للتعامل مع القوى المسلحة.

عاد حميد هلال وحليم فارس إلى الصالة وأخذا مكانهما بعد

أن تم الاتفاق بينهما على شيء في غاية الأهمية، حينها طلب الدكتور عماد من محمود إعادة ما تحدث به قبل قليل. شرع محمود يتحدث بلهجته العراقية الخاصة:

- صباح اليوم اتصلت بي إحدى الخلايا في اليوسفية، وطلبوا مني أن أطلب الحماية وتأمين الطريق من جماعة القرية العصرية في اللطيفية، لأنهم تمكنوا من أسر حافلة ركاب تحتوي على خمسين راكباً متوجهين إلى كربلاء بغرض الزيارة، وبالفعل اتصلت بجماعة القرية العصرية ومنطقة هور رجب...

صاح حميد هلال مقاطعاً بشيء من الفرح والفخر في آن واحد:

- أبطال، والله جماعتنا في اليوسفية أبطال، خمسون كافر دفعة واحدة؟ هذا عمل عظيم!

- المسألة ليست هنا، دع درديري يكمل كلامه.

قال الدكتور عماد، فشرع محمود يكمل كلامه:

- تم قتل الرجال أولاً، وكان بينهم أربعة أطفال فقط، تم قتلهم أيضاً، وبعد ذلك بدأت حفلة غسل أرواح النساء الكافرات بماء ذكورة المجاهدين، استمرت الحفلة أكثر من ساعة، وكان أحد أفراد المجموعة قد ضاجع ثلاث نساء، ثم انتبه إلى فتاة جميلة دخلت مزاجه، طرحها أرضاً وصار فوقها ولكن قضيبه لم يكن في حالة انتصاب كافٍ. طلب من الفتاة أن ترضع له قضيبه كي يعاود الانتصاب، امتنعت الفتاة أول الأمر، ولكنها قبلت تحت تهديد السلاح، فأدخلت قضيبه في فمها وقضمته بين أسنانها. صار الشاب يصيح بأعلى صوته، حتى أطلق أحد رفاقه الرصاص على رأس

الفتاة مباشرة. ماتت الفتاة ونصف قضيب الشاب في فمها، فلقد جاء الرصاص بعد فوات الأوان.

امسك حليم فارس قضيبه بين راحتيه وهو يتصور الألم الفظيع الذي انتاب ذلك الشاب، وصاح حميد هلال بأسف واضح:

- غبي، يستحق الذي جرى له، كيف يسلم نفسه لفتاة كافرة قتل أفراد أسرتها أمام عينيها، ألم يفكر بهذا؟

ثم نهض هاماً بالخروج، وقال إن هناك عملاً مهماً ينتظره صباح الغد وعليه أن يحضّر له جميع الترتيبات، ثم نظر إلى حليم فارس، وقال له:

- المبلغ لك، لا تقلق...

(8)

في تمام الساعة الثامنة صباحاً وصل علاء وكميلة أندرسن بسيارتهما مدخل شارع الموكب المؤدي إلى بوابة عشتار في منطقة آثار بابل، وبعد عدة أمتار توقفت السيارة، تماماً في المكان الذي توقفت عنده صباح الأمس تحت إشارة العريف مايكل، خرجت كميلة من السيارة وتوجهت صوب ناقلة الأشخاص "الهمر" حيث يقف أحد الجنود. ألقت عليه التحية، وأخبرته بأنها على موعد مع الضابط آمر الموقع، أخبرها العريف بأن الضابط بانتظارهما، ولكن بعد أن يتم ركن السيارة عند بداية الشارع. رجعت كميلة إلى السيارة حيث علاء، وأخبرته بأن عليه أن يعود إلى الوراء حيث مدخل الشارع، وهناك يمكنه أن يركن سيارته. وبعد أقل من خمس دقائق عاد علاء حيث كميلة، ولم ينسَ أن يحمل معه أدوات التصوير.

توجه الاثنان صوب الكرافان. كانت أشجار الأوكالبتوس العملاقة المتراصة على امتداد جانبي الشارع، تمنح ظلالها، لتضيف بعض من الألفة على المكان. فوحشة المكان بعد أن هُجِّرَ منه البشر، حولته إلى ثكنة رعب عسكرية. فضَّلتْ كميلة النظر إلى الأشجار متفحصة شموخها واخضرارها بدلاً من النظر إلى الدبابات وناقلات الأشخاص والجنود وبنادقهم.

كان الضابط الأمريكي يجلس على كرسي الاسترخاء، الذي يشبه بتصميمه تلك الكراسي التي تنتشر على البلاجات الأوربية،

وحين وقع نظره على القادمين، وقف ليستقبلهما، صافحهما وقدم نفسه لعلاء، وقال بصوت هادئ:

- اسمحا لي أولاً، أن أقدم اعتذاري، بسبب القرار الذي يمنع استخدام آلة التصوير في هذا الموقع، ولكن الخبر المفرح، هو حصولي على موافقة لتجوالكم في الموقع لمدة ساعتين فقط.

حاول علاء أن يقول شيئاً إلّا إن كميلة سبقته بعد أن لاحظت بعض التشنجات البسيطة في عضلات وجهه وقالت:

- شكراً لك، ونحن نثمن جهودك العظيمة التي بذلتها من أجلنا، والآن أين سنضع آلة التصوير؟

- يمكنكِ أن تضعيها على مكتبي، وتستلميها مني شخصياً حينما تعودان.

تناولت كاميرا التصوير من يد زوجها وأودعتها مكتب الضابط. وحين خرجت سألت عن إمكانية البدء بالتجوال، فأجاب الضابط بالإيجاب. وحين ابتعدا بضعة أمتار، سألت كميلة زوجها عن الكلام الذي أراد أن يقوله للضابط الأمريكي، فقال:

- قولي لي أولاً لماذا حاولتِ بشكل متعمد أن تمنعيني من الكلام؟

- لأني وببساطة، لاحظت الغضب الذي تملكك، فهل هذا يكفي؟ ولكن أجبني، ماذا أردت أن تقول؟

- لا شيء، فقط أردت أن أقدم احتجاجي على منع التصوير بطريقة عراقية، فلقد أحسست حينها بأني قد تعرضت للسرقة منذ زمن.

ضحكت كميلة واستوقفته، فالمسافة أصبحت الآن بينهما وبين الكرافان لا تسمح بوصول الصوت إلى الضابط وقالت

- أنا مصرة على سماع طريقة الاحتجاج العراقية، هيا قلها لي وكأني الضابط الأمريكي.

وحاولت أن تقلد الضابط تماماً كما كان يقف، فقال علاء:

- كنت أريد أن أقول له، بأنني عراقي، وأنا أقف على أرض عراقية، وهذه المنطقة تخصني أكثر مما تخصك، وهذه الآثار هي ما خلفه لي أجدادي، فكيف تتجرأ على منعي من أن أصور حاضري وتاريخي؟

أطلقت كميلة ضحكة عالية وقالت:

- طريقة الاحتجاج العراقية عظيمة جداً، فلم يسبق لي أن سمعت طريقة أكثر استفزازاً منها، خصوصاً عندما تكون موجهة لشخصية عسكرية تمتلك من القوة والغرور ما يكفي لتحطيم البشر. لذا ترى العراقيين مسلوبي الحقوق على الدوام!! أرجوك انسَ الموضوع، دعنا ندخل أولاً من بوابة عشتار.

حين تجاوز الاثنان بوابة عشتار، استلت كميلة من حقيبتها الجلدية السوداء ثلاث أوراق كبيرة بعض الشيء، تمثل خريطة الموقع بالكامل. كان واضحاً على إحداها حين النظر في زاويتها السفلى إلى اليمين أن الخرائط قد طبعت عام 1960.

راحت تتبع الخريطة لتقرأ أسماء الأماكن، وراح علاء يتذكر السفرات المدرسية التي كانت تأتي إلى الموقع، تذكر أول زيارة للمكان حين كان في المرحلة الابتدائية الخامسة، تذكر معلم الرياضة قاسم "أبو سمرة" الذي كان يمتاز بجسم رياضي جميل

وعضلات مفتولة. تذكر لقاءات العشق التي كانت تجمعه في مرحلة المراهقة مع إحدى صديقاته في هذا المكان. فمدينة المحمودية تبعد ما يقارب الأربعين كيلو متراً عن الموقع، وهذا يعني أنه يحتاج من الوقت ما يقارب خمساً وأربعين دقيقة بالإضافة إلى مبلغ "نصف دينار" أجرة الذهاب والإياب. المبلغ كان بسيطاً، وكذلك الفترة الزمنية بالمقارنة مع ما هو متوقع حدوثه لو تقابل مع صديقته في إحدى شوارع المحمودية، ثم تذكر "هدى"، أجمل فتاة ارتبط بها طيلة سنواته الحادية والثلاثون التي قضاها في العراق قبل هروبه عام 91، هدى التي كانت تمتلك أجمل عينين في المدينة، عينان خضراوان واسعتان، تشبهان عيون السعادة أو الحلم، راح علاء يتصور اللقاء الأول بها والقبلة الأولى وهو يطبعها على شفتيها، حتى أفاق من حلمه عندما سمع صوت كميلة وهي تناديه. طلبتْ منه أن ينظر إلى الخريطة جيداً ثم يقارن ما هو موجود على الأرض. نظرَ إلى الخريطة ثم صوَّبَ نظره حيث الأرض. مسك الخريطة، التفت إلى الوراء ليحدد نقطة ما، ثم عاد بنظره إلى الأمام وهو يوزع نظراته بين الورقة والأرض، حتى أطلق زفرة ساخنة وقال:

- المفروض أن يكون هنا!...

أشار بيده إلى الموقع وأضاف:

- هنا في هذا المكان يجب أن يكون جدار بارتفاع المتر والنصف وعلى امتداد أربعة أمتار!!...

ثم التفت إلى كميلة وسألها:

-هل لكِ رأي خاص في هذا؟

- قل لي أولاً، ماذا يعني هذا؟

- هذا يعني أمور عدة، الأمر الأول احتمال سرقة الجدار وما عليه من نقوش بعد فترة وجيزة من طبع هذه الخرائط...

جلست كميلة على الأرض الترابية وأخرجت قبعة صفراء مصنوعة من القماش، منقوش عليها باللون الأزرق اسم نادي " برغونبي " لكرة القدم، اعتمرت القبعة وقالت:

- هذا يعني في ستينيات القرن المنصرم، ولكن كيف لنا أن نحدد الجهة التي سرقت الجدار، وإلى أين ذهبت به؟

- هذا يعتمد على البحث الدقيق في أوراق تلك الفترة، أعني البحث في أوراق مديرية الآثار أو المؤسسة العامة للآثار العراقية. والأمر الثاني، هو احتمال نقل الجدار إلى قصر صدام، هناك...

راح يشير بيده اتجاه القصر الذي يتربع على التلة كتمثال بوذا.

- إن وجدت تلك الأوراق في مديرية الآثار!

قالت كميلة هذا بشيء من الحيرة بينما علاء مستمر بحديثه:

- ولكن الدخول إلى القصر أمر مستحيل، فمن المحتمل أن أحداً من الخبثاء المقربين من الرئيس المخلوع، وتلك كانت صفة غالبة عليهم، قد أشار عليه بنقل بعض الآثار إلى قصره كي يأخذ الطابع الحقيقي ويحقق الهدف الرئيسي من فكرة بنائه! ولكن مهلاً...

قال علاء مستدركاً وأضاف:

- ماذا تعنين بكلمة إن وجدت، بما يخص الوثائق؟ هذا يعني أن عمليات السرقة والحرائق التي شملت الكثير من دوائر الدولة حين دخول القوات الأمريكية، كان مخططاً لها منذ زمن طويل،

فلو افترضنا أن الجهة الأجنبية التي كانت تنقب عن الآثار في هذه المنطقة فترة الستينيات قد سرقت الجدار وهربته خارج العراق، ثم اكتشف العراقيون هذه العملية ودونوها بأرشيفهم، فإن تلك الجهة وجدت الفرصة المناسبة مع دخول القوات الأمريكية كي تسرق أو تحرق أي دليل على سرقتها!

- نعم، هذا ما قصدته...

قالت كميلة ذلك بينما علاء لا يزال واقفاً. مدت يدها لتمسكه وتسحبه إليها كي يجلس، في تلك الأثناء لاحظت كميلة أن هناك خوذة يعتمرها رأس جندي أمريكي يراقبهما، وحين وقع نظرها عليها، اختفت، ثم قالت متغافلة ما رأته:

- يا عزيزي، ألا تعتقد أن العبث والسرقة والحرائق التي جرت بأوراق وملفات أغلب الوزارات والدوائر الرسمية كان لها مبرراتها؟ ونحن، أقصد أنا وأنت أناس بسطاء لا نستطيع تخمين كل الأهداف التي كانت وراءها، ولكن ما رأيك لو فكرنا بأن تلك العمليات التخريبية كانت قد جرت بشكل منظم ومقصود؟... المهم، الأمر الثالث، هو الاحتمال الذي يشير إلى أن الإشاعات التي سمعناها من بعض أصدقائك، أقصد أصدقاءنا هي شائعات صحيحة.

- يا إلهي!!...

قال علاء ووضع يده على رأسه نتيجة لإحساسه بحجم الكارثة وأضاف:

- نحن في مأزق حقيقي، أقصد نحن الشعب العراقي المسكين، أصبحنا كالثور المذبوح، بأيدي جيوش من الجياع...

لاحظت كميلة ارتفاع الخوذة الأمريكية مرة أخرى وهبوطها السريع، ومن ثم اختفاءها، وكان علاء مستمراً بكلامه:

- هل لكِ أن تقولي لي ما أهمية ذلك الجدار المسروق؟

- الجدار يا عزيزي على قدر كبير من الأهمية، هذا ما اطلعت عليه ودرسته على مدى ثلاثة أيام عندما كنت أتردد على مكتب البروفسور "ماونتس هانسن"، بغرض التحضير لرحلتي هذه. النقوش المرسومة على الجدار، تحكي قصة...

توقفت كميلة عن الحديث بعد سماعها مناداة جندي أمريكي من الخلف، استدارت برأسها لتشاهد جنديين أمريكيين يسيران باتجاههما، وقفت المرأة ونهض زوجها من بعدها، وحين اقترب الجنديان أخبرهم أحدهما بأن عليهما الذهاب على الفور إلى مكتب السيد أمر الموقع لأمر هام. فقالت كميلة بشيء من الدهشة:

- ولكننا لم نكمل جولتنا! فلم نقضِ سوى أربعين دقيقة من الساعتين الممنوحة لنا من قبل القيادة العامة؟

- أرجوكما أن تتوجها إلى مكتب السيد الآمر، وهناك تستوضحان الأمر، ويمكنكما مناقشته.

دخل علاء وكميلة مكتب الضابط توم الذي كان بانتظارهما، رحب بهما وقدم لهما الكوكا كولا، وقال:

- أعرف أنكما بحاجة إلى شيء بارد.

- ماذا هناك؟...

طرحت كميلة سؤالها على الضابط وأضافت:

- ألم تمنحنا ساعتين للتجوال في الموقع؟ لماذا علينا أن نأتي إلى هنا إذاً؟

ابتسم الضابط وقال:

- لقد استجدتْ بعض الأمور، فقد تلقينا معلومات خطرة لم نتأكد من صحتها غاية الآن، والمعلومات تقول بأن هناك خطة من مجموعات إرهابية تنوي الإغارة على موقعنا، وهذا يستوجب بطبيعة الحال حمايتكما من قبلنا، فأنتما مدنيّان وينقصكما خبرة الدفاع عن النفس في مثل هذه الظروف، لذا أطلب منكما أن تغادرا الموقع الآن.

نظرت كميلة صوب الضابط الذي لاحظ احمرار عينيها غضباً وقالت:

- يبدو أن الأمر لا يخلو من الخطورة فعلاً، ولكن متى نستطيع العودة مرة أخرى؟

- غداً، غداً تأتيان، وتزوران الموقع، وسأخصص اثنين من جنودي لحمايتكما، هل اتفقنا؟

مد الضابط يده للمصافحة، ثم أشار إلى عدة التصوير منبهاً على عدم نسيانها.

❖

توقف علاء بسيارته أمام "جامع الحصوة"، أفلت جسده المحشور بين المقود وكرسي القيادة إلى الخارج وتوجه إلى بائع المشروبات الغازية. طلب قنينتي بيبسي. تناولهما ودخل السيارة، ناول إحداها إلى كميلة وأفرغ بعض ما احتوته القنينة الأخرى في جوفه، تذوق بقايا الشراب العالق بين أسنانه وقال:

- جيد، هذا الببسي جيد، على الأقل أفضل من الذي كنا نشربه في النصف الأول من عام 91...

سألته كميلة عن قصده فقال:

- في ذلك العام وعلى الرغم من أن قرار الحصار الاقتصادي كان في بدايته، اضطرت شركة البيسي أن تطرح منتوجها دون إضافة المادة المحلاة للمشروب، فراح الباعة يستخدمون ابتكاراتهم الرائعة معتمدين على فنتازيا عراقية خاصة. قاموا بوضع سلطانية كبيرة تحتوي على السكر إلى جانبهم، وحين يأتي أحد الأشخاص لطلب الببسي كما فعلت أنا منذ قليل، يقوم البائع بإضافة ملعقتين من السكر داخل القنينة، وإذا طلب الزبون المزيد من السكر، يطالبه البائع بمبلغ إضافي على المبلغ الأصلي، وهو يشرح للزبون قرار شركة الببسي، قائلاً "إن شركة الببسي أصدرت تعليماتها بإضافة ملعقتي كوب من السكر فقط إلى القنينة، وفي حالة طلب الزبون المزيد من السكر عليه دفع المبلغ الإضافي".

لم تصدق كميلة ما سمعته، ولكنها راحت تضحك بطريقتها الطفولية المعتادة، ثم سألت علاء عن المكان، فقال:

- هذه منطقة الحصوة، ولا أدري لماذا سميت بهذا الاسم، كان لي في هذه المنطقة بعض الأصدقاء، والمنطقة المحاذية لها من جهة اليسار هي منطقة الإسكندرية التي أنشئ على حدودها الغربية أول مصنع لصناعة الجرارات الزراعية في العراق، وأعتقد أنه الوحيد في العراق غاية الآن، ثم تطور لينتج حافلات "ريم" السياحية. على العموم، الذي يحيرني في هذه المنطقة هي منارة جامعها، فشكل المنارة...

أشار علاء بيده إلى المنارة، فهو يقف بمكان مجاور للجامع وكانت الزاوية التي تقف بها سيارته تتيح لزوجته رؤية الجزء السفلي من المنارة، ثم واصل حديثه:

- كما تشاهدين، أقصد لون المنارة وليس شكلها الهندسي، هو الأسود والأبيض المصفر، وكثيراً ما كنت أطلق عليها " الأفعى الرقطاء " في كل مرة أراها... وأعتقد أن الجامع قد غير اسمه في السنوات الأخيرة أسوة بأغلب جوامع العراق، ولكني لازلت أعرفه باسم جامع الحصوة، كما عرفته سابقاً.

طلب علاء من كميلة أن تلوح لبائع البيبسي بالقنينة الفارغة كي يأتي لأخذ القنينتين. هرول صبي في العاشرة من عمره حافي القدمين يرتدي فانيلة حمراء ممزقة من منطقة الكتف، وبجامة زرقاء غاب لونها الناصع منذ زمن طويل. حين وصل إلى السيارة، ألقت عليه كميلة نظرة متفحصة، ثم أرجعت القنينتين الفارغتين إلى حجرها طلباً في إطالة وقوف الصبي إلى جانبها، دست يدها في حقيبتها وتناولت ورقة حمراء اللون فئة الخمسة وعشرين ألف دينار وناولتها إلى الصبي مع القنينتين الفارغتين، انتبه علاء إلى المبلغ وقال لها بشيء من الدهشة:

- هذا مبلغ كبير، سوف يسبب للصبي مشكلة مع البائع!

نظرت كميلة إلى علاء نظرة سريعة وطلبت منه أن يقول للصبي إن المبلغ له وحده، كي يشتري حذاء يقي قدميه. أخبره علاء بما قالته زوجته، فطلب الصبي منه والتوسل ظاهر على ملامحه، أن يقول هذا لسيده. خرج علاء من سيارته مرة أخرى وتوجه إلى البائع وأخبره الغرض من إعطائهما المبلغ للصبي. عاد إلى السيارة وانطلق صوب مدينته.

حين تجاوزت السيارة خط سكة الحديد، أخبر علاء زوجته بأنهم الآن دخلا منطقة اللطيفية، ووعدها بأنه سوف يتوقف عند نهر صغير في الجهة الأخرى من المنطقة، وراح يشرح لها أهمية هذا النهر الذي يبدأ من نهر الفرات لينحدر شرقاً حتى ضفاف نهر دجلة، والنهر يعتبر الحد الفاصل بين مدينة المحمودية وناحية اللطيفة. في تلك الأثناء غزت رائحة كريهة أنوفهم، رائحة ثقيلة بمرارتها ملأت فضاء السيارة، كانت الرائحة تنبعث من جثة كلب ملقاة إلى جانب الطريق، حاولت كميلة أن تسد أنفها بمنديل قطني وملامح القرف واضحة عليها، نظر علاء صوبها وقال مبتسماً:

- الكلاب السائبة في العراق تنتحر جوعاً، ظاهرة عرفها العراقيون منذ شهور الحصار الأولى. يقرر الكلب الانتحار فيقف وسط الشارع لتطوحه في الهواء بعد دقائق أو ثوان صدمة عنيفة تقذفه إلى جانب الطريق. ربما يقرر الكلب الجائع الانتحار رأفة بأبناء جلدته كي يصبح طعاماً لهم، وإن صح هذا، فتضحية الكلب بنفسه هذه لا يعرفها البشر. حين يجوع الإنسان، يفكر بقتل إنسان آخر كي يستولي على ما بحوزته، أو يقبض أجر فعلته من إنسان آخر، يؤمن بها لقمة العيش.

- لذلك كنتَ كثيراً ما تردد أن الحيوان أشرف وأنبل بكثير من الإنسان.

- وأنتِ، ماذا تقولين؟

- أنا أتبنى وجهة النظر نفسها...

قالت كميلة وأضافت:

- من المعروف عن الحيوان أنه لا يطارد الفريسة حين يكون

شبعاناً، والحيوان لا يعرف الادخار ولا يعرف أن القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود. الحيوان لا يفترس سوى الحيوانات المريضة والعاجزة، بينما تجد في المقابل أن أكثر جرائم القتل التي تحدث بين أبناء البشر يكون ضحيتها على الأغلب الشباب.

توقف علاء بسيارته عند نهر صغير، وطلب من كميلة أن ترافقه لتلقي نظرة عليه. توقف الاثنان عند حافة النهر، وراح علاء يتحدث بفرح واضح وكأنه دليل سياحي:

- هناك نهران يحدان مدينة المحمودية، هذا النهر الذي يسمى "شيشبار" ونهر آخر في الجهة الأخرى حيث ناحية اليوسفية يسمى "نهر اليوسفية". في السابق، كانت هناك عدة أنهار تخترق المساحة المحصورة بين النهرين، ولكن تلك الأنهار الصغيرة اختفت عند انعدام حاجة سكان المدينة لها، بعد أن كانت تشكل مصدر المياه الوحيد لديهم. بالتأكيد أنا أتحدث عن فترة زمنية بعيدة بعض الشيء، سبقت عمليات مد أنابيب مياه الشرب. في هذا النهر كنا نسبح أنا وأبناء جيلي عندما كنا في عمر الصبا، وكل هذه البساتين والأراضي الزراعية من خلفها ترتوي من هذا النهر، هل تعرفين ماذا تحتوي هذه البساتين التي نحن إلى جانبها وتلك في الجهة المقابلة؟... هذه البساتين بالإضافة إلى شجر النخيل، تحتوي على أشجار الحمضيات والتوت والكروم والمشمش وغيرها من الفواكه كالرمان والتفاح الأخضر، ولكن الأهم من هذا، هو أن هذه البساتين وغيرها الكثير ممن تحيط بمدينة المحمودية، جعلت جو المدينة من أروع الأجواء في مناطق بغداد، خصوصاً عند المساء وفي الليل، واذكر أن رجال الدولة وموظفيها الكبار كانوا يقضون أوقات نزهتهم هنا، أقصد في البساتين المحيطة بالمدينة، فخلف

هذا البستان مثلاً، كان شاعراً عراقياً شهيراً اسمه "الملا عبود الكرخي" يملك أرضاً زراعية كبيرة فترة الاحتلال الإنجليزي للعراق، وحين غضب عليه الإنجليز، كونه شاعراً ثائراً ضدهم على الدوام، صادروا أرضه طمعاً بها. وهناك في الضفة الأخرى، عاش الموسيقار روحي الخماش لأكثر من عشرين عاماً، بعد أن اشترى أرضاً زراعية كبيرة، ورحي الخماش فلسطيني الأصل قدم إلى العراق عام 48، وإليه وإلى غيره من الموسيقيين يعود الفضل في تطوير الموسيقى العراقية وتدريس أصولها...

نظر علاء صوب كميلة وشعر ببعض القلق على ملامحها. طلب منها العودة إلى السيارة واعداً إياها تكملة كلامه في الغد عند عودتهم من منطقة الآثار. جلس خلف المقود، وأخذت كميلة مكانها. نظر صوب زوجته ليتبين سبب القلق الذي بدا عليها، وقبل أن يدير المحرك، شعر بشيء يلامس وجنته اليسرى، اهتز بدنه، وبشكل مفاجئ ودون أدنى تفكير راح ينظر بفزع صوب اليسار...

(9)

علاء كاظم جاسم عجوم، هذا هو اسمه الرباعي، رجل في الرابعة والأربعين من عمره، هو الآن بين أقدام شابين عراقيين، مغمى عليه ودمه مسال جراء ضربة تلقاها وسط جمجمته حين هوت عليها مؤخرة مسدس أحد الخاطفين.

شخصية عراقية لا يميزها شيء معين عن الآخرين، رغم بعض السمات الخاصة التي تتمتع بها. سمات غير ظاهرة للعيان، تكمن داخل روحه وتفكيره، التأني في اتخاذ القرارات، ونظرته الثاقبة لقراءة المستقبل القريب. كان كثيراً ما يخوض النقاشات مع أصدقائه، يبدأ بسؤال يسهل الإجابة عليه، عميق في مغزاه، ثم يصمت ليستمع، فيجمع الآراء ليكون في النهاية على هامش سخونة النقاشات وأقل المشاركين نقاشاً.

لم ينتمِ علاء إلى حزب السلطة رغم كل الضغوط والممارسات التي كان يتعرض لها، وبالمقابل، كان غير مقتنع بسياسة التنظيم الطلابي الذي كان ينتمي إليه، وكثيراً ما كان يطرح أسئلة تربك المسؤول عن الخلية، لذا كان لا يعرف الاستقرار في خلية واحدة. انتقل بين أغلب الخلايا الطلابية لاتحاد الطلبة العام في فترة لا تتجاوز العام. واتحاد الطلبة، تنظيم طلابي تابع للحزب الشيوعي العراقي، ألغي أو "تم تجميده" بقرار غير معلن أصدرته سلطة الدولة ووافقت عليه اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي عام 1975، ولم يكن اتحاد الطلبة العام، التنظيم الوحيد الذي تنازل

عنه الحزب الشيوعي، بل تنازل عن جميع منظماته مثل رابطة المرأة والشبيبة وغيرها من التنظيمات المهمة التي كانت تشكل قاعدة جماهيرية قوية وراسخة لدعمه جماهيرياً. مُنِحَ على أثرها أعضاء تلك المنظمات درجة أصدقاء في الحزب الشيوعي العراقي. ثارت ثائرة علاء والعديد من زملائه، وأصبح يطرح العديد من الأسئلة التي كانت تثقل كاهل المساكين ممن كانوا يقودون الخلايا التنظيمية. (لماذا نتحالف مع حزب كل قادته من السماسرة وقطاع الطرق؟... لماذا نحترم تحالفنا مع حزب السلطة في الوقت الذي يقوم ذلك الحزب ومؤسساته المخابراتية بإعدام رفاقنا؟... كيف نضحي بتنظيم طلابي له تاريخ نضالي طويل؟... كيف نسمح لحزب السلطة أن يقرر إلغاء أو تجميد تنظيم طلابي ليس ضمن تنظيماته؟...) وغيرها الكثير من الأسئلة التي كانت تزعج مسؤولي الخلايا التنظيمية كونهم لا يمتلكون الردود الصريحة لتلك الأسئلة، وكونهم لا يمتلكون الثقافة أو المعرفة والاطلاع الكافي الذي يمكنهم من الإجابة، فهم كغيرهم ممن انتموا لهذا التنظيم بداية السبعينيات، لا يمتلكون سوى الشبع أو تخمة الرضا التي تتلبسهم بكل فخر كونهم شيوعيين، شيوعيين فقط، فتلك الكلمة كانت تغنيهم عن كل شيء، عن الاطلاع والمعرفة وقراءة الأحداث. أن تكن شيوعياً فهذا يكفي لوضعك في مصاف النخبة المثقفة من أبناء المدينة، فالشيوعي مثقف، محب للخير، يناضل من أجل الطبقة العاملة والفقراء والمساكين، هو يعرف لينين وماركس وأنجلز، ويعرف دوستوفسكي وبوشكين وحمزاتوف وكاسترو وسارتر وتولستوي، على الرغم من أن أغلبهم لم يقرأوا كتاباً واحداً لهؤلاء. فلماذا يقرأون؟ إن معرفة الاسم كافية كي يكون الشخص مثقفاً! وكثيراً ما كان بعض ممن يقرأون بالفعل والذين يتمتعون

بروح دعابة خبيثة، وهم قلة قليلة، ينسبون أقوالاً جميلة ومؤثرة ينسجها خيالهم الخصب لأحد من تلك الأسماء، ليبادر الآخر من حفظة الأسماء إلى التأييد والإضافة، وما أكثر الأمسيات التي عاشها علاء وهي تمتد لساعات طويلة في مناقشة المقولات الزائفة التي يثني عليها بإعجاب كبير حفظة الأسماء.

حين كان علاء كاظم في السنة الدراسية الأخيرة من الدراسة المتوسطة، كانت السلطة العراقية قد بدأت الهجوم وممارسة الأساليب الترغيبية والترهيبية اتجاه أعضاء الحزب الشيوعي العراقي كي ينتموا إلى حزب البعث. في ذلك الوقت لم يشارك علاء كغيره من الطلاب في الامتحانات الوزارية - بكالوريا الدراسة المتوسطة - كونه رفض المساومة التي عرضها عليه مدرس مادة الاجتماعيات "فخري حكمت" بالموافقة على دخولة الامتحانات النهائية مقابل الانضمام إلى حزب السلطة. رفض علاء تلك المساومة الرخيصة ولم يشارك في الامتحانات كون إدارة المدرسة لم ترفع اسمه إلى وزارة التربية. حينها عرف السبب الذي كان وراء امتناع ذلك المدرس من أن يعيد له الأوراق الامتحانية الشهرية التي كان ينجزها بكل تفوق، حيث جرت العادة أن يستلم الطلبة أوراقهم الامتحانية الشهرية بعد تصليحها وكتابة الدرجة المستحقة من قبل مدرس المادة. تلك كانت إحدى الخسارات التي قدمها ثمناً لإصراره على أن حزب السلطة حزب لأولاد الشوارع واللصوص وأولاد الزنا، كما كان يعتقد، وتلك كانت إحدى نقاط الخلاف بينه وبين التنظيم الطلابي الذي كان ينتمي إليه.

لم يكن علاء الضحية الوحيدة لتلك الأساليب التي كان يمارسها بعض من مدرسيه من أجل انضمام أكبر عدد ممكن من

الطلبة إلى حزب السلطة، كونها تدر عليهم مكرمات شتى أبخسها أن يرتقي البعثي الذي يكسب شخصين أو أكثر إلى صفوف الحزب، درجة حزبية أعلى، بل إن علاء كان محظوظاً إذا ما قورن بيوسف خليل العيثاوي، زميله ومسؤول الخلية الطلابية التي كان علاء أحد أعضائها يوماً ما. فعمر يوسف كان قد تجاوز الثامنة عشرة ببضعة شهور، نتيجة رسوبه وإعادته لبعض المراحل الدراسية بسبب مشاكساته لأساتذته، لا بسبب مستوى ذكائه، أي أنه أصبح قريباً جداً من سن التجنيد الإلزامي، وهذا يعني أنه يجب أن يجتاز مرحلة الدراسة المتوسطة بشتى الطرق، لأنها فرصته الأخيرة. لكن الذي حدث، هو رفض يوسف مساومة مدرس مادة الإنجليزي الأستاذ نوري عبد الحسين أمين، في أن ينضم يوسف لحزب السلطة أو يعتبر راسباً في مادة الإنجليزي والمواد الثلاث الخاصة بمدرس الاجتماعيات فخري حكمت. فلقد كان التعاون الخبيث وثيقاً بين الأستاذين، وكانت نتيجة ذلك الرفض، أن يساق يوسف خليل إلى الخدمة العسكرية وأن يضطر علاء إلى إعادة العام الدراسي كونه يصغر يوسف بعامين.

في السنة الثانية من المرحلة الأخيرة للدراسة المتوسطة، لاحظ علاء أن أسلوب الأستاذ فخري والأستاذ نوري وحتى مدير المتوسطة حازم مطلق، قد أصبح أكثر شراسة، وأصبحت نظرات الطلبة من البعثيين أكثر عدائية، وأصبحوا يعلنون عداءهم للشيوعية والشيوعيين بكل صلافة ودون أي تردد، وكانت تلك التصرفات العدائية، تثير الكثير من المخاوف في نفوس الطلبة ممن لم ينتموا لصفوف الحزب الحاكم. وما هي إلا بضعة أيام حتى جاء فراش المدرسة " حسين جواد الناصر " يطلب حضور الطالب علاء كاظم إلى غرفة الإدارة حسب أوامر مدير المدرسة. كانت المسافة التي

يجب على علاء وحسين الفرّاش قطعها للوصول إلى غرفة الإدارة لا تزيد عن العشرين متراً، وكان جميع الطلبة داخل الغرف الدراسية. وحين وصل الاثنان منتصف المسافة، وقف حسين الفراش، الرجل الطيب الذي يحترمه كل طلاب المدرسة وأبناء المدينة، ماسكاً علاء من ذراعه، مقرباً شفتيه من أذنه ثم قال:

– اسمع ابني، إذا كنت تحترمني وتحسبني مثل عمك صحيح، أرجوك ألا تجادل كثيراً، اسمع منهم ووافق على كل ما يطلبونه منك، فلقد عرفت منهم، وعن طريق الصدفة، أنهم سوف يبعثونك إلى مديرية الأمن في حالة رفضك لما سيعرض عليك، هل فهمت؟

نظر علاء بوجه الرجل ثم ابتسم له وقال:

– أنت إنسان رائع يا عم أبو علي، والله أحبك كما أحب أبي، أعدك باني سأتدبر الأمر معهم...

❖

حين دخل غرفة الإدارة، حاول جاهداً أن يخفي نوبة الارتباك التي انتابته جراء حديث العم حسين معه، جال نظره في زوايا الغرفة، كان هناك ثلاثة أشخاص، الأستاذ حازم مدير المدرسة والأستاذ فخري مدرس الاجتماعيات وشخص ثالث لم يسبق وأن شاهده من قبل. ألقى عليهم التحية وظل واقفاً. طلب الأستاذ حازم من علاء الجلوس على الأريكة القريبة من طاولة مكتبه، وحين أخذ مكانه أصبح الأستاذ فخري على يساره، وذلك الرجل الغريب أمامه مباشرة، نظر علاء صوبه فلاحظ شاربه الأسود يغطي شفتيه ولاحظ احمراراً واضحاً في عينيه وكأنه لم يذق طعم النوم منذ فترة طويلة، ثم التفت صوب الأستاذ حازم حالما سمع صوته قائلاً:

- أنت طالب مجتهد، ونحن نكن لك كل الاحترام، وعلاوة على ذلك فأنت فنان، رسام متميز، طالما اعتمدنا عليك في مسابقات الرسم المدرسية، كي تحصد لنا الجوائز، وبالفعل، فلقد حصلت مدرستنا على الجائزة الأولى لثلاث سنوات متكررة بفضلك وفضل زميلك نوري حسن، لهذا نحن نريدك أن تكون معنا...

ثم راح يوزع نظراته بين الأستاذ فخري والشخص الغريب وأضاف:

- دعوني أقولها له بصراحة... نحن نريدك أن تكون فنان منظمتنا الحزبية، وسوف نجهز لك غرفة خاصة بجميع مستلزمات الرسم، فماذا تقول؟

وقبل أن يجيب علاء المتهالك في جلسته على سؤال السيد مدير المدرسة، راح يفكر بذلك الشخص الغريب الذي ينظر صوبه بعينين حمراوين والتي أوحت برغبة الافتراس العارمة التي كانت تطلقها اتجاهه. حول علاء نظره صوب الأستاذ حازم وقال بصوت خافت:

- المسألة ليست بالمرسم والرسم، أعترف لكَ بأن العرض مغرٍ والكل يتمنى ما عرضته عليّ، ولكني بحاجة إلى بعض الوقت كي أفكر بالموضوع.

حينها قال الأستاذ فخري:

- لا تكن غبياً أكثر من اللازم، إنها فرصتك الأخيرة، فإذا رفضت الانتماء إلى صفوف حزب البعث لن تشارك في الامتحان الوزاري كما في العام الماضي، وبهذا سوف تلتحق بالخدمة العسكرية ويضيع مستقبلك.

- ولكن لماذا؟

وجه سؤاله إلى الأستاذ فخري وأضاف:

- أنا لم أقصر في دروسي وواجباتي، وأنت تشهد لي بأني من الطلبة المتفوقين، وأنا الوحيد الذي يرسم خرائط الدول على السبورة في حصة الجغرافية، حتى أصبحت أحفظ خرائط العالم عن ظهر قلب، وفي الدروس الأخرى درجاتي عالية جداً، فلماذا تريد أن تنهي مستقبلي بهذه الصورة التي لا أستحقها؟

- لأنك غبي...

قال الأستاذ فخري مطلقاً ضحكة متشنجة من بين شفتيه وأضاف مستدركاً:

- ليس بالدراسة، بل بشكل عام، فأنت لا تعرف مصلحتك، اسمع!!...

قالها ووجه أصبعه صوب علاء إشارة بالتهديد وأضاف:

- إنها المرة الأخيرة التي أسألك فيها رغبتك في الانضمام إلى حزب البعث، فماذا تقول؟

- أنا بصراحة لا أريد الانضمام إلى أي حزب سياسي في العالم، أريد أن أبقى مستقلاً.

- وهل أنت فعلاً مستقل يا ابن الكلب؟...

هز صوت الرجل الغريب أركان الغرفة تماماً كما هز بدن علاء الذي نظر صوب الرجل فشاهده واقفاً يهم بفك حزامه وتحريره من بين حلقات بنطاله، لم يستطيع علاء أن ينطق بحرف واحد، لقد غابت قدرته على الكلام، نظر الرجل صوب الأستاذ حازم وقال بصيغة الأمر:

- أخرج له الأوراق، لقد صبرنا عليه طويلاً...

ثم اتجه بكلامه إلى علاء قائلاً:

- اسمع يا ابن الكلب، نحن وضمن القانون نستطيع أن نعدمك الآن، لأنك وببساطة منتمٍ إلى حزب البعث منذ عام 1972 ومع ذلك انتميت إلى تنظيم طلاّبي تابع للحزب الشيوعي العميل، وهذه ضمن القانون عقوبتها الإعدام...

ثم، صاح بعلاء آمراً:

- قم وأنظر في الأوراق!...

وقف علاء محدقاً بالأوراق التي أظهرها له مدير المدرسة. كانت قديمة نوعاً ما، وراح يسأل دون أن يوجه سؤاله لأحد:

- هل يعقل أن أكون أنا من وقع على هذه الأوراق؟ لم أطلب الانتماء إلى الحزب في حياتي، هذا غير صحيح، هذه الأوراق ليست أوراقي...

حين سمع الثلاثة ما قاله علاء، بادر فخري حكمت بالتنويه قائلاً:

- هل تذكر بأنك والكثير من الطلبة كنتم قد تقدمتم للانضمام إلى نوادي الشباب الرياضية؟ كان الشرط في التقديم أن يكون الطالب منتمياً إلى حزب البعث كي يتم قبوله، وعلى هذا الأساس تم انتماء الطلبة غير المنتمين سابقاً إلى صفوف الحزب وتمت الموافقة.

- ولكن النوادي الرياضية لم يتم إنشاؤها غاية الآن، وقد ألغي المشروع كما عرفنا!...

قال علاء فبادره الأستاذ حازم بالقول:

- نعم هذا صحيح، ولكن الحزب باقٍ ولم يلغَ، ولذا فقد تم إتلاف أوراق الانتساب الخاصة بالنادي الرياضي، وبقيت أوراق الانتماء إلى الحزب.

- ولكن هذا تزوير!!

سقط علاء على الأرض حالما نطق بكلمته الأخيرة، فلقد تلقى صفعة غاضبة من الرجل الغريب. عندها همَّ فخري حكمت برفعه من على الأرض وإعادته إلى مكانه حيث الأريكة، لاحت الدموع في عيني الطالب المسكين، فالصفعة التي تلقاها على صدغه الأيسر كانت كافية لتطاير دموعه، وضع كفه على مكان الصفعة كي يخفف الحرارة الحارقة التي اعترت نصف وجهه، حينها قال حازم مطلق:

- اسمع ابني! أنت بعثي منذ ست سنوات، وكلام المفوض " صباح " صحيح جداً...

نظر علاء صوب الرجل الغريب قائلاً في سريرته " الآن عرفت من تكون، أنت رجل أمن قذر ". ثم أضاف حازم مطلق:

- عليك أن تهدأ وأن تفكر جيداً، فلا خيار أمامك سوى الامتثال للأمر الواقع، لقد عرفت الآن بأنك بعثي منذ وقت طويل، عليك الحضور للاجتماع يوم الخميس القادم في مقر الفرقة الحزبية، هل فهمت؟

هز علاء رأسه إشارة للموافقة، ولكنه كان يريد الخروج من الغرفة اللعينة والابتعاد عن ذلك الوجه الكريه الذي ينتصب أمامه، ضغط حازم مطلق على مكبس الجرس فهدر صوته في الحال. فتحت الباب وظهر العم حسين. أمره حازم مطلق بأن يصطحب

علاء حيث المغاسل ليغسل وجهه ثم يقدم له قدحاً من الشاي ويعيده بين زملائه حيث الصف الدراسي.

خرج علاء من الغرفة بسرعة واضحة وكأنه يريد الفرار. لحق به العم حسين، وحاول أن يمسكه، وحين انتبه إلى اللهفة التي أظهرها حسين الفراش للحاق به، توقف. مسك العم حسين ذراعه ونظر في وجهه وقال:

- الحمد لله على سلامتك، كنت خائفاً عليك جداً يا ابني، كنت أخشى أن يأخذوك إلى مديرية الأمن، وأنت شاب رقيق لا تستطيع أن تتحمل تعذيبهم وقسوتهم.

نظر علاء في وجه العم أبو علي وقال:

- لقد تم إعدامي على إيدي أولئك المجرمين الثلاثة، لقد انتهيت يا عم أبو علي...

حاول استرجاع ذاكرته ست سنوات خلت. تذكر نهاية عام 1972 حين كان في السنة الدراسية الثانية للصف الخامس الابتدائي، كونه لم يفلح في النجاح إلى الصف السادس بسبب التهاب الغدة النكافية التي تورمت بشكل خطير، وتسببت في إدخاله المستشفى وإجراء عملية جراحية له، في الوقت الذي كان أقرانه من الطلبة يخوضون الامتحانات النهائية، وتذكر كيف أن أمه كانت ترفع يديها إلى السماء داعية العزيز القهار بأن يقصف رقبة الأستاذ خضير ابن الحائك، الذي كان يعذب التلاميذ والذي كان السبب المباشر لمرض ولدها، فلقد كان ذلك الكائن البدين الأسمر الذي يتميز عن باقي المعلمين بمؤخرة كبيرة نافرة، يبتدع طرقاً وأساليب جديدة في تعذيب تلاميذه، وكان مشهوراً بطريقة إذلال خاصة

يمارسها بحق التلاميذ. فعندما يريد أن يعاقب أحد طلابه، يقوم باستدعاء الطالب ليقف أمامه، ثم يمسك وجهه ككرة صغيرة بين يديه واضعاً إبهامي كفيه تحت ذقن الصبي، ثم يضغط على الوجه ضغطة تمكنه من رفع الطالب إلى مستوى وجهه ليبصق عليه، وبحركة خاطفة يفلت الرأس من بين يديه ليعيد كفيه بقوة وبسرعة فائقة إلى مكانها على وجه الطفل لتنتهي العقوبة بصفعة مزدوجة على الأذنين. وتلك العقوبة تلقاها علاء من ذلك المعلم، فتسببت دخوله المستشفى وخسارته عاماً دراسياً.

تذكر وهو يمسك قدح الشاي الذي قدمه له العم الطيب أبو علي، حيثيات اللعبة القذرة التي مورست بحقه وبحق الكثير من الطلبة الأطفال، حدث ذلك في شهر أكتوبر من عام 1972 عندما كان في المرحلة الابتدائية الخامسة، حين رن الجرس معلناً بدء الحصة الدراسية السادسة والأخيرة، دخل معلم الرياضيات الأستاذ محمد البحراني على الفصل ليخبرهم بأن هناك بشرى سعيدة لهم، وهي أن القرار قد أتخذ لإنشاء نادي رياضي يشمل جميع النشاطات الرياضية في المدينة، وعلى الراغبين بالانضمام إلى النادي والدخول في عضويته ملء استمارة العضوية واختيار النشاط الرياضي الذي يرغب به، جمناستك، سباحة، كرة قدم، كرة الطائرة والسلة، بالإضافة إلى الرقص على الجليد والشطرنج والبليياردو وغيرها من النشاطات التي لم يسمع بها أحد. لم يكن الأستاذ محمد البحراني هو الوحيد الذي كان يبشر طلبته بهذا الخبر السعيد، بل كان جميع معلمي محافظة بغداد يمارسون نفس المهمة التي كُلفوا بها من قبل منظمات حزب البعث. كثر الحديث بين الطلبة عن النشاطات التي يرغبون الانضمام إليها واختار الأصدقاء نفس النشاط كي يبقوا على مقربة من بعضهم بعد أن أخبرهم

معلموهم بأن الاستمارات ستصل خلال أيام معدودات. وحين وصول الاستمارات راح الطلبة يوقعونها بشغف دون دراية أو معرفة بحال الورقة الأولى من مجموع الأوراق التي كانت لا تحتوي إلا على اسم المنتمي في أعلى الصفحة وتوقيعه في الأسفل، أما وسط الورقة فكان خالياً من أي كلمة، ثم تأتي الورقة الثانية والثالثة حتى الأخيرة التي تختص بنوع النشاط الذي يرغبه الشخص المنتمي، ولماذا اختار هذا المجال دون غيره. أُهملتْ جميع الأوراق بل أُحرقتْ جميعها ما عدا الورقة الأولى التي راح بعض من المعلمين يملأون فحواها:

اسم المنتمي: علاء كاظم جاسم عجوم

إني الطالب علاء كاظم جاسم عجوم أرغب بالانضمام إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، إيماناً مني بمبادئ الحزب وأهدافه في تحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية. ولأجله وقعت.

التوقيع

الطالب علاء كاظم جاسم عجوم

- تلك اللعبة القذرة التي لعبها مجرمون بصفة معلمين، قد ذبحتني.

قال ذلك للعم أبو علي وهو يناوله قدح الشاي الفارغ. نهض وتوجه صوب بوابة المدرسة بدلاً من التوجه إلى الصف الدراسي الذي ترك فيه كتبه ودفاتره، وحين وصل الشارع، دس يديه في جيبي بنطاله، ماشياً بخطوات متهالكة ناظراً إلى الأرض. كان يحاول أن يخفي انكساره، غير آبه بكل ما يدور من حوله، وراح يفكر بنتائج اللعبة التي وقع ضحيتها مستذكراً كل ما كان يدور في

ذلك الوقت وكل الظواهر التي كانت تظهر للمرة الأولى.

فبعد أن حان الموعد المحدد لافتتاح النوادي الرياضية المزعومة، والتي أغرت أغلب الطلبة في الانضمام إليها، وبعد أن كثرت الأسئلة حول تلك النوادي من قبل الطلبة، جاء جواب إدارة المدرسة بان الموعد قد تأجل إلى وقت آخر، وسوف يتم قبول بعض الطلبة في منظمة تدعى " منظمة الطلائع " حتى يتم تهيئتهم إلى دخول النوادي الرياضية، وبالفعل تم اختيار بعض من الطلبة لدخول المنظمة الجديدة، بعد أن أجريت بعض التحريات الحزبية على تاريخ عوائلهم، وتم اختيار الطلبة الذين ينتمون إلى عوائل موالية للحزب الحاكم ولم يسبق لأحد من أفراد تلك العوائل أن أنضم إلى حزب آخر. وبسرعة فائقة تم افتتاح مراكز تدريب وترفيه الطلبة حيث تم استئجار بعض المباني أو البيوت الكبيرة لتكون مركز تدريب الطلائع، وعلقت اللوحات المخطوطة بالخط الكبير (منظمة طلائع المحمودية) وتم توزيع ملابس زرقاء مرقطة شبيهة بملابس القوات الخاصة أو المغاوير مع اختلاف اللون. وبعد مرور ما يقارب العام، اختير الطلبة الكبار ممن كانوا بالمرحلة الابتدائية المنتهية ليشكلوا منظمة الفتوة التي أخذت على عاتقها مهمة التدريب والإشراف على منظمة الطلائع، وكانت ملابس الفتوة شبيهة بملابس الطلائع ولكن بلون بني. وبهذا تشكلت أول نواة إعداد عسكرية لرجال المستقبل من البعثيين المدربين بشكل جيد ومدروس.

أما الطلبة الذين تم إبعادهم، أو لم يتم اختيارهم مثل علاء كاظم ويوسف خليل وغيرهم، فلقد تم الاحتفاظ بالورقة الأولى من ملف الإنتماء المزعوم، لتأكل النار بقية الأوراق التي كان يحتويها

الملف. تم حفظ تلك الأوراق في مخازن الفرقة الحزبية كي تكون ورقة الضغط الأساسية على هؤلاء الطلبة للانتماء إلى الحزب حين تقتضي الضرورة، وها هو علاء كاظم يقع ضحية تلك اللعبة التي جعلت منه شارد الذهن لاعناً ذلك اليوم البغيض الذي تم فيه استلاب حقه...

❖

دخل علاء الدراسة الابتدائية بعد مرور خمسة أشهر من مقتل رئيس الجمهورية عبد السلام عارف جراء احتراق وسقوط الطائرة الهليكوبتر التي كانت تقله، كان الجو السياسي العراقي مشحوناً بالكثير من الأقاويل التي تتناول حادثة مقتل الرئيس، في تلك الفترة وفي صيف عام 1966 كان لا يشغل تفكيره، وخياله الطفولي الخصب، سوى الفرحة الغامرة والمتعة المنتظرة من دخوله عالم الدراسة... الآن أصبحتُ كبيراً كأخوي الكبيرين أصبحت مثلهم أستيقظ صباحاً وأنعم بالإفطار الساخن الذي تقدمه والدتي لعمتي وأخويّ، الآن أصبحت ضمنهم... هكذا كان الطفل يحدث نفسه ليلة الذهاب إلى المدرسة.

قالت له والدته "حين تنام، وتستيقظ، سيأتي غداً، وتذهب إلى المدرسة" هكذا ردت على سؤال ابنها. أغمض عينيه ورأسه مشحوناً بالأحلام والصور الرائعة لعالم الغد.

استيقظ صباحاً وتناول فطوره الساخن - فطائر مقلية بالزيت، خليط من الدقيق والماء وقليل من السكر، مقلي في الزيت (خبز بالدهن) - لأول مرة مع أخويه وعمته التي كانت في المرحلة المنتهية من الدراسة الإعدادية. وقف ضمن صفوف الطلبة الجدد، كان جمعهم منعزلاً عن باقي تجمعات المراحل الأخرى، وبعد أن

ألقى عليهم مدير المدرسة خطبته التي أوصى فيها الطلبة الكبار من الصفوف المتقدمة الاعتناء بالطلبة الصغار الجدد، توزعوا على الصفوف، وكانت فرحة علاء كبيرة جداً حينما أصبح في الفصل الدراسي (ألف). أخذوا أماكنهم على المقاعد الخشبية بعد أن وزعهم معلم الفصل، وصار علاء إلى جانب طالب من الأرياف نظر إليه بتمعن، كان لون التراب غالباً على ملامحه، شعره، بشرته ويديه، تعرف عليه أكثر عندما سأله عن اسمه، فأجاب بأنه حميد هلال فبادر علاء بذكر اسمه.

كان من عادة الطلبة القادمين من الأرياف أن يتجمعوا فيما بينهم خلال فترات الاستراحة. كان يتملكهم الشعور بالغربة حالما تطأ أقدامهم شوارع المدينة، وكانوا يحاولون أن يحموا أنفسهم من (شياطين المدينة)[1] كما كانوا يطلقون على بعض الطلبة المشاكسين. ومن بين تجمع صغير لطلبة الأرياف، راح حميد هلال ينظر إلى علاء الذي انتبه إلى نظراته، كان حميد، الطفل ذو الست سنوات منبهراً بالشورت الأسود ذي الخطين الأبيضين على جانبيه الذي كان يرتديه علاء، وكان يعتقد بأن علاء قد أتى إلى المدرسة باللباس الداخلي، فكوّن فكرة مفادها، أن علاء وأهله لا يعرفون الشرف أو الحشمة. ومما زاد في تفكيره غلاً، تلك البشرة النظيفة البيضاء المائلة إلى الحمرة التي أظهرتها أفخاذ علاء، ولم يدخر حميد جهداً، فبادر إلى سؤال زميله حال جلوسهما على مقعد الدراسة بعد أن أعلن جرس المدرسة الكبير نهاية الاستراحة:

- لماذا ترتدي هذا اللباس؟...

(1) انظر سيرة (2)، شياطين المدينة، ص324.

نظر علاء صوبه باستغراب، وسرعان ما أطلق ضحكة خفية أردفها ببضع كلمات:

- هذا ليس لباساً داخلياً، فأنا أرتدي لباساً تحته، هذا شورت مدرسي نلبسه كوننا في فصل الصيف، وهو نفس الشورت الذي يتحتم علينا ارتداؤه في درس الرياضة، وهذا ما قالته لي أمي وأخواي الكبيران...

ثم قال ببعض الفخر:

- هل تعرف بأن لي أخوين معنا في هذه المدرسة، الكبير اسمه صابر، وهو في الصف السادس، والأصغر منه " هاشم " في الصف الرابع، وأريد أن أخبرك أيضاً أن فرّاش المدرسة، العم " أبو حليم " هو زوج خالتي.

لاذ حميد بالصمت وراح ينظر إلى الأمام، وظل علاء ينظر إليه منتظراً أية ردة فعل من زميله الذي يشاركه المقعد الخشبي، حتى انتبه إلى أذن حميد اليمنى وراح نظره يتجول رويداً بين محيطها، حيث الشعر القصير الحليق حديثاً. تجمدت نظرة علاء في مكان خلف أذن حميد، أمعن النظر ثم قال بصوت مسموع:

- في رأسك قمل يا حميد !!

انتبه إليه جميع من في الفصل، نظر علاء إلى الأستاذ صلاح فوجد نظراته تتركز عليه، احمرّ وجهه وأراد أن يداري خجله فقال موجهاً كلامه إلى الأستاذ صلاح:

- لا أريد الجلوس هنا، أريد أن أنتقل إلى مقعد آخر.

صاح به أستاذ صلاح وأمره أن يقف، ثم أمره أن ينتقل إلى

جانب الطالب ماجد علي عمران الذي يعرفه علاء بشكل خاص كونهما يسكنان الزقاق نفسه، وكثيراً ما كانا يلعبان معاً.

منذ تلك اللحظة اكتسب حميد هلال لقب (حميد أبو القمل) وبقي هذا اللقب يلازمه حتى يومنا هذا.

خرج طلبة المدرسة عند الثانية عشر ظهراً حيث انتهاء الدوام الرسمي، وعلى الرغم من أن أخويّ علاء كانا بانتظاره كي يصطحباه إلى البيت حسب ما أمر به والدهما، إلى أن علاء طلب منهما أن يسمحا له بمرافقة أصدقائه على أن يكون قريباً منهما فوافقا، وحين أنظم إلى ماجد علي عمران ومحمد داود الصالح وفاضل عباس الدرباس وغيرهم من الأولاد وهم يسلكون شارع " القائمقام " الذي سمي بهذا الاسم لوقوع بيت القائمقام في ضفته الغربية والذي كان ملاصقاً لبناية المدرسة. راح الصبية يضربون بأكفهم الصغيرة على حقائبهم التي احتوت على كتابيّ القراءة والحساب الجديدين وهم يهزجون:

عاصفة لا والنبي مو عاصفة
اتلاثة طارن سوا
اثنين رجعن للوا
وحده أخذها الهوا
بيها قائدنا اشتوا

كانت تلك الأهزوجة، التي عرفها أبناء العراق، وأهازيج كثيرة غيرها تغمز إلى مصرع رئيس الجمهورية عبد السلام عارف، وكانت تلك الأهزوجات ممنوعة التداول، خصوصاً بعد أن أصبح شقيق الرئيس القتيل رئيساً للجمهورية. وحين وصلت المجموعة الهازجة

قرب بيت القائمقام، انبرى لهم حامد الشرطي الذي كان يتولى حراسة بين القائمقام وفي يده عصا طويلة، وصار ينعت الصبية بأقبح الأوصاف، وراح يضرب الأطفال ممن استطاع أن يلحق بهم، وكانت مؤخرة علاء واحدة من التي تلقت الضربات، ثم استطاع حامد الشرطي أن يمسك بأحدهم، فأخذه الرعب وشرع بالبكاء والتوسلات، وكادت قبضة حامد الشرطي تكسر رقبة الطفل، ثم صرخ بوجهه سائلاً:

- من أين أنت؟ وما هو اسمك؟

- أنا ابن داود الصالح، اسمي محمد صالح.

قالها الطفل وهو يبكي بفزع، وحين سمع حامد ما قاله الطفل فك قبضته قائلاً:

- حتى أنت، والله غريب أن تسلك أنت هذا السلوك! اذهب وسوف أتحدث مع والدك بالأمر!

انطلق الطفل راكضاً صوب علاء الذي وقف على بعد أمتار وقد سمع ما دار بين الشرطي البغيض وصديقه الحميم، وظل سؤال الشرطي يرن في ذهن علاء حتى وصل البيت بعد أن ودع صديقه الذي يسكن البيت المقابل.

◆

دخل علاء البيت، واستقبلته والدته بابتسامتها العريضة المعتادة، ولكنها سرعان ما انتبهت إلى عدم مرافقة أخويه له، فبادرته بسؤالها:

- لماذا أتيت وحدك، أين أخواك؟

- لقد خرجنا معاً، ولكن الشرطي حارس بيت القائمقام، ضربنا في العصا وتفرقنا...

- لماذا ضربكم ابن الكلب؟ وهل ضرب أخويك؟ هل مسك أحدهم؟

- كلا، مسك محمد صالح فقط ثم أطلقه، هو الآن في البيت.

في تلك الأثناء دخل الأخوان، كان الهلع واضحاً عليهما فلقد ظلا يبحثان عن أخيهم الصغير بعد أن فرقتهم صيحات وعصا الشرطي. شعرا ببعض الارتياح حين وجداه بأحضان والدتهما، وراحا يهزجان تلك الأهزوجة التي ثارت غضب حامد الشرطي، حينها تذكر علاء تلك الكلمة التي قالها الشرطي إلى صديقه ابن داود الصالح، فسأل والدته:

- حين مسك الشرطي صديقي محمد صالح قال له، حتى أنت تهتف مثل هؤلاء السفلة، ترى لماذا يجب عليه وهو صديقي، ألا يغني مثلي وبقية الأولاد؟...

ابتسمت الأم وقالت لصغيرها:

- لأن المفروض من أبناء داود الصالح أن يكونوا ممن يحبون عبد السلام عارف...

لم يفهم الطفل ما كانت تغمز له والدته، فبادرها بسؤال آخر:

- ولكن هل نحن أيضاً نحبه؟

فأجابت والدته بقليل من الدهاء:

- نحن نحب الزعيم، ذلك البطل الشريف...

ثم بادرته بأوامرها كي لا يسأل سؤال آخر، فأمرته أن يخلع ثيابه ويغسل يديه حتى تسكب له ولأخويه الطعام، ولكن السؤال ظل عالقاً في ذهن علاء، ترى لماذا نختلف مع الآخرين فيمن نحب، نحن نحب من يكرهه جيراننا، وجيراننا يحبون عكس ما نحب، وراح يقلب السؤال بمتعة، حتى قطعت صورة العصا التي تلقتها مؤخرته متعة السؤال، فتذكر الهلع الذي أصابه من ذلك الشرطي، فهو لم يعتد بعد على المضايقات التي كان يتسلى بها الشرطي حامد وهو يطلقها صوب الأولاد. فلقد اعتاد حامد على الوقوف صباحاً أمام بيت القائمقام، حين يكون الأولاد في طريقهم إلى المدرسة، عندها يكون حامد قد جهز خرطوم الماء، وفي تلك الحالة يتوجب على الطلبة ممن ذاقوا سخافاته ومضايقاته المتكررة السير على الرصيف المقابل لبيت سيده، أما إذا سها أحدهم ومر من قربه فيكون نصيبه رشة من الماء تبلل ثيابه وكتبه. أما وقت الظهيرة، فعادةً ما يقف حامد حاملاً عصاه الطويلة التي ينتقيها من شجر الرمان حيث حديقة دار القائمقام الغناء بأشجارها. يقف ويلوح بعصاه إلى الطلبة العائدين إلى بيوتهم، بأن ممنوع عليهم أن يسلكوا الرصيف المحاذي لبيت القائمقام، وكان المتعارف بين الطلبة ومعلميهم، أن حامد يكره طلاب المدارس كونه لم يدخل أي مدرسة في حياته، فهو ينحدر من عائلة فقيرة معدمة، كانت تشتغل بالأجرة في أرض الشيخ علي دليمي، نائب البرلمان فترة الحكم الملكي، وكانت مهمة حامد حين كان في سن الصبا، حراسة الأبقار والرعي، وعندما اشتد عوده وأصبح في سن الرابعة عشرة، ابتكر طريقة جديدة في مضايقة الناس. راح يصطحب الثور الضخم الوحيد في الزريبة بين عشرات الأبقار ليتجول به في قلب المدينة وهو يصيح بالناس أن يخلوا الطريق لثور الشيخ، ثم يعود به

إلى الزريبة بعد أن يشبع رغبته في مضايقة الناس وضرب الصبية مستخدماً عصى القيادة "قيادة الثور" حتى عرفت المدينة ثور علي دليمي، وأصبح مضرباً للأمثال، وقد سمع علاء في حديث لوالدته حين كانت تتحدث مع إحدى النساء عن هيبة الشيخ علي دليمي، أن الناس كانت تحترم الشيخ بشكل كبير حتى أنها أصبحت تحترم ثوره، فعندما يمر الثور في المدينة يفسح الناس الطريق له احتراماً للشيخ.

كان أولاد الشيخ قد لاحظوا شراسة حامد وحراسته المتميزة، فنصحوه بالانخراط في سلك الشرطة، حين شارف عمره على الثمانية عشر سنة. وبالفعل تقدم حامد للانتساب إلى سلك الشرطة بعد أن أخذ توصية من سعدون، أكبر أبناء الشيخ علي دليمي والذي طلب من أخيه الأصغر "مظهر" أن يأخذ حامد من يده ويقدمه إلى مأمور المركز. تم انتساب حامد إلى سلك الشرطة وأصبح حارس بيت القائمقام كونه لا يجيد القراءة والكتابة، ولا يجيد غير الحراسة، فأصبح حامد خادم منزل القائمقام.

منذ أن انتسب حامد إلى الشرطة أطلق عليه زملائه اسم (أبو ماهر) تيمناً بلقب شرطي آخر كان بينهم لفترة وجيزة، أطلقوا عليه لقب "أبو ماهر" لمهارته الفائقة في حياكة المؤامرات لدى المراتب العليا ضد زملائه من الشرطة، ومهارته الفائقة في الكذب. تم نقل ذلك الشرطي إلى مدينة الصويرة بعد أن كثرت الشكاوى ضده، فأصبح لقب حامد، زميلهم الجديد (أبو ماهر)، كونه يتمتع بنفس صفات "أبو ماهر" الذي سبقه. والغريب أن حامد أحب ذلك اللقب جداً ولم يتسنَ له معرفة سبب إطلاق اللقب عليه، وعندما تزوج ورزق بصبي، أسماه "ماهر" كي يصبح حقاً "أبو ماهر".

ماهر حامد يكبر علاء كاظم بعام واحد، كان هادئ الطباع، مسالم بسبب خوفه الشديد غير المبرر في أغلب الأحيان، وكان في طفولته وصباه شاحب الوجه ضعيف البنية، كان الخوف الشديد من قسوة والده هو ما دفعه إلى أن يكون طالباً متفوقاً في جميع مراحله الدراسية في التعليم الابتدائي والمتوسط، بالإضافة إلى إيمانه الكامل بأنه ينتمي إلى عائلة فقيرة تعيش تحت خط الفقر تقريباً، وهذا ما دفعه إلى التزام الدراسة كي يصبح معيلاً لعائلته ويرفع من مستواها المعيشي. لم يذكر ماهر يوماً أنه جلس مع والده وتحدث في أمر ما، كان والده كثير الصراخ سريع الغضب، وحين يغضب، كان غالباً ما يستعمل يديه اتجاه ولديه وزوجته على أتفه الأشياء، وكثيراً ما كانت والدة ماهر تخبئ طفليها أو تتحجج بنومهم حين يحين موعد قدوم زوجها، وحين تختلي بولديها في غيابه، كانت تلعب معهما وتتحدث إليهما، وكانت تبرر لهما غضب أبيهما بطريقة ساخرة تدفعهم إلى الضحك والرضا في أغلب الأحيان. كانت تقول، إن زوجها بخيل جداً، وحين يضع قدمه في البيت، يتصنع الغضب والانزعاج كي لا نطلب منه أي مبلغ أو شراء حاجة، وفي أحيان أخرى وعندما تكون غاضبة منه، أو تكون قد تلقت منه بعض ضربات موجعة تقول، بأنه يتلقى الإهانات المتكررة في عمله، وهذا ما كان يسبب له الإزعاج المستمر، وتضيف، بأن زوجها رجل، ويجب أن يجد مكاناً لاختبار رجولته، وبما أنه لا يمتلك غير بيته، فمن الطبيعي أن يمارس رجولته على زوجته وولديه.

◆

كانت الكتب المدرسية، المهرب الوحيد لماهر حين يشعر بضعفه أو يستاء من وضعه الاجتماعي. وكانت المشاهد الإنسانية

تؤثر به لدرجة البكاء، ففي أحد الأيام وحين كان في طريقه من المدرسة إلى البيت، وصل إلى سمعه حديث رجلين تقابلا صدفة في الشارع، كان أحدهم يمسك بيد طفل صغير قد يزيد عمره على الخمس سنوات ببعض شهور، كان يشرح ذلك الرجل إلى رفيقه كيف أنه قد تعود أن يصطحب ابنه معه في كل مرة يخرج بها خارج الدار، ولكنه في هذه المرة قرر أن يأخذ طفله إلى "مرزة الحلاق" كي يقص شعره، حتى تظهر علامات الرجولة عليه. حينها بكى ماهر بكاء مريراً، فيده لم تعرف دفء يد والده أو ملمسها، هل هي ناعمة؟ حنونة؟ خشنة أم قاسية؟ كان يعرفها فقط حين تهوي على خده وأجزاء جسمه الأخرى. انزوى في ركن من أركان سطح الدار وراح يبكي بمرارة متذكراً كيف أن والدته، هي من تقوم بقص شعره بدلاً من ذهابه إلى الحلاق، كان يكره ذلك اليوم الذي تبعث به إلى الخالة "غزالة أم محمود" ليستعير منها مقص الخياطة كي تقص له شعره.

كان ماهر كثيراً ما يبكي ضعفه. وكان في كل مرة يعتريه ذلك الشعور ويلجأ إلى البكاء، يتجه إلى كتابه، بعد أن تنتهي نوبة بكائه ويجفف دموعه، حتى صار يحفظ جميع كتبه المدرسية عن ظهر قلب.

في أحد أيام شهر تموز/يوليو، استلم ماهر نتيجة الامتحان الوزاري لنهائي الدراسة المتوسطة، غمرته الفرحة العارمة حين تأكد من أنه حصل على درجات عالية، جعلت منه الأول على مدرسته. سارعت خطاه إلى البيت حيث والدته طريحة الفراش، وكان على يقين بأنها ستشفى وتقف على قدميها مرة أخرى، بعد رقادها الذي دام لأكثر من ستة أشهر، لم ترَ خلالها أي طبيب أو مستشفى. كان

. متأكداً من شفاء والدته حين يخبرها بنجاحه الباهر ويحدثها كيف أن المدرسين ومدير المدرسة قد باركوه بشكل خاص. وحين دخل الزقاق حيث الدار، شاهد جمعاً من الرجال والأطفال يقفون أمام بيته، فتبين أن والدته قد فارقت الحياة.

التزم ماهر الصمت فترة طويلة، وراح يصلي بشكل مبالغ فيه، خصوصاً بعد أن وجد أحد زملائه وهو يقف إلى جانبه في شدته، فلقد فاجأه موقف زميله عثمان مرزوق الذي ظهر فجأة منذ اليوم الأول لوفاة والدته لتستمر علاقة حميمة ذات خصوصية عالية بين ماهر وعثمان غيرت شكل حياة ماهر جذرياً...

◆

كانت الضربة التي تلقتها أم ماهر على عظم حوضها والتي سددها زوجها حامد الشرطي، حيث ارتطم مقبض الهاون الثقيل (المهراس النحاسي) في عظم حوضها أعلى ساقها الأيسر، كفيلة بتهشم جزء منه. منذ تلك اللحظة حتى لفظها النفس الأخير، لم تقف المرأة على قدميها. رفض حامد أن يعرض زوجته على طبيب أو أي عارف بشؤون الكسور، وكان في كل مرة تطلب منه زوجته حملها إلى المستشفى، كان يعنفها ويهددها بالضرب وهو يصيح بأعلى صوته... هذا مستحيل، كيف أوافق على كشف شرفي وعرضي على الرجال من الأطباء؟ أقسم بالله أنك تكادين أن تفقدي شرفك... كان هذا سبباً من عدة أسباب منعت حامد، حسب ما أملى عليه تفكيره الساذج رفض تطبيب زوجته، وهناك سبب آخر يعرفه بشكل قاطع نتيجة خبرته الطويلة بقضايا الشرطة، هو احتمال أن يطلب الطبيب تقرير من الشرطة يثبت فيه أن المرأة لم تتعرض لاعتداء شخصي.

بعد مرور أيام قليلة، تورم مكان الإصابة وأصبح يشتد في زرقته، وفي الشهرين الأخيرين ظهر على مكان الورم بعض التقرحات وأخذ المكان ينزّ سائلاً أصفر، وأصبحت الآلام لا تطاق، كانت تصرخ بمرارة تحت وطأة الألم، وظلت على حالها ذاك حتى فارقت الحياة.

أثّر موت تلك المرأة، تأثيراً كبيراً في نفس ولدها البكر. وكثيراً ما صار الظلم الذي وقع عليها من قبل زوجها، يشغل تفكيره. وبرغبة عارمة في جَلدْ الذات، راح ماهر يستنتج صوراً أخرى للظلم الذي كانت تعيشه والدته، صار يفكر بالفقر والحاجة، وأصبح نشاط ذاكرته يستحضر صوراً لم ينتبه إليها من قبل، وتيقن أن جهل والده وعدم تعليمه، أحد الأسباب الرئيسية التي رسمت تلك الحياة المأساوية لوالدته التي فارقت الحياة وتركته وشقيقه " علي " الذي يصغره بأربعة أعوام، والذي لا يزال في حاجة إلى رعاية الأم وحنانها.

أخيراً توصل ماهر إلى قناعة، كان لعثمان مرزوق دور هام بترسيخها داخل روحه... قناعة تشير إلى أن الله يرحم المظلومين، وأن والدته الآن في جنة الخلد، تنعم برحمة الرحمن الرحيم. حدث ذلك بعد أن اصطحب عثمان زميله إلى جامع "المحمودية الكبير" الذي لا يبعد عن بيت ماهر كثيراً، وهناك راح عثمان يقرأ لصديقه الجديد آيات من القرآن، بعد أن أتما الصلاة، وبعد أن شرح عثمان لماهر أهمية ضم اليدين إلى الصدر في الصلاة، بدلاً من تركهما مسبلتين، كما تعود ماهر في صلاته من قبل.

فور سماعه لبعض الآيات، راحت دموعه تنهمر بشكل غزير، مما شجع عثمان إلى تخفيف صوته، وراح يرتل بنغمة لم يسبق

لماهر أن سمعها. قطع عثمان قراءته حين وصل إلى مسامعه صوت الشيخ محمد وهو يلقي عليهما تحية الإسلام، همَّ الاثنان بالوقوف احتراماً، ولكن الشيخ، سارع بالجلوس، وراح يواسي ماهر بعد أن شرح له كيف سمع خبر وفاة والدته عن طريق صديقه الذي يجلس أمامه. راح يتكلم عن نعمة الموت التي مَنَّ بها الله على البشر كي ينقلهم من عالم الدنيا الفانية إلى دار الخلود، الدار التي يكون فيها البشر روحاً طاهرة قريبة من الله، وشدد على أن البشر يجب أن يكرسوا جل وقتهم لعبادة الله، يذكروه ويسبّحوا بحمده ويستغفروه، وصاحب الرأي السديد والشجاع من البشر هو الذي يطلب من ربه وباستمرار، أن يقربه إليه بأسرع وقت، ثم قال:

- اسمع يا أخ ماهر، من اليوم نحن إخوتك في الإسلام، ونحن ملزمون بك، واقصد أن تعتمد علينا بكل صغيرة وكبيرة، وألا تتردد في طلب أي معونة أو قضاء حاجة، فنحن إخوتك، وتذكر، حين يستسلم الشخص إلى أفكار موغلة في الوحدة وضعف الحيلة، واقصد بالوحدة، حين يشعر الإنسان بأنه وحيد ولا مناصر أو معين له، فإنه بذلك يكفر برحمة ربه، ولهذا عليك أن تفكر دائماً بأننا نقف إلى جانبك...

وقع كلام الشيخ محمد بصوته الرقيق ولثغته الجميلة بحرف الراء، موقع السحر في روح ماهر، وشعر بارتياح كبير حتى راح يبتسم بوجه الشيخ محمد، واعترته رغبة في تقبيله. إنها المرة الأولى التي يشعر بها هذا الصبي المترع بشعور الضعف والتدني، بأن هناك أشخاصاً يمكن أن يتحدث معهم، يسمعهم ويقفوا بجانبه، وعلى الرغم من ذلك اعترته بشكل مفاجئ نوبة خوف شديدة حين تذكر والده، وتذكر سطوته وجبروته وأوامره بعدم الخروج من البيت أو

الالتقاء بأي شخص كان، ثم قال وهو ينظر في حجره حيث كفاه المرتعشتان:

- ولكني لا أستطيع الحضور إلى هنا، فأوامر والدي قاسية جداً، تمنع عليَّ الخروج من البيت، إلّا الذهاب إلى المدرسة، فكيف أعصي أوامر والدي وألتقيكم؟

نظر الشيخ محمد إليه ومسك كتفه بيد بيضاء حنون، وقال:

- لا عليك، سوف أتحدث مع والدك بهذا الأمر، ولا أظن أنه سيمانع، خصوصاً وأنت تسكن قريباً من هنا...

ثم وضع أصابعه تحت ذقن ماهر محاولاً رفع رأسه وأضاف:

- ارفع رأسك، فأنت رجل شجاع وذكي، وأمامك مستقبل زاهر...

ثم قال بفخر واضح:

- هل تعرف يا أخ ماهر، بأنني أتوقع لك مستقبلاً زاهراً ومهماً في نفس الوقت؟ أنت بكل تأكيد ستكون شخصية مهمة في هذا البلد.

كان الشيخ محمد شاب في الثلاثين من عمره، جميل الوجه، رقيق الصوت أبيض البشرة، ممتلئ الجسد بعض الشيء، وهو أكبر أبناء الشيخ طه السامرائي إمام وخطيب " جامع المحمودية الكبير " الذي حاول بكل ما يستطيع أن يجعل من جميع أولاده رجال دين، ولكنه لم يفلح إلا مع محمد ولده الأكبر، رغم أنه أدخلهم المدارس والحلقات الخاصة بتلقي العلوم الدينية. وكان الشيخ محمد يرى أن الجلوس في المقاهي والتجول بالأزقة، صورة من

صور بداية الإنحراف، ورأيه هذا بالإضافة إلى آراء أخرى في مظاهر " الانحراف " التي تعج بها المدينة حسب ما يعتقد، هو الرأي الذي أفتتح به حديثه مع حامد الشرطي بخصوص ولده ماهر بعد ما أثنى على أخلاقه وذكائه وهدوء طبعه، وعلى الرغم من أنه شعر بنظرة الاستغراب في عيني حامد، إلا أنه استمر بكلامه وهو يشرح الفوائد العظيمة التي يجنيها الإنسان من ارتياد المساجد والصلاة مع الجماعة، والاستماع إلى الخطب والأحاديث، ولم يفلح الشيخ محمد بإقناع حامد، إلا عندما أخبره، بأن والده الشيخ طه اعتاد أن يقتطع بعض من المال، الذي يتبرع به رجالات المدينة إلى الجامع، كي يوزعه على المحتاجين من أبناء المدينة الذي يتمتعون بسمعة وأخلاق جيدة، وأن الجامع وإدارته ستتكفل بتوفير الملابس والأحذية ومصاريف الدراسة لولده، كونه على خلق عظيم، وعلاوة على ذلك فإن ماهر سيحصل على دروس مجانية ومهمة في الفقه والشريعة الإسلامية، عندها وافق حامد على العرض الذي سمعه من الشيخ محمد وراح يقدم له الشكر والامتنان...

(10)

فتحت كميلة باب السيارة حال توقفها، وبسرعة جثمت على ركبتيها وراحت تتقيأ بصوت مسموع. لم تنتبه إلى ذلك الشاب الذي كان بانتظارهم بعد أن تلقى مكالمة هاتفية عرف من خلالها قرب وصول رفاقه كي يهيئ ما اتفقوا عليه من ترتيب وحمايته، وأن يستقبلهم بالماء البارد أو اللبن، كما جرت العادة. ولكن هذه المرة لم يقدم الماء لرفاقه، بل سكبه على رأس كميلة حالما شاهد منظرها. شعرت بانتعاش بسيط وراحت دون تفكير تمد كفيها طلباً للمزيد من الماء كي تغرغر فمها وتغسل وجهها، وفجأة وقفت منتفضة على حالتها المزرية وهي تصرخ بلغتها الدنماركية:

– يا للشيطان ماذا فعلتم بعلاء، لماذا تعاملوننا بهذه القسوة، ماذا تريدون منا؟...

قطعت كلامها بعد أن سحبها أحد الخاطفين من ذراعها ليقودها حيث الحائط الطيني الذي بدا أمامها كحائط أثري، نظرت كميلة إلى ذلك الجدار الطيني وانتبهت إلى نباح أكثر من كلب وإلى صوت مولد كهربائي هادر. حاولت أن تتوقف عن السير وتنظر إلى الوراء حيث زوجها. شدها الشاب مرة أخرى ليعيدها باتجاه الجدار الطيني حيث البوابة الحديدية الخضراء. حين اجتاز الشاب البوابة بعد أن ركلها بقدمه وهو يسحب كميلة من ذراعها، وحين أصبح الجدار خلفهما، لم تشاهد كميلة أي بناء أو حيوان أو أي جنس بشري، كان المكان عبارة عن مساحة خالية تقارب المئة متر مربع،

يسورها سور طيني ببابين حديديين متقابلين. استمر الشاب بسحب كميلة حتى بلغا وسط المكان، حينها شاهدت حفرة صغيرة مربعة وإلى جانبها كتلة كونكريتية بقياس الحفرة، أصدر الشاب أمره إلى كميلة بالنزول، لكنها لم تفهم منه. صرخ بوجهها " داون Down " رفضت المثول لأمره بعد أن فهمت ما أراده، ثم أمرها مرة أخرى وظلت المرأة على موقفها، غضب الشاب فشرع إلى تطويقها بين ذراعيه وأنزلها الحفرة، وحين استقبلت أقدامها أولى درجات السلم الكونكريتي المؤدي إلى الداخل، وضع الشاب كفيه على كتفيها وراح يضغط عليهما بشدة، فاستجاب جسدها الرقيق الواهن من شدة الرعب والإعياء لقوة يدين الشاب، فهبطت أسفل الحفرة بينما بقي الشاب واقفاً على حافتها، نظرت المرأة حولها، فشاهدت غرفة واسعة مجهزة بخمسة أسرة بمفارشها، كان الضوء جيداً نتيجة اشتغال مولدة الكهرباء الضخمة التي يسمع هديرها بوضوح. ثم لاحظت منضدة صغيرة وضعت عليها بعض الأوراق والكراريس وجهاز راديو كبير، ثم باباً حديدي بني اللون في الطرف الأيسر من الجدار المقابل للسلم الكونكريتي. لم تستطيع كميلة تحمل كل ما يجري، فأخذت تصيح بأعلى صوتها مستخدمة اللغة الإنجليزية:

- أين علاء؟ أريد علاء، أن الذي تفعلونه بنا جنون، أنتم مجانين، فلتذهبوا إلى الجحيم...

استمرت بصراخها وهي أسفل السلم، حتى شاهدت ساقي علاء تتدليان على السلم، هرعت إلى الأعلى واحتضنت الساقين لتسحبهما إليها ثم سمعت أنين علاء عندما صار صدره قريباً من أذنها، هبطت به إلى الأسفل بمساعدة الشاب الذي أدخلها الحفرة،

وسرعان ما أصبح علاء بجسده الثقيل ممداً على السرير القريب من السلم.

ارتفع هدير السيارة البيضاء وهي تنطلق صوب الحقول. نظرت كميلة إلى وجه الشاب بعد أن استطلعت الجرح في رأس زوجها، وقالت بالإنجليزية، وهي تشير إلى الرأس المصاب:

- يجب أن ننظف الجرح، هل لديك بعض اللوازم الطبية؟ هل تفهمني؟...

نظر الشاب إليها باستخفاف ثم استدار صوب الباب الحديدي. أخذ يطرق الباب وهو يقول بصوت عال:

- توفيق، توفيق هل تسمعني؟ أخرج وهات معك كيس المواد الطبية، بسرعة!

عاد الشاب حيث مكانه وقبل أن يصل السرير حيث علاء، انفتح الباب وظهر رجل يرتدي دشداشة بيضاء وتحت إبطه الأيمن عمود خشبي طويل يتكئ عليه في سيره عوضاً عن ساقه المبتورة. وفي يده اليسرى كيس بلاستيكي أبيض، نظرت كميلة صوبه فأصابها الذعر، لقد تذكرت على الفور وجه أسامة بن لادن، كان توفيق الأعرج كما يلقبه الآخرين، قريب الشبه من بن لادن، خصوصاً بعد أن يلف على رأسه الكوفية البيضاء لتشكل مع هيئة لحيته، ونحافة وجهه المائل في لونه إلى الصفرة، الشكل المتعارف عليه لشكل بن لادن كما تظهره الصور في وسائل الإعلام.

تناول الشاب الكيس البلاستيكي من يد توفيق ثم ناوله إلى كميلة. طلبت بعض الماء لغسل الجرح وهي تحتضن رأس زوجها بذراعها اليسرى، ناظرة إلى الجرح المغطى بشعر كثيف. كان

الجرح عبارة عن ثقب مثلث الشكل تجاوزت مساحته السنتيمتر الواحد بقليل، وكأنه ختم، فقد أخذ الجرح شكل إحدى زوايا مؤخرة المسدس.

وصل توفيق بإبريق الماء وراح يسكب على رأس علاء بعدما تدلى خارج حدود السرير، وحين أشارت كميلة له بالتوقف بعد أن تكونت بقعة من الماء على أرضية الغرفة الكونكريتية. وحين شرعت بوضع الضماد على الجرح، خرجت بعض كلمات من الرجل المصاب، إشارة إلى استعادته للوعي:

- آه... رأسي يكاد ينفجر، كميلة، أين أنتِ؟...

ثم حاول أن يفتح عينيه فعرف أن أنفه مندس بصدر زوجته، بعد أن استنشق رائحتها، ثم أغمض عينيه مرة أخرى.

شعرت المرأة ببعض الارتياح بعد سماعها الكلمات القليلة التي نطقها زوجها. راحت تنظر إليه بعد أن استقر رأسه الملفوف بالضماد على الوسادة وعيناها غارقة بالدموع.

عاد توفيق إلى غرفته بعد أن أخبر المرأة التي لم تفهم من كلامه شيئاً، بأنه سيقوم بتجهيز بعض الطعام والشاي لهما، وبعد أن تأكد من أن فتحة الملجأ قد تم إغلاقها جيداً من قبل الشاب الذي تركهما ليتولى حراسة المكان.

كانت التعليمات التي تلقاها الشاب من الآخر الذي ترأس تنفيذ عملية الاختطاف والذي كان يقود سيارة علاء، واضحة جداً، حيث أمره بأن يعتني بهما اعتناء خاصاً، وأن يقدم لهما أي شيء يطلبانه ماعدا خروجهما من الملجأ، وأن يتأكد من استفاقة الرجل المصاب من غيبوبته. حينها عليه أن يتصل بسلمان ويخبره بذلك، كي يأتي

ويأخذ مكانه لحراسة فتحة الملجأ، ثم أضاف بلهجة تهديدية صارمة:

– إذا تعرضت المرأة إلى أي مضايقة من قبلكما فسوف أعدمكما بالحال، هل فهمت؟

نعم، المكان الذي تتواجد فيه كميلة وزوجها الآن، هو ملجأ تم بناؤه تحت زريبة المواشي في السنة الثانية من عمر الحرب العراقية الإيرانية، حين قدمت الحكومة العراقية منحة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار عراقي أي ما يعادل تسعة آلاف دولار أمريكي، لكل عائلة تقوم ببناء ملجأ لها داخل مكان سكناها(*). سارعت العوائل إلى بناء الملاجئ طمعاً بالمنحة المالية وليس بهدف الحفاظ على حياة أفرادها، كونها على يقين بأنها في مأمن، خصوصاً بعد أن دُمِّرَتْ أغلب الطائرات الإيرانية من قبل سلاح الجو العراقي منذ الأسابيع الأولى للحرب.

◆

أفاق علاء من غيبوبته. فتح عينيه وهو ينادي على زوجته، اقتربت منه والنعاس يسيطر على جفنيها، كانت الساعة تقارب الرابعة فجراً، حاولت أن تهدئه وهي تسأل بصوت منخفض عن آلامه ومقدار شعوره بالجرح، نظر إليها سائلاً:

– أين نحن؟ كيف أنت؟ هل تعرضتِ إلى أذى؟

– كلا، لم أتعرض إلى أذى، سوى الشعور بأني أعيش كابوساً يكاد يخنقني، لا عليك أرجوك أن تهدأ.

– أين نحن؟ أرجوكِ قولي لي..

– أنتَ الذي يجب عليه أن يخبرني...

قالتها وهي تبتسم في وجهه وأضافت:

- فأنت ابن المنطقة، أم تراكَ نسيت؟

كان صوتها واضحاً متزناً هادئ النبرة، وعيناها تبحر بعينيه تتعمد الفحص والتأكد من أن حبيبها على ما يرام.

- كم من الوقت سارت السيارة بعد أن تلقيت الضربة؟ وهل غيرت اتجاهها؟ وفي أي اتجاه تغير؟...

أمطرها بأسئلته وهو يتحسس الضماد في قمة رأسه، فأجابته كميلة والابتسامة القلقة مرسومة على شفتيها:

- هذه أسئلة مهمة حبيبي. تقريباً عشر دقائق هي الفترة المنحصرة بين تلقيك الضربة من ذلك اللعين وبين وصولنا إلى هنا، ولم تغير السيارة اتجاهها سوى أنها استدارت إلى اليمين لأمتار قليلة حتى تقف قرب هذه المكان.

- إذاً، فنحن في منطقة اللطيفة، في الأراضي الزراعية القريبة من القرية العصرية، أقصد شرق القرية العصرية...

ثم استدرك سائلاً:

- وما هذا المكان؟ أقصد هل شاهدتِ معالمه؟

- نحن الآن تحت الأرض، فهناك فتحة صغيرة أعلى تلك الدرجات التي تشاهدها هناك...

أشارت إلى السلم الكونكريتي وأضافت:

- والمكان في الخارج مجرد ساحة مسورة بجدار طيني بارتفاع المترين أو أقل بقليل، يبدو أنه كان زريبة حيوانات، فآثار العلف

والتبن وفضلات الحيوانات واضحة على الأرض.

- إذاً، فنحن داخل ملجأ، أو مخزن. يخيل إليّ أني شاهدت أحد الأشخاص هنا، هل هذا صحيح أم أني كنت أحلم؟

قطع كلامه حين شعر بألم مفاجئ. طلبت كميلة منه أن يعود برأسه حيث الوسادة، ويلتزم الصمت والإنصات لها، ثم قالت:

- هناك باب حديدي بني اللون، فقط أنظر خلفي جهة اليسار وسوف تراه، وخلف الباب يوجد شخص في نهاية الثلاثينيات من عمره، شخص أعرج يتكئ على عكاز خشبي طويل، وهناك شخص آخر أقل منه عمراً، هو الآن في الخارج، وعلى الأرجح يقوم بحراسة المكان، وحتى اللحظة، لم يبدر منهما أي سوء، أعتقد أنهما من يتوليان حراسة وإعداد هذا المكان...

نهض علاء بشكل مفاجئ وكأنه تذكر شيئاً مهماً، نظر إليها وسألها بصوت خافت:

- أين جهاز الموبايل؟ هل هو معك الآن؟

وضعت أصابعها على فمه وطلبت منه عدم إرهاق نفسه بالأسئلة، وألا يسألها عن أي شيء مهم، خوفاً من أن يسمعوه. ابتسم لكلامها حتى تحولت ابتسامته إلى ضحكة واضحة ثم قال:

- وهل تعتقدين أنهم يعرفون اللغة الدنماركية؟...

استمر بضحكه رغم شعوره ببعض الآلام ثم قال:

- يبدو أن الصدمة قد أثرت بكِ بعض الشيء، على الرغم من أني أراكِ متماسكة. هؤلاء السفلة هم على الأرجح قطاع طرق. لصوص، من الصعب أن تجدي بينهم من يعرف القراءة والكتابة،

فما بالك بلغةٍ لا يعرفها سوى الله والشعب الدنماركي؟...

ابتسمت كميلة وقالت:

- ولكن كلمة موبايل، كلمة عالمية ولا تحتاج إلى معرفة لغة معينة!!

شعر ببعض الخجل بعد أن اكتشف سذاجة ما قاله، ثم أعتذر ليضع الحق إلى جانب زوجته. قالت كميلة بنبرة يشوبها بعض من التأنيب:

- ألم أطلب منكَ عدم التوقف عند ذاك النهر؟ لقد كنت مصراً على أن تريني النهر وأن تحكي لي حكايتك معه، أنظر أين نحن الآن نتيجة إصرارك على ذلك؟

- كان من المهم أن أحدثك عنه ونحن نقف على ضفافه، وكم كنت أتمنى لولا تأخر الموسم، أن تتذوقي تمر النخيل التي على ضفافه، فالتمرة من تلك النخلات المرتوية بماء الفرات، تكتنز حلاوة ليس لها مثيل، ولكن الأنذال أفسدوا علينا تلك المتعة...

حاولت كميلة أن تقطع حديثة بعد أن شعرت بأن كلامها كان يحمل بعض التأنيب، وراحت تسأله بحنان واضح:

- قل لي، كيف أنت الآن؟ هل لا زال رأسك يؤلمك؟

نظر إليها وقال:

- أنا بخير ما دمتِ أنتِ بخير، أشعر بأني قد سببت لك المتاعب، ولكن تأكدي بأنكِ أمانة في عنقي، لن أفرط بها مهما كلف الأمر، فأنا المسؤول عن سلامتك حتى تصلي بلدك...

ثم استدرك:

- أقصد بلدنا سالمة معافاة.

توقف علاء عن الكلام ثم قال بشكل مفاجئ وكأنه تذكر شيئاً مهماً:

- لم تقولي لي، أين تلفونك المحمول؟

◆

عند الساعة السادسة صباحاً، شعر علاء ببقعة ضوء ارتسمت أسفل السلم الكونكريتي، فعرف أن البوابة الصغيرة التي تحدثت عنها كميلة قد فُتِحتْ. شعر بحركة خفيفة لتيار هوائي راح يتجول في زوايا المكان. وسرعان ما تأكد من ذلك حينما شاهد شاباً في العشرين من عمره يهبط درجات السلم، كان يرتدي دشداشة بيضاء شفافة بعض الشيء وتحتها بنطال من نفس القماش، بانَ طرفه وهو يلامس جلدة نعاله الأسود. كان يمسك في إحدى يديه كيساً بلاستيكياً، وحين اقترب الشاب منهما ألقى عليهما تحية الإسلام، ثم أردفها بصباح الخير، وراح يسأل:

- هل نمتما جيداً؟...

ثم نظر إلى علاء وقال:

- كيف أنت الآن؟ هل أصبحت أحسن؟ هل الآلام لا تزال مستمرة؟ أتمنى أن تكون بخير...

نظر علاء صوبه، وعلى الفور شعر بأن لهجته العراقية غير سليمة، فيها بعض اللكنة التي توحي إلى مكان آخر، فبادره بجملة فيها شيء من الامتحان اللغوي معتمداً على اللهجة الجنوبية التي تعلمها من والدته فقال:

- الحمد لله "كوّاك"...

كلمة كواك هذه تعني بلهجة أهل الجنوب أنه بحالة لا بأس بها، أي بينَ بينْ، عندها نظر الشاب إلى علاء مبتسماً وكأنه عرف ما كان يقصد من وراء تلك الكلمة فقال:

- أهل المحمودية لا يستخدمون كلمة "كوّاك" وهي تخص أهل الجنوب، لقد عرفت هذه المعلومة من عائلة "أبو صادق" التي كانت تشتغل في هذه الأرض. على العموم يا سيدي لا تقلق، فأنا عراقي الأصل والهوى، ولكن عائلتي تسكن في بلد مجاور لحدود العراق، وكثيراً ما كنا ندخل ونخرج إلى العراق، دون أن يسألنا أحد، بالمناسبة، اسمي رجب...

ثم أضاف سائلاً:

- هل تناولتما شيئاً من الأكل؟...

نظر إلى الباب الحديدي وقال:

- أين هذا الغبي توفيق الأعرج؟...

راح ينادي عليه بصوت عال. انفتحت الباب وخرج توفيق[1] يحمل في يده صينية الشاي. وضعها على الأرض. تماماً وسط المساحة المحصورة بين الأسِرة حيث السجادة الصغيرة التي تتوسطها، ثم جلس وراح يسكب الشاي في أقداح صغيرة بعد أن تناول الكيس البلاستيكي من رجب، فتح الكيس وأخرج أربعة أرغفة ثم علبة جبن معدنية، وحبتين طماطم. في تلك الأثناء وعندما كان توفيق منشغلاً بإعداد وجبة الإفطار، كانت كميلة تجلس

(1) انظر سيرة (3)، توفيق الحاج مطرود، ص329.

القرفصاء على السرير المجاور لزوجها، نظر علاء صوبها ثم توجه بكلامه إلى رجب:

- من فضلك، هل تقول لنا أين نحن؟ ولماذا نحن هنا؟ هل جنينا ذنباً من أجل أن نكون في هذا السجن؟...

ضحك رجب وقال:

- عزيزي، هذه الأسئلة ممنوعة، والسبب، هو أن حياتي ستكون ثمناً للإجابة عليها، هل فهمتني الآن؟ عليك أن تتناول فطورك بسرعة كي أصطحبك خارجاً، فهناك من يريد التحدث إليك، عندها يمكنك أن تسأل ما تريد.

- هل تقصد أنا وحدي!؟ أم أنا وزوجتي؟

- أنتَ وحدك، زوجتك ستبقى هنا.

- ولكن هذا مستحيل، لن أدعها وحدها بينكم في هذا المكان المخيف...

ابتسم رجب وراح ينظر إلى توفيق الذي بادله الابتسامة وقال:

- هل تخاف عليها؟...

ثم ضحك بصوت مسموع وأضاف:

- تأكد لو أننا أردنا أن نؤذيها أو نعتدي عليها، فلن تستطيع منعنا، ولكن كن مطمئناً، التعليمات واضحة جداً، علينا الاعتناء بكما على أتم وجه، وإذا سمع سيدنا أي شكوى منكما عن سوء معاملتنا لكما، سوف تكون عقوبتنا قاسية جداً...

كانت نظرات كميلة تتجول بين المتحدثين، انتبه علاء، وراح

يترجم لها ما دار من حوار، بعد أن استأذنهما بالحديث إلى زوجته بلغتها الأم.

- في أي لغة تتحدثون؟ يبدو أنها ليست لغة إنجليزية، أليس كذلك؟...

توجه رجب بسؤاله إلى علاء.

- إنها اللغة الدنماركية، فزوجتي ليست أمريكية أو إنجليزية كما تصورون، هي دنماركية ولا دخل لها بالأمريكان أو الإنجليز.

- الأمر لا يهمنا كثيراً، فلتكن أمريكية أو أي جنسية أخرى، أنا أردت المعرفة فقط، مجرد فضول، ولكن قل لي، أين تقع الدنمارك؟ هل هي بعيدة؟

- نعم، بعيدة من هنا، بعيدة جداً، بعيدة في كل شيء...

حاول علاء أن ينهي كلامه بسرعة بعد أن اعتراه شعور مزعج. فقال:

- اسمحوا لي أن أجلس بجانب زوجتي كي أتناول الفطور معها.

قال ذلك وقد تحرك مقترباً من مكان الطعام، ثم انتقل إلى السرير حيث زوجته، حاملاً رغيف خبز تتوسطه قطعة من الجبن، جلس إلى جانبها ونظر إليها بانكسار واضح، ثم قال:

- بالأمس سألتكِ عن جهاز صغير كان بحوزتكِ، هل لا زلت تحتفظين به؟...

نظرت إليه وقالت:

- حقيبتي وكل الأشياء بقيت في السيارة، وأنت تعرف أين السيارة الآن.

- يا إلهي! لقد كنت قد علقت الكثير من الآمال عليه، كيف تفوتك مثل هذه الفرصة؟

- لقد نزلت من السيارة وأنا لا أشعر بشيء، نزلت أتقيأ، وكدت أموت، كانت معدتي تتقلص بشكل مؤلم وخانق، فنزلت دون شعور مني حالما توقفت السيارة طلباً لاستنشاق الهواء، فأفرغت معدتي دون أن أشعر.

- أحقاً عانيتِ كل هذا؟ أرجوكِ أن تسامحيني، أنا السبب، لقد أخذني الحنين إلى ذلك النهر ورحت أحدثكِ عنه متناسياً خطورة المنطقة.

- لا عليك...

مدت كفها صوب رأسه، وراحت تداعب بعض الشعرات التي لم يغطيها الضماد، ثم قالت:

- أرجو ألا تحمل نفسك ذنباً اقترفه حفنة من الخنازير، أنت أطهر من كل هؤلاء الأوغاد.

نهض رجب محرراً نفسه من مجاورة توفيق، بعد أن تأكد من أن علاء قد انتهى من تناول فطوره، وقف أمامه قائلاً:

- تفضل معي الآن، علينا أن نخرج من هنا...

ثم نظر صوب كميلة وقال لها باللغة العربية:

- لا تخافي سوف يعود إليكِ، عليه أن يكلم الأستاذ.

وقف علاء بعد أن ترجم لزوجته ما قاله رجب.

ارتقيا السلم الكونكريتي، ثم استدارا ناحية اليمين حيث الباب الحديدي المقابل لتوأمه في الجهة المقابلة للشارع الترابي، وحين أصبح الباب خلفهما، شاهد علاء بيتاً كبيراً على بعد بضعة أمتار، بيتاً مشيداً من الطابوق، وكان الجدار قبالته، يحتوي على شبابيك متشابهة في شكلها وحجمها، ثم بوابة تعلوها سقيفة كونكريتية تمتد إلى الأمام بما يقارب الثلاثة أمتار، محمولة بأعمدة كونكريتية، وكأنها وحش متأهب ليفترس كل من يروم الاقتراب. حين وصل علاء إلى البوابة، لاحظ أن الباب كان موارباً، فوقعت نظراته على جذع شجرة توت، بدأ شكلها يتكون كلما اقترب منها، وحين أصبح الاثنان على حدود ساحة البيت الداخلية، شد رجب ذراع علاء ليستدير به ناحية اليسار، وبعد بضعة أمتار، طلب منه الدخول إلى إحدى الغرف بعد أن فتح بابها لتندلع منها رائحة سيجار نفاذة. خطا علاء خطوة واحدة داخل الغرفة ثم توقف حال أن وقع نظره على رجل ضخم الجثة يرتدي قميصاً أبيضَ وبنطالاً أسود وقد تدلى كرشه إلى الأمام بشكل واضح، كان يمسك بين أصابعه سيجاراً من النوع الفاخر، استطاع علاء أن يعرف جودته من خلال الرائحة التي كانت تملأ فضاء الغرفة، ابتسم الرجل إلى علاء ورحب قائلاً:

- أهلاً وسهلاً أستاذ علاء...

اقترب الرجل منه وصافحه، مسك كفه وأحس بارتعاشها، ثم قال وهو على ابتسامته:

- هل أنت خائف؟ أرجوك أجلس هنا...

كانت الغرفة لا تحتوي من أثاث سوى فراش إسفنجي يغطي كامل محيطها باستثناء فتحة الباب. جلس علاء في المكان الذي اختاره له الرجل الذي جلس أمامه مباشرة، نظر إليه وسأله:

- ها أستاذ علاء، هل عرفتني؟ تطلع إليَّ جيداً، ربما ستعرفني...

نظر علاء صوبه وابتسم بخوف واضح، ثم قال:

- أرجو أن تمنحني العذر، فأنا في حالة يصعب عليَّ فيها أن أتذكر أي شيء...

انفجر الرجل ضاحكا وقال:

- لا عليك، أنا سأقرب عليك المسافة، أنا يا صديقي، أحد زملائك القدامى، أقصد زملاء الدراسة...

ثم أضاف:

- ها، هل تذكرتني الآن؟

أشار علاء برأسه وهو يصنع علامة النفي، حينها قال الرجل بصوت مرتفع:

- أكيد لن تتذكرني، فمن أكون أنا؟ مجرد فلاح ابن فلاح، أين أكون جنب ابن المدينة الذي يعرف المقاهي والشوارع المعبدة، يشرب ماء الحنفية، ويقضي حاجته في مكان مخصص لها داخل البيت، ليس كما كنا نحن أبناء الفلاحين، نقضي حاجتنا عند النهر ثم نشرب ونغتسل ونطهو طعامنا من مائه، هل تذكرتني الآن أيها الأوربي النظيف؟...

كرر علاء إشارة النفي وهو يحاول جاهداً استرجاع ذاكرته، كي يتذكر هذا الغول الجاثم أمامه. وبعد فترة انتظار وجيزة قال الرجل بشيء من الاعتزاز:

- أنا حميد هلال، نعم، حميد هلال الذي كان زميلك في الدراسة، هل تعرف حميد هلال؟...

قالها وهو ينظر صوب علاء الذي شعر بخطوط حاقدة ساخنة تتوجه إليه، تطلقها عينا حميد الذي سكت لبضع ثوان ثم قال بلهجة ساخرة:

- هل نسيت حميد (أبو القمل)؟...

اندهش علاء لدى سماعه ذلك اللقب، الذي غاب عن ذاكرته فترة طويلة، فقال وهو في غاية الارتباك:

- أه... تذكرتك الآن، أنت حميد هلال زميل الدراسة، كيف أنت وما هي أخبارك؟...

ضحك حميد بصوت عالٍ ثم نظر إليه وصاح بنبرة صارمة:

- آه...

ثم صفَّقَ براحتيه وكأن شيئاً عظيماً قد حدث، ثم تغيرت ملامحه بسرعة مذهلة لتظهر غيظاً مرعباً وقال:

- هل تيقنت من صحة كلامي؟ كنت أحاول أن أضع أمامك بعض ما يدل على شخصيتي كي تتذكرني، ولكن جميع محاولاتي باءت بالفشل، وحين ذكرت لك اللقب الذي أطلقته أنتَ عليَّ، وظل يلازمني طيلة حياتي، تذكرتني على الفور؟...

تملك علاء يقين قاطع، بأن حميد هلال يضمر له الشر،

فالحقد واضح في عينيه وملامحه. حاول أن يتدارك الأمر فقال:

- كان ذلك منذ زمن طويل، كنا فيها أطفالاً لا نفهم من الدنيا شيئاً، سوى اللهو والمتعة، أرجوك أن تعذرني عن ما بدر مني رغم كل السنوات التي مضت.

- نعم، كان لا يشغلكم سوى اللهو والمتعة، ولكن كيف؟... أنا أجيبك، اللهو بإحساس الآخر والمتعة بالضحك عليه، أليس كذلك؟ أنتم يا أبناء المدن، لا تعرفون الأخلاق، لم يسبق لكم أن تربيتم على احترام الآخر، كان الفلاح سلوتكم الوحيدة، تتسلون به وتنصبون له المكائد، لسبب واحد فقط، أن تضحكوا. الضحك والضحك فقط هو ما كان يشغلكم، ولكنكم كنتم تنسون دائماً، أن الفلاح ينتمي إلى عشيرة وأرض وسماء. تتغافلون عن أن الفلاح تربى على الأخلاق واحترام القيم...

صَمَتَ قليلاً ثم أضاف:

- بالمناسبة أنت محظوظ جداً لأنني لم أحظَ بك من قبل، أقصد قبل أن تغادر العراق كأي جبان يترك بلده ليرتمي بأحضان الأجنبي، لقد كنت حينها مشغولاً بالسلك الدبلوماسي، والحقيقة أقولها لك، هو أني لم أكن أكترث لك ولا للآخرين من أمثالك كثيراً، لقد كنتم بالنسبة لي مشروعاً مؤجلاً، والآن حان وقتكم...

أخذ جسد علاء يرتعد، وراح العرق يتصبب من جبهته، حاول أن يقول شيئاً، ولكن كف حميد التي ارتفعت أسكتته، لقد أشار له بالسكوت واستمر في كلامه:

- عليك أن تعرف بأن الذي يجلس أمامك هو العقيد حميد هلال، عقيد المخابرات الذي تأتمر بإمرته فصائل كثيرة من الوطنيين

الشرفاء، وعليك أن تتأكد بأنني لم ولن أخون وطني، كما فعلتَ أنتَ وغيرك من الخونة...

ثم صرخ بأعلى صوته منادياً على رجب، الذي سارع بفتح الباب وهو يقول " نعم سيدي " نظر إليه حميد بعينين حمراوين وقال:

- عليك أن تتصل بسلمان وتأمره بالحضور إلى هنا بأسرع وقت، مفهوم؟...

(*) في مناطق القرى والأرياف العراقية كان الأمر مختلفاً بعض الشيء، فلقد بنيت الملاجئ الكبيرة من حيث مساحتها كي تستخدم كمخازن مؤقتة لخزن المحاصيل الزراعية والأسلحة في آن واحد، خصوصاً تلك الأماكن التي كانت تعود إلى الأغنياء من شيوخ العشائر ومالكي الأراضي الزراعية الواسعة بعد ما عقدت الحكومة اتفاق معهم، يقوم على أساس تولي العشائر في القرى والأرياف حراسة خطوط أنابيب النفط الممتدة من جنوب العراق إلى شماله، مقابل مبلغ مالي كبير يدفع سنوياً إلى شيخ العشيرة أو المالك الشخصي للأرض الزراعية التي تمر خلالها الأنابيب، على أن يتحمل صاحب الأرض أو شيخ العشيرة كل التبعات التي ستلحق به فيما إذا تعرض الأنبوب للتخريب، كما وعليه أن يسارع بالإبلاغ عن أي حركة أو شكوك تخص سلامة الأنابيب. ونتيجة لهذا الاتفاق حصلت العشائر ومالكي الأراضي، على كميات لا بأس بها من الأسلحة بالإضافة إلى الأسلحة الشخصية التي يمتلكونها. ولم تكن تلك مهمة شيوخ العشائر ومالكي الأراضي الزراعية وأبنائهم وفلاحيهم المهمة الوحيدة، بل كانت هناك مهمة أكبر، هي تقديم المعونة و"التعاون" مع القطاعات العسكرية، من الحرس الخاص والحرس الجمهوري المكلفة بحماية بغداد - حسب خطة الحزام الأمني - والتي تكون متواجدة في مناطقهم أحياناً. فقضاء المحمودية بأريافه وضواحيه يقع ضمن منطقة الحزام الأمني لمدينة بغداد، وهذا ما دفع بالحكومة العراقية إلى تعيين أبناء تلك المناطق في مراكز مهمة مثل الحرس الخاص وأجهزة الأمن والمخابرات والاستخبارات وغيرها، بعد أن تأكدت من ولائهم لها...

(11)

يعود سبب ظهور عقيد المخابرات حميد هلال، وتواجده شبه اليومي في شوارع المحمودية وأماكنها العامة، بشكل لم يعتده أبناء المدينة، إلى حركة التنقلات التي أجريت بين منتسبي جهاز المخابرات العامة. وكان نصيب حميد هلال من هذه التنقلات، أن يتحول من الشعبة الخاصة بتنظيم الخارج، إلى شعبة مكافحة التنظيمات السياسية المعادية داخل العراق، حدث هذا أواسط عام 2001، كان حميد حينها برتبة رائد.

في تلك الفترة، كان حميد يبحث عن طريقة يثبت فيها وجوده، ويُظْهر من خلالها سطوته ومكانته الوظيفية الحساسة، بين أبناء المدينة. كان يريد أن يتعرف عليه جل أبناء المدينة، كشخصية مؤثرة لها سلطتها الخاصة. في إحدى ليالي المحمودية الصيفية، وحين كان حميد مستمتعاً باحتساء الخمرة، بصحبة حليم فارس والدكتور عماد. وصل إلى مسامعه، أن هناك وكراً لبائعات الهوى في مدينة المحمودية تديره امرأة لعوب كانت موظفة في محكمة بداءة المحمودية، ثم فتحت صالون لحلاقة وتجميل السيدات، وأن الوكر في ذلك الصالون الذي يحمل اسم " صالون ساهرة للسيدات "، يضم بين ثناياه أجمل النساء وأكثرهن شهوة ومتعة. حينها وجد حميد هلال فرصته في إظهار سطوته ونفوذه في المدينة، وقرر أن يكون ذلك الوكر نقطة البداية. وفي مساء اليوم التالي أوقف سيارته المارسيدس الزرقاء أمام صالون ساهرة للحلاقة، وبقي جالساً فيها

يراقب حركة الدخول والخروج من وإلى الصالون. من داخل الصالون ومن خلال الزجاج المضلل لواجهته، لاحظت "سليمة عليوي" صاحبة الصالون، تلك السيارة الغريبة التي لم تستطيع التعرف عليها، وحين طالت فترة وقوف السيارة أمام الصالون قررت سليمة الخروج إلى سائقها واستبيان الأمر. وبالفعل خرجت وتوجهت صوب السيارة، فتحت الباب الأمامية وحشرت نفسها على الكرسي المجاور لسائقها، ثم أغلقت الباب ونظرت صوب الرجل. ابتسمت وقالت:

- مساء الخير، أنتَ تقف أمام الصالون، وأنتَ رجل غريب، وهذا الصالون مصدر رزق لي، أنا صاحبة الصالون وللبنات اللواتي يعملن داخله، ووقوفك هنا يشكل علامة غير مرغوب بها، فهل أستطيع مساعدتك؟...

نظر حميد إليها نظرة استخفاف وتعالي وقال:

- لست غريباً عن هذا المكان أو هذه المدينة، فهذه المدينة هي مسقط رأسي وبها تعلمت وفيها بيتي وأهلي، ولكن معك حق، فعملي في السلك الدبلوماسي كان يحتم عليَّ أن أبقى خارج العراق لفترة طويلة، ولكني عدت الآن.

- إذاً فأنت من الأحبة!...

قالت سليمة، فبادرها حميد بكلام شديد اللهجة:

- كيف أكون من الأحبة، وأنا مكلف بتفتيش الصالون؟ لدينا معلومات تقول بأنك تستخدمين هذا الصالون كواجهة لتغطية عملك الرئيسي، الدعارة،...

على الفور قالت سليمة متظاهرة بالصدمة المفاجئة جراء ما سمعته:

- دعارة؟ أعوذ بالله، هذا المكان رمز للعفة والشرف، فالنساء اللواتي يدخلن هذا المكان من أشرف العائلات، وهن زوجات وأمهات وبنات أحسن الناس...

وراحت تعدد له أسماء الضباط والرفاق الحزبيين الذين تعرفهم كي يفهم الإشارة، على أنها تستند إلى قائمة لا يستهان بها من رجال الدولة ثم أضافت:

- تستطيع أن تدخل المحل وترى بعينك، ولكن عليك أن تصدق حين تكون في الداخل، بأنك أول رجل يدخل المكان...

ثم استدركت:

- سوف أعود إلى الصالون، وبعد خمس دقائق بالضبط، تستطيع أن تدخل وترى بعينك...

نظرت في عينيه وقالت بقليل من الميوعة والدلال:

- هل فهمت ما قلته لك؟

ابتسم الرجل وهز رأسه بالموافقة.

حين دخل حميد هلال صالون ساهرة للحلاقة، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً بخمس عشرة دقيقة. أخذ ينظر إلى المكان بتغافل مقصود عن النظر إلى الفتيات المتواجدات داخله، كانت هناك أربعة كراسي للحلاقة وأمام كل كرسي مرآة كبيرة، والكراسي يشغلن أحد أضلاع المكان بشكل كامل، وخلف الكراسي توجد مغسلة لغسل الشعر وضع أمامها كرسي للغرض

نفسه. وإلى جانبها ثلاث مجففات عمودية لتجفيف الشعر. خرجت سليمة من باب صغير يتوسط الضلع المواجه لزجاج النافذة الكبيرة التي تطل على موقف السيارات، رحبت بالرجل ودعته لتفحص المكان، ثم قالت للفتيات الأربع اللواتي يتواجدن داخل صالة المحل، بأن الرجل تابع لمديرية الصحة العامة وهو في مهمة ليتفقد المكان ويتأكد من نظافته، انطلقت ضحكة ماجنة من إحداهن وقالت:

- في الليل؟ تفتيش في الليل؟ إنها تحدث للمرة الأولى!

وحين سماع سليمة ما قالته الفتاة، صرخت بوجهها وطلبت منها السكوت والتزام الأدب، عندها طلب حميد من سليمة أن تهدئ من روعها بعد أن منح الحق للفتاة وتحجج بكثرة المشاغل وقلة الوقت، وأن الظروف الصعبة هي من حتمت عليه أن يزور المكان في مثل هذا الوقت، ثم استدار إلى الخلف حيث صف كراسي الانتظار الخاصة بالزبائن ليقع نظره على فتاة رائعة الجمال. تسمَّر أمامها وهو ينظر إلى وجهها، كانت الفتاة في العشرين من عمرها، سمراء واسعة العينين، فاحمة الشعر، اقترب منها ولم يتمالك نفسه فسألها عن اسمها.

- افتخار.

أجابت الفتاة بقليل من الحياء.

- هل تعملين هنا يا افتخار؟

- لا، أنا هنا في محل خالتي سليمة.

أشارت الفتاة بيدها صوب خالتها، فابتسم حميد وهو ينظر إلى سليمة وقال:

- إذاً أنتِ سليمة؟!

أشارت المرأة بالإيجاب ثم قال حميد:

- أعتقد أن الوقت غير مناسب للزيارة، سوف أخرج الآن وأعود في وقت آخر، ربما غداً أو بعد غد، ولكن هل تمانعين في مرافقتي إلى السيارة؟ فهناك شيء مهم أريد أن أقوله.

حين استقر حميد هلال خلف المقود وأخذت سليمة مكانها إلى جانبه، قال حميد وبدون أي تردد:

- اسمعي! سوف أتكلم معكِ بصراحة، تلك الفتاة التي تدعي بأنها ابنة أختك قد سلبت عقلي، وأنا أريدها، فماذا تقولين؟...

بانت معالم الدهشة على ملامح سليمة ثم قالت مبتسمة:

- الفتاة لاتزال صغيرة، وهي عذراء، ولا يمكنني أن ألبي طلبك، أنتَ تفهمني أليس كذلك؟

- لا مشكلة في الأمر، إذا كانت فعلاً فتاة، أقصد عذراء، فيمكنني أن أتزوجها على سنة الله ورسوله، وسيكون لكِ مبلغاً محترماً إذا أتممتِ الصفقة.

ضحكت سليمة وبانت بشائر الفرح على ملامحها، ثم قالت:

- إذا كان الأمر بهذه الصورة، أعدك بأني سأبذل قصارى جهدي... ولكن امنحني بعض الوقت، وسوف أسمعك ما يفرحك.

- يوم واحد فقط!...

قال حميد وكانت نبرة الحزم واضحة في كلامه وأضاف:

- البنت كما فهمت منكِ، هي ابنة أختك، يعني تعيش معك

في بيت واحد، وهذا يسهل الأمر كثيراً، يمكنك أن تكلميها الليلة، وسوف أكون غداً في مثل هذا الوقت هنا، في هذا المكان، وسوف أسمع منك خبراً يفرحنا جميعاً...

❖

تزوج حميد هلال من افتخار عبد الباقي، بعد أن عقد اتفاقاً معها وسليمة[1] كونها المسؤولة المباشرة عنها، على أن يكون الزواج سرياً، وألا تنجب افتخار أو تطالب بحقها في الإنجاب، وألا تخرج من البيت نهائياً إلا معه، وبالمقابل اشترى حميد بيتاً لزوجته الجديدة في منطقة البياع، ووظف صبية في العاشرة من عمرها داخل المنزل جلبها من الريف، لتكون مديرة المنزل ولتأخذ على عاتقها قضاء كل مستلزمات البيت، ولتكون العين الأمينة على زوجته. هكذا اتفق حميد مع الصبية "شهلة"، وهددها بالقتل إذا تآمرت عليه أو أخفت عليه أية معلومة.

وما هي إلّا ستة أشهر حتى حصل رائد المخابرات حميد هلال على ترقية جعلت منه مقدماً، ليصبح السيد المقدم. عندها وفي اليوم الذي استلم فيه كتاب الترقية، جاء إلى بيته حيث زوجته الشابة السمراء ليحتضنها ويقبلها بفرح غامر وهو يقول:

- لقد وجدتُ كل الخير عندما تعرفت عليكِ، أنتِ وجه الخير والسعادة، اطلبي ما تشائين، أريد أن أحتفل معك في هذه المناسبة، فاليوم حصلت على ترقية لم تكن في الحسبان، لقد أصبحت مقدماً، وبعد عام واحد سأكون عقيداً، كون هذه الترقية لا

---

(1) انظر سيرة (4)، سليمة عليوي، كاتبة الطابعة في محكمة بداءة المحمودية، ص338.

تؤثر على سير الترقيات الاعتيادية، صدقيني، هكذا يقول القرار...

أخرج ورقة من جيبه وهو يقول:

- خذي، اقرئي...

نظرت افتخار في الورقة وهي تبتسم وتبارك له، فالفرحة التي ارتسمت على محيا زوجها كانت مفاجئة لها، فهذا الرجل الذي تزوجته منذ ستة أشهر نادراً ما يعرف الفرح أو الابتسامة، وغالباً ما يصدر أوامره الصارمة، ولا يعرف سوى التهديد بالقتل، وأبسط عقوبة لديه هي حبس المخالف لتعليماته في الحمام لمدة يوم أو يومين، وكثيراً ما عانت شهلة الصغيرة من تلك العقوبة الظالمة.

◆

الصبية شهلة ذات العشرة أعوام، كانت تسكن وعائلتها كوخاً مشيداً من القصب، ينتمي إلى أكواخ أو " بيوت " مناطق الأهوار في جنوب العراق. في ذلك الكوخ وِلِدَتْ، وكان لولادتها وقع خاص بين أفراد عائلتها، فهي البنت الأولى التي تولد لتلك العائلة الصغيرة التي أصبحت بولادة شهلة مكونة من خمسة أشخاص، زوج وزوجة وولدين وبنت حديثة الولادة، كان الولد الأكبر " صادق " يكبر أخته الصغرى بسبعة أعوام، وأخوه الأصغر يصغره بعامين، نزحت تلك العائلة إلى بغداد قادمة من مناطق الأهوار بعد تجفيفها بقرار من رئيس الجمهورية، واستقر بهم الحال إلى العمل كفلاحين مستأجرين لدى الحاج هلال في ناحية اللطيفية، وكان عملهم يشمل على كل ما يأمرهم به الحاج هلال وأولاده وبناته وزوجاته. الزراعة والرعي والخبز والطبخ وغيرها الكثير، مقابل أجور بسيطة. أخذ حميد الصبية شهلة لتعمل في بيت زوجته

الجديدة، دون علم زوجته الأولى، بنت عمه التي أنجبت له ثمانية أطفال. لقد اتفق حميد مع والد شهلة ووالدتها على أن يصطحبها معه إلى العاصمة كي تعمل مربية أطفال لدى إحدى العائلات المرموقة، ووعدهم بأن يأتي بها لزيارتهم بين الحين والآخر، والحقيقة أن قرار حميد في انتزاع الطفلة من بين أفراد أسرتها، كان قراراً لا يستطيع أحد أن يرده أو يقف ضده، وما وراء موافقة العائلة النازحة من أهوار العراق على ابتعاد ابنتهم الوحيدة عنهم سوى معرفتهم المسبقة بكم الإجرام والسطوة والجبروت التي يتمتع بها هذا الرجل. ولكن، وعلى ما يبدو، فإن الله قد كتب لتلك الطفلة المسكينة حياة جديدة. فلقد حظيت بالحنان والرعاية من قبل سيدة المنزل افتخار عبد الباقي، التي صارت أماً حنونة لتلك الطفلة.

كانت افتخار ترى في وجه شهلة، صورة لطفولتها البائسة ومعاناتها التي استمرت طويلاً. فلم يسبق لافتخار التعرف على والدها أو والدتها. كانت لا تعرف سوى تلك المرأة - الحاجة زكية، خالة سليمة عليوي - التي تعهدت بتربيتها منذ الأيام الأولى لولادتها. وبعد وفاة الحاجة زكية التي كانت تسكن مدينة العمارة، تعهدت سليمة بالاعتناء بافتخار نزولاً لرغبة الحاجة زكية ووصيتها قبل أن تفارق الحياة. وصارت افتخار تعيش مع سليمة "خالتها الجديدة" في مدينة المحمودية، حيث لم يمضِ سوى ثلاثة شهور على بقائها مع سليمة حتى تزوجت حميد هلال وسكنت منطقة البياع.

(12)

حين أمر العقيد حميد بالاتصال بسلمان وحضوره، غادر الغرفة تاركاً علاء وحيداً بين جدرانها وفراشها الإسفنجي، لم يقل له شيئاً، اكتفى بالنظر صوبه وأطال النظر دون أن يرمش له جفن، ثم استدار وغاب خلف الباب. حينها سمع الرجل الذي بقي جالساً، صوت المفتاح وهو يدار محتكاً بالقفل، وبعد انتظار قصير، راح علاء يتفحص شبابيك الغرفة، عسى أن يجد منفذاً، ولكنه عاد خائباً وجلس ينتظر ما هو قادم.

لم يدرِ كم مضى عليه من الوقت وحيداً، فلقد أفاق من نومه حين أيقظه صوت المفتاح وصرير الباب وهو يفتح، ليظهر حميد هلال داخلاً. ظهرت ملامح الامتعاض على وجه حميد بعد أن تبين أن رهينته كان نائماً، فما كان من تركه وحيداً، سوى لممارسة التعذيب النفسي الذي تربى وتعود عليه، ولكنه حين جلس قبالة رهينته، تغيرت لهجته بشكل كامل عما كانت عليه قبل ساعات، وراح يتحدث معه بود. راح يسأله عن أوربا التي زار العديد من بلدانها، وراح يشرح وجهة نظره في أنواع الخمور وحياة الترف والمتعة وكيف كان يضاجع النساء الأوربيات. فالعقيد حميد كان يعمل في السلك الدبلوماسي، وتنقل بين أغلب العواصم الأوربية، نتيجة لمهمته المحددة بتشكيل وإدارة بعض خلايا منظمة سياسية سرية، أغلب أعضائها من العراقيين وبعض العرب المقيمين في أوربا، الذين يمتلكون ولاءً كبيراً لحكومة العراق، أطلق على ذلك

التنظيم تسمية (منظمة المغتربين العراقيين في أوربا) وكانت المهمة الأساسية لهذه المنظمة التي يشرف عليها من جنيف برزان إبراهيم الحسن الأخ غير الشقيق لرئيس الجمهورية، تنحصر في رصد تحركات العراقيين ممن يعارضون نظام الحكم العراقي، وكذلك إظهار وجه مزيف للحقيقة، أمام الشعب العراقي من خلال المؤتمرات السنوية التي يقيمونها داخل العراق، كوفود عراقية مغتربة، يأتون سنوياً للعراق ليقدموا ولائهم لولي نعمتهم، رئيس الدولة.

- هل تعرف يا أخ علاء؟...

قال حميد مبتسماً وأضاف:

- بأن الفتيات الدنماركيات يتمتعن بأجساد رائعة وروح دعابة عالية؟...

ثم غمزه بشكل خبيث:

- وأنت سيد العارفين بالطبع، فأنت متزوج بواحدة منهن!

- والله يا أخ حميد، أنا أعرف أن الفتاة الدنماركية تعمل بجد وإخلاص... الفتاة الدنماركية تمتلك من الإنسانية والذوق الرفيع ما لم يمتلكه الكثير في عالمنا الخاص جداً، والكثير منهن ورغم رفاهية الحياة هناك، قررن التضحية بالأمومة رغم حبهن العظيم للأطفال ورغبتهن الجامحة في أن يصبحن أمهات، من أجل أن يعطين للعمل والدراسة وفهم الحياة بالطريقة العصرية المتحضرة حقها ووقتها الكافي.

- إي نعم، وحتى إذا كان هذا صحيحاً، فإن الفتاة الدنماركية عظيمة في الفراش، تعطي الفراش حقه. تصور يا أخي وعلى الرغم

من أني لم أمارس الجنس حين كنت في الدنمارك، سوى ثلاث مرات، إلا أنني أشعر بأن المرات الثلاث تلك، كانت من أجمل الممارسات التي أتذكرها...

ظهر على علاء بعض الانزعاج فبادر بالقول دون تردد:

- وهل تتذكر كم دفعت من المال في كل مرة؟

ضحك حميد بصوت عالٍ حال سماع سؤال علاء حيث لم يلاحظ الإزعاج الذي ارتسم على ملامحه وقال:

- مبلغ تافه جداً، كنت مستعد أن أدفع أضعافه، ولكن الفتيات الدنماركيات قنوعات، يعملن حسب المقولة المصرية "الأولو شرط آخره نور"...

ثم علت ضحكته مرة أخرى وأضاف:

- الخبيثات كن يشربن الكحول بشراهة واضحة ولا يسكرن!! تصور يا أخي أن واحدة منهن شربت ثلاثة أرباع قنينة الويسكي ولم تسكر!

لم تتغير ملامح علاء وهو ينظر صوب حميد منتقلاً بنظراته بين كرشه القبيح وشفتيه المبتلتين بلعابه الذي كان يتناثر خارجاً، ثم قال في سريرته "كيف تريد من امرأة أدمنت الكحول وتعاطي المخدرات أن تسكر بتلك الكمية؟ أنت أيها المعتوه كنت تضاجع وساخة، لقد ضاجعت المدمنات وبنات الشوارع اللواتي اتخذن من الرصيف مكاناً لكسب الرزق، وقضاء الوقت وتعاطي المخدرات". ثم تبادر إلى ذهنه سؤال سرعان ما طرحه على حميد:

- ولكن كيف حصلت على الفتيات وأنت لا تعرف المكان

جيداً، أقصد أنك كنت زائراً للعاصمة ولا تعرف الأماكن بشكل جيد؟...

ابتسم حميد وقال بشيء من الفخر:

- في كل عاصمة أوربية لدينا الكثير من الأصدقاء والأحبة والرفاق...

وراح يشدد على كلمة الرفاق تلك وأضاف:

- وهم يعرفون مدنهم بشكل جيد، وحين نزورهم نكون قد أبلغناهم بموعد الزيارة مسبقاً، كي يتحضروا لاستقبالنا، وأنا شخصياً كنت لا أقوم بأي جهد يذكر، أجلس في إحدى الشقق التي يتم تجهيزها لي، ثم يقومون رفاقي بتقديم كل ما لذ وطاب. تصور يا أخي، في آخر مرة كنت هناك، ذهب أحد الأصدقاء إلى الشارع وبعد نصف ساعة فقط حضر ومعه خمس نساء جميلات، وكنا ثلاثة رجال فقط، وقد احترت بالاختيار فيما بينهن، هل تعرف ماذا فعلت؟ ربما لم تصدقني، أمرت الرفيقين بنقل السرير من غرفة النوم إلى الصالة، فامتثلا لأمري، وحين أصبح السرير وسط الصالة، خلعتُ جميع ملابسي، جميعها، واستلقيتُ وسط السرير ودعيتُ الفتيات الخمس للعبث بجسدي، صدقني لا أدري كم مرة مارست الجنس في تلك الليلة، كنت سلطاناً حقيقياً، حتى أني صرت أهزأ من شهريار، ذاك الكلب ابن الكلب الذي كان يقتل في كل ليلة فتاة بعد أن يضاجعها...

في تلك الأثناء وحين كان حميد يصور لعلاء تلك الليلة الحمراء، راح علاء يفكر بذلك المشهد المُقْرِف، وكيف أن هذا الكائن القبيح الذي يجلس أمامه قد خلع جميع ملابسه ليظهر جسده

القبيح وكرشة المليء بأموال السرقات والرشاوي، وراح يسأل نفسه عن المبلغ الذي دفعه لبائعات الهوى، في الوقت الذي كان سيده يخرج على شاشات التلفاز ليشتكي سوء الحالة العراقية نتيجة الحصار الذي فُرِضَ عليه - كما كان يدعي - وعلى بلاده، وبقي علاء يتصور تلك المشاهد حتى تبادر إلى ذهنه سؤال خبيث راح يطرحه على حميد بكل جرأة:

- أنت تقول بأنهم كانوا رفاقك، أقصد الأشخاص الذين استقبلوك في كوبنهاغن، هذا يعني أنهم بعثيون! فكيف هذا وهم مقيمون في الدنمارك بصفة لاجئين؟ أي أنهم حصلوا على حق اللجوء في الدنمارك كونهم معارضين لنظام صدام حسين.

ضحك حميد بصوت عال وقال:

- هل تعرف السر في قوتنا؟ أقصد السر الكامن وراء قوتنا وحريتنا في الحركة والتنقل واتخاذ القرارات الحاسمة في وقتها المناسب؟ لا تجيب، أنا من سيقول لك، ولكن قبل هذا، عليك أن تعلم أن سؤالك هذا دليل قاطع على غبائك، فلقد كان عليك وعلى غيرك ممن ينتمون إلى معارضة النظام، أن تعرفوا أن من البديهيات، قيام النظام الذي تعارضونه بزرع عيون له بينكم، لذا فقد أتت الكثير من عيوننا إلى أوربا كي يحصلوا على اللجوء السياسي أو الإنساني بحجة وقوفهم ضد نظام الحكم في بغداد، والآن أعود إلى السر الذي أشرت إليه في البداية. إن السر في حريتنا بالحركة والتغلغل بين صفوفكم، والتي كانت كثيراً ما تُمتعنا بدلاً من إثارة القلق في نفوسنا، يكمن في الغباء الفاضح الذي يتمتع به أمثالك ممن يسمون أنفسهم معارضين لنظام الحكم في العراق، فأنتم تعتبرون أنفسكم مناضلين من الدرجة الأولى، وكثيراً

ما كنتم تتحدثون عن الظلم الذي وقع بحقكم، ولكن ماذا كنتم تفعلون مقابل ذلك الظلم؟ كنتم تقيمون الحفلات وتسكرون بعد أن تلقى الخطابات السياسية الرنانة التي لا تستحق سوى الاحتقار، وكنتم أنتم، أول من يحتقر تلك الخطابات قبل غيركم، لأنكم تعرفون جيداً بأنها كلمات مكررة وشعارات زائفة لا تمت للواقع بصلة، وحين يطول وقت الخطاب، يدب في أرواحكم الملل والضجر، لأنكم أتيتم إلى الاحتفال بغرض المتعة والخروج من الكآبة وعتمة الجحور التي تعيشون فيها، هل كلامي صحيح؟

لم يجب علاء على سؤاله، بل أخذ يستمع بقليل من الذهول، فلقد صار هذا الوغد يتكلم بطريقة العالِم بخفايا الأمور. استمر حميد بكلامه فقال:

- وحين تنتهي الخطب السياسية وتبدأ الموسيقى تتقافزون على النساء كي تراقصوهن أملاً بالحصول على قليلاً من الدفء حين تلامسون أجسادهن، أما غيركم من المعارضين لنظام الحكم، والذين تحالفتم معهم بطريقة لا يعلم بها إلا الله والراسخون في العلم...

قال ذلك بطريقة ساخرة وأضاف:

- فقد كانوا يقيمون الصلاة ثم يخطبون بالحاضرين بعد أن يعزلوا النساء والأطفال عن الرجال، يتحدثون عن الرسول ومناقبه وأحاديثه ثم يتحدثون عن الصحابة وأهل البيت، ويقيمون الصلوات ويضربون صدورهم ورؤوسهم وظهورهم، يعني يجلدون أنفسهم، يعاقبون أنفسهم، وحين تنتهي كل تلك المراسيم على اختلاف مناسباتها، وعندما يحين موعد الخروج من الجامع أو المسجد، يظهر إمامهم أو سيدهم الذي كان يقدم لهم الموعظة، وقد اتخذ

وزبانيته مكاناً في وسط طريق الخروج كي يجمعوا له التبرعات، نعم تبرعات، هكذا يسمونها، أي أنه كان يشحذ المال من رفاق دربه بحجة الزكاة أو بناء مسجد أو مساعدة الفقراء، تصور، فقراء عراقيون بحاجة إلى المساعدة المالية وهم يعيشون في أوربا؟ ولكن، دعنا من كل هذا، أريد أن أسألك، وأنت العارف والمثقف والرجل الذي عاش في أوربا سنوات طوالاً، ما مدى تأثير تلك الأعمال وغيرها التي كنتم أنتم وغيركم تطلقون عليها "نضالات" ضد نظام الحكم في بغداد؟ هل كان لها أي تأثير على الحكومة العراقية؟ هل حفلاتكم ومجونكم وسكركم واللطم على الصدور والرؤوس كانت تؤثر على نظام الحكم؟...

لم يستطع علاء الإجابة. وحالما كف حميد عن الكلام وتناول إبريق الماء الذي راح يفرغه في كرشه بعد أن شعر بجفاف حلقة، نظر إلى علاء وهو ينزل الإبريق من فمه وقال:

- لماذا لا تجيب، هل فقدت لسانك؟

شعر علاء بالإهانة فلم يتوقع من ذلك المعتوه أن يكلمه بتلك الواقعية التي لم تكن غائبة عنه، فلقد كان هو أيضاً يفكر بجدية المنفى والاغتراب ليجد الطريقة الأفضل للنضال ضد نظام الحكم في العراق. ثم دفعه الشعور بالإهانة إلى التفكير في إيجاد وسيلة للخروج من الموقف، فتبادر إلى ذهنه سؤال حيث قال:

- ولكن قل لي، أنا أعرف بأنك كنت في جهاز المخابرات برتبة نائب ضابط، فأنت حسب علمي لم تكمل الدراسة الإعدادية، ولغاية عام 1986 لم أعرف بأنك دخلت الكلية العسكرية، فكيف أصبحت ضابطاً برتبة عقيد؟

نظر حميد إليه نظرة احتقار واضحة، وقال:

- سوف أجيبك على سؤالك، لأني متأكد من النتيجة التي ستصل إليها. المسألة ببساطة، هو أني تمتعت بقرار أصدرته القيادة الحكيمة وعلى لسان السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظة الله ورعاه، يجيز للعسكري في مختلف الصنوف العسكرية والذي يحمل رتبة نائب ضابط على أن تكون درجته الحزبية عضو عامل فما فوق، بالدخول إلى دورة تدريبية مدتها ستة أشهر، يتخرج بعدها برتبة ملازم أو ملازم أول، كل حسب درجته الحزبية، فأصبحت ضابطاً في جهاز المخابرات بداية العام 87، هل عرفت الآن؟ وهل لديك سؤال آخر؟...

شعر علاء بأن هذا الرجل الذي يجلس أمامه يمتلك قوة كبيرة يستند إليها، فهو يتكلم بثقة عالية وباستخفاف واضح بكل القوى السياسية التي وقفت ضد نظام سيده وولي نعمته. أطرق قليلاً ثم قال:

- لا ليس سؤال، بل رجاء، أرجوك أن تأمر بإعادة حقيبة زوجتي، فلقد تركت الحقيبة في سيارتي التي أخذها الثلاثة الذين أحضرونا إلى هنا... أرجوك...

ابتسم حميد حينما لمس الضعف في كلام علاء، وقال:

- أنتَ تأمر يا قرة العين، لك ما تريد وسوف تكون الحقيبة في أحضان زوجتك هذه الليلة، لا تقلق.

في هذه الأثناء كانت الشمس قد لامست خط الأفق واصطبغت السماء بلون الدم، وكأنها تعلن غرق البلاد بدماء الضحايا، حينها دخل سلمان إلى الغرفة. وقف عند الباب وأدى التحية العسكرية إلى

سيده الذي طلب منه الجلوس إلى جانب علاء وراح يسأله عن ثياب رجل بعينه قائلاً:

- هل لازلت تحتفظ بثياب ذلك الفلاح المسكين "أبو صادق"؟

- نعم سيدي، موجودة في كيس بلاستيكي تحت سلم الملجأ

- عظيم جداً، خذ السيد علاء إلى الملجأ وقدم له ولزوجته الطعام، وحين ينتهي من الأكل، ألبسه ملابس "أبو صادق"، كل الملابس، فهذا الرجل لم يعرف حياة الفلاحين من قبل، إنه ابن مدينة، يعني "حضري" وأريد منك أن تعلمه بعضاً من حياة الفلاحين، أريد منك أن تصنع له سريراً من التبن وفضلات الماشية التي توجد على أرض الزريبة...

نظر إلى علاء ضاحكاً وقال:

- لا تقلق الفضلات جافة، فالماشية قد ودعت الزريبة منذ قرابة الشهرين.

ثم وجه كلامه إلى سلمان قائلاً:

- هذه الليلة سوف ينام الأستاذ علاء على سرير من القش في أرض الزريبة كي يتمتع بحياة الفلاحين، وكي يعرف أيضاً لماذا كان يدب القمل في رأس الطفل حميد هلال. لأنه ببساطة كان ينام على فضلات الحيوانات ليلاً بغرض الحراسة.

- أمرك سيدي.

قال سلمان ثم نهض ساحباً علاء من ذراعه. وحين وصلا باب الغرفة صاح حميد بسلمان قائلاً:

- اسمع سلمان! أريد منك أن تعتني بالمرأة، وأن تعاملها معاملة خاصة وأن تشددوا الحراسة عليها وعلى هذا الذي في يدك، المرأة يا سلمان كنز كبير، ولا أسمح بالتفريط به بأي شكل من الأشكال، مفهوم؟

- مفهوم سيدي، أمرك.

ثم خرج من الغرفة وفي قبضته الرهينة. وحين صار الاثنان خارج سور البيت شاهد علاء كوخاً غريب البناء، لم يعتد أبناء تلك المنطقة وما يجاورها على السكن في مثل ذلك النوع من الأكواخ. سأل عن سر وجود الكوخ المصنوع من القصب في هذه المنطقة، مبيناً أن هذا النوع من البيوت لا يوجد إلّا في الأهوار جنوب العراق. أجاب سلمان، بأن ذلك الكوخ أو البيت، كان بيت "أبو صادق" وعائلته المتكونة من خمسة أفراد، ثم استدار سلمان إلى جهة اليمين وهو يقود علاء حيث باب الزريبة الحديدي ليصلا بعد ذلك إلى فتحة الملجأ...

❖

سمعت كميلة صوت خربشات وهمهمات بعيدة تأتي من الأعلى، انتبهت إلى ذلك الصوت وتسمّرت نظراتها أعلى السُلّم، وحين لاحظت قدمي زوجها، هرعت إليه راكضة وضربات قلبها تعزف لحن الخوف والقلق، انتفض توفيق الأعرج وصرخ بها أمراً بالتوقف، ظناً منه بأنها تريد الهرب، كونه لم يسمع الأصوات التي صدرت نتيجة فتح منفذ الملجأ، لقد كان ذاهباً بتفكيره بعيداً، مطلقاً لخياله الخصب الحرية في تصور بعض المغامرات بعد أن استعادت ذاكرته لحظات الاستمناء وهو يرهز خلف زاهر. لم تعر كميلة أهمية له، تسلقت درجات السّلّم واحتضنت زوجها، وهي تسأله إن كان بخير.

جلس الاثنان على أحد الأسرة بعد أن طلب علاء منها عدم التسرع في معرفة ما جرى، وأخذ سلمان مكانه قبالتهما، بينما استلقى رجب على ظهره يقلّب صفحات مجلة قديمة ناظراً في بعض صورها. وجه سلمان نظره صوب توفيق وأمره بإحضار الطعام للضيفين، دخل توفيق الغرفة التي لم يتعرف عليها علاء أو زوجته غاية الآن، ثم خرج يحمل في يده كيساً بلاستيكياً كان لون وشكل الخبز ظاهراً من خلاله، اقترب من طاولة دائرية صغيرة مركونة إلى جانب المنضدة، سحبها حيث الرهينتين، طالباً من رجب أن يجلب "صينية الأكل" من داخل الغرفة التي أطلق عليها اسم المطبخ.

وضع رجب الصينية على الطاولة الصغيرة وكانت تحتوي على دجاجة مسلوقة وسلطانية لشوربتها وصحن يحتوي على قطع من الطماطم والبصل. نظر علاء صوب الأكل، كان جائعاً جداً، ومثله كانت كميلة، كانت لديها رغبة في التهام الطعام على الرغم من تقلصات عضلات البطن التي تزعجها. نظرت صوب سلمان ثم حولت نظرها صوب علاء وابتسمت له. فهِمَ سلمان الإشارة وتذكر بعض الأوامر التي صدرت له، طلب من توفيق أن يختفي في مطبخه، وأمر رجب بالخروج معه إلى الأعلى حيث تنتظره بعض المهام.

حين أصبح الاثنان بمفردهما، اشترط علاء على كميلة، مباشرتها الأكل مقابل أن يحكي لها ما جرى من حديث مع الشخص الذي قابله. ابتسمت له وقالت بأنها ستأكل حتى لو امتنع عن الكلام، لأنها تكاد تذوب جوعاً.

في تلك الأثناء راح سلمان يصدر أوامره إلى رجب طالباً منه أن يعيد ما سيسمعه على مسامع توفيق، أخبره بوجوب نوم علاء في

الزريبة، وباشر الاثنان بتجميع القش وفضلات الحيوانات جانب الجدار الطيني الشرقي، وأمام فتحة الملجأ مباشرة، وأخبره أيضاً أن عليه أن ينام مع توفيق في المطبخ، وألا يفكرا بمضايقة المرأة، لأنهما وببساطة سيتعرضان إلى القتل من قبل السيد العقيد، خصوصاً وأن سلمان سيكون في نوبة حراسة علاء طوال الليل، وسيتخذ من فتحة الملجأ المغلقة مكاناً له.

حاول علاء أن يشرح لزوجته المخاوف والشكوك التي تولدت لديه جراء لقائه بحميد هلال، بعد أن أخبرها بمعرفته الشخصية به وتاريخ تلك المعرفة، ولكنه تذكر شيئاً مهماً، فأخبرها بطلبه إعادة حقيبتها من الخاطفين، كان علاء يتظاهر بتماسكه أمام كميلة، كان خائفاً عليها أكثر من خوفه على نفسه، قال لها:

- حين تستلمين الحقيبة حاولي أن تبعثي رسالة مكتوبة عن طريق الموبايل إلى أي شخص يخطر ببالك، أخبريه بأننا مخطوفين، ونتواجد في مزرعة في منطقة اللطيفية...

وراح يعيد عليها اسم المنطقة أكثر من مرة كي يتأكد من أنها حفظت الاسم، وأضاف:

- وإذا تسنى لك الوقت أكثر من ذلك، عليك أن تحددي الموقع، فنحن في القسم الشرقي من المنطقة، أي المنطقة المحصورة بين الشارع العام الذي يربط بغداد ببابل من جهة، والشارع الدولي الذي يربط محافظة واسط ببغداد من الجهة الأخرى، أشرح لك هذا كي تعرفي بالضبط أين نحن، وإذا كنتُ حينها بقربك، سوف أحاول أن أشاغل هؤلاء السفلة أطول وقت ممكن...

ثم سكت قليلاً وقال باهتمام بالغ:

- حميد هلال قال كلمة مهمة جداً بخصوصك إلى ذلك الشاب الذي اصطحبني...

انتبهت كميلة إلى كلام زوجها طمعاً في أن تجد المبرر الحقيقي لكل ما جرى لهما.

- قال حميد هلال إلى الشاب، عليكم الاعتناء بالمرأة لأنها كنز ثمين، فماذا كان يقصد برايك؟

اغرورقت عينا كميلة بالدموع وراح تجففها بسرعة بعدما لاحظت اضطراب علاء وتغير ملامحه، وقالت:

- ببساطة، يبدو الأمر كله منصب عليَّ، هذا إذا كان حميد يقصد ما قاله، أعتقد أن هؤلاء ينتمون إلى فصيل قطاع الطرق، فكلمة الكنز توحي بأنهم سيتقاضون مبلغ من المال، مبلغ كبير جداً مقابل إطلاق سراحي.

- هل تقصدين الفدية؟... هذا يعني بأنهم سيعلنون عن اختطافك كونك مواطنة دنماركية، ليطلبوا بعد ذلك الفدية من الحكومة الدنماركية.

- بالتأكيد... فهذا التفسير الوحيد لكلام الشخص الذي قابلته.

رمقته بنظرة مليئة بالحب ودست أصابعها بين خصلات شعره، ابتسمت وقالت:

- أقصد زميل دراستك، ولكن قل لي، هل فكرت بأنه حاقد عليك ويريد أن يلحق بك الأذى؟

- نعم، وأنا متأكد من ذلك، والدليل، هو أني سأنام ليلتي هذه

فوق، في الزريبة، بعد أن أفترش فضلات الحيوانات...

ارتعبت كميلة من كلام زوجها، فالأمر أصبح أكثر وضوحاً، الرجل الذي قابله يريد أن يضرب عصفورين بحجر، يريد أن يصب جام حقده على علاء الذي بسببه أصبح الناس يلقبونه بلقب يكرهه، والعصفور الثاني هو حصوله على مبلغ كبير من المال كفدية جراء إطلاق سراحها. هكذا كان استنتاجها. ثم أصابها الرعب حين راحت تفكر بالطريقة التي سينتقم فيها حميد من الشخص الذي يبغضه. وحاولت أن تداري رعبها كي لا يكتشفه حبيبها.

انفتحت بوابة الملجأ وهبط سلمان درجات السلم حاملاً في يده حقيبة عرفتها كميلة حال وقع نظرها عليها، ناولها سلمان الحقيبة، احتضنتها وكأنها تحتضن وليدها، لم تنظر ما بداخلها، لقد خشيت من أن ينتبه الآخرون إلى أهم شيء تفكر فيه، فربما لم يفتشوا الخاطفين حقيبتها ولم يكتشفوا التلفون المحمول، مجرد أمل، يمكنها أن تعيشه متلذذة بخيالها.

اتجه سلمان صوب السلم واستدار نصف دورة جهة اليمين حيث الفسحة الصغيرة التي تقع تحته، تناول كيساً أسود اللون، ثم أقترب من علاء وقذف الكيس بوجهه طالباً منه أن يخلع ثيابه ويرتدي ما بداخله. امتنع علاء أول الأمر، وأصبح أكثر إصراراً بعد أن شمَّ رائحة الملابس النتنة وهو يخرجها من الكيس، وتحسس قساوة القماش وكأنه لم يُغسَلْ منذ فترة طويلة، كانت الملابس عبارة عن دشداشة بنية اللون، ربما كان لونها الأصلي على عكس ما ظهرت عليه، وكوفية (يشماغ) بلونيه الأبيض والأسود وقد تحولا إلى لونين آخرين نتيجة القِدَم. رضخ علاء لأوامر سلمان بعد ما خيره بين القتل أو الامتثال للأوامر، لقد كان يعرف تماماً، بأنه غير

قادر لا جسدياً ولا عضلياً على مقاومة سلمان ورجب كونهما فتياناً بالنسبة له. خلع ملابسه ووضعها على السرير، ثم ارتدى الدشداشة وعلامات القرف واضحة على وجهه. طلب من سلمان أن يعفيه من اعتمار اليشماغ، ولكن سلمان أصر على ذلك، وأصر على أن يلفها حول رأسه، بعد أن ضحك بشكل خبيث وهو يشرح له أهميتها في منع تسرب الحشرات الضارة إلى شعره. وبينما علاء في حالته المزرية تلك كانت كميلة تذرف الدموع وتتفوه بكلمات نابية واصفة سلمان وجماعته بالخنازير السود الأغبياء.

قبل أن يصطحب سلمان رهينته إلى الأعلى حيث السرير النتن، أتم رجب وحسب الأوامر التي تلقاها من سلمان، ربط يدي علاء إلى الخلف بحبل رفيع من القنب تستخدمه العوائل الفلاحية في خياطة أكياس الخضار، وحين أصبح الثلاثة في الأعلى واقتربوا من المكان الذي أُعِدَّ قبل قليل لينام فيه الرهينة، تلقى علاء دفعة في ظهره جعلته يتكوم على كومة التبن المخلوط بفضلات الحيوانات، حينها شرع رجب بربط أقدامه بسلك كهربائي رفيع كثيراً ما استخدم سلمان أجزاء من البكرة التي تحتويه في إيصال قادح المتفجرات إلى زر التفجير في السيارات المفخخة التي كان يجهزها. وحين أتم رجب ربط قدمي الرجل، دخل إلى الملجأ ليقوم سلمان بغلق الفتحة بشكل محكم، ثم قال:

- تصبح على خير حبيبي علاوي، أرجو أن تنعم وتستأنس بضيافة حشرات الكون وهي تغزو جسدك الرقيق...

أطلق ضحكة صاخبة وأضاف ساخراً:

- سوف تنام نوماً من نوع خاص، وصدقني لو عشت في الدنمارك التي لا أعرف أين تقع، مليون سنة لن تنعم بمثل هذه النومة الخاصة.

توجه سلمان جنوب الزريبة حيث البوابة الحديدية المؤدية إلى البيت الكبير، ليعود بعد عشر دقائق وهو يحمل فراشاً إسفنجياً وقنينة عرق وأخرى تحتوي ماء، افترش الفراش الإسفنجي على فتحة الملجأ ونصب قنينتي العرق والماء على الأرض، ثم فتح صندوق بلاستيكي متوسط الحجم كان خافياً تحت الفراش الذي كان يحمله، أخرج منه قدحاً زجاجياً. ملأ نصفه عرقاً وأضاف عليه قليلاً من الماء. ارتشف الرشفة الأولى بعد أن أشعل سيجارته، وراح يغني أغنية لمطرب شعبي عراقي طالما غنى وتغزل بالغلمان، انطلق صوته وهو يغني " علاوي نور عيوني يا علاوي... سلاحه عينه وبالحسن متغاوي..." كان علاء ينظر صوبه محاولاً أن يحلل بعضاً من شخصيته، ولكن الخوف والقلق الذي كان عليه، منعه من الاسترسال بتفكيره، واكتفى بإطلاق كلمة " إجرامية " على شخصية سلمان، ثم راح يفكر بما هو متوقع حصوله في الأيام القادمة.

في تلك الأثناء كان رجب وتوفيق قد دخلا غرفة المطبخ وأغلقا عليهما الباب، مما شغل تفكير كميلة وحيرها، كيفية تحمل هذين الشخصين لجو الغرفة الخانق، وهل هناك فتحة للتهوية كالتي موجودة في المكان الذي تتواجد فيه الآن؟ أو أن هناك جهاز لتنقية الهواء! لم يستمر تفكير كميلة طويلاً في حال رجب وتوفيق، فلقد تذكرت حقيبتها وما تحتويه، فالفرصة سانحة الآن للبحث عن جهاز الهاتف المحمول، حيث لا أحد يراقبها، فتحت الحقيبة ونظرت بداخلها، وبينما كانت أصابع يدها اليمنى تساعدها في البحث، تهللت ملامحها حين عثرت على الجهاز. وضعته إلى جانبها وراحت تتأكد من بعض الأشياء. لقد اختفت الخرائط الخاصة بموقع الآثار، ولم تعثر على جواز سفرها، كذلك عدة التصوير

التي لم تكن ضمن ما تحتويه الحقيبة، والشيء الغريب أن الأوراق النقدية العراقية التي كانت تقارب المئة ألف دينار بالإضافة إلى خمس مائة دولار أمريكي كانت ضمن الأشياء التي عثرت عليها... ترى لماذا لم يتم أخذها؟... هكذا طرحت السؤال على نفسها.

أمسكت الهاتف... ضغطت على زر التشغيل... أضاء الهاتف لثوان، ثم طلب منها إدخال شريحة المعلومات، ارتعشت يدها وأصابها الهلع، فسارعت إلى فتح خلفية الهاتف لتتأكد من وجود الشريحة، كان ضوء الفانوس كافياً لتتأكد من انتزاع الشريحة من الهاتف، رفعت رأسها إلى الأعلى فحال السقف الكونكريتي دون وصول شعاع عينيها إلى السماء، أطلقت زفرة خائبة يملأها الإحباط والخوف وقالت:

– يا إلهي، لقد سرقوا شريحة المعلومات، ياإلهي ساعدني، ماذا أفعل؟...

(13)

حين كان سلمان يسكب لنفسه القدح الثاني من "العرق" المحلي الصنع، كان حميد هلال قد أفرغ نصف قنينة الويسكي في كرشه، وكانت افتخار إلى جانبه تقشر له الخيارة الحادية عشرة.

أطلق حميد ضحكة صاخبة فتطايرت شظايا الخيار الذي كان يجتره بين أسنانه، وقال إن المشهد الذي رآه على شاشة التلفزيون للتو قد ذكره بحال علاء وهو ينام على كومة الفضلات الحيوانية الآن. أطلق ضحكة أخرى وأوضح ما يدور بمخيلته، متصوراً أن الرجل يهرش جسده الآن كونه متأكداً من أن الحشرات قد غزت كامل جسده وشعره. احتقن وجه حميد بالدم نتيجة الضحك الصاخب، وشعر بدوار يسيطر على رأسه فحاول الكف عن الضحك، وقد ساعده بذلك السؤال الذي طرحته عليه زوجته والذي جعله يتكلم بشيء من الجدية والاعتزاز بالنفس، فقال بعد أن سألته عن علاء ومن يكون ذلك الرجل الذي لم تسمع به من قبل، فقال:

- هذا واحد من الكفار الساقطين أخلاقياً، قبضنا عليه وحبسناه في القرية، وقد أمرت رجالي أن يجبروه على أن ينام ليلته فوق أكوام القاذورات وفضلات الحيوان، ولكن للأسف، فضلات الحيوانات جافة، كم تمنيت أن تكون طرية حتى تكتمل الصورة التي أتمناها، حين يطلي سلمان وجه علاء وجسده بـ "سرجين" (روث) الأبقار!!

- ماذا جنى الرجل من ذنب؟

قالت افتخار.

– هذا ليس شأنكِ...

قال حميد بلهجة صارمة ما لبثت إن تغيرت لتلين بعض الشيء:

– أرجو ألا تزعجي نفسك في أمور تخص عملي، فأنت تعرفين أن عملي يتطلب مني أن أقوم بأعمال صارمة قد لا تروق لكِ، وعلى العموم يا صغيرتي، فإن ذلك الرجل، أحد الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، فهل تريدين مني ألا أعاقبه؟ عليه أن يأخذ العقاب الذي يستحقه، وما خفي كان أعظم.

سحب رأس افتخار بيده اليسرى التي كان يتكئ عليها بعد أن أفلتها من جحيم وزن جسده الثقيل، وراح يقبل فمها. وصلت رائحة الخيار الممزوجة برائحة الويسكي إلى مشم افتخار فحاولت الابتعاد بحجة أنها تريد أن تقول شيئاً، فقالت:

– أنا حزينة جداً، فلقد تصرفت مع شهلة تصرفاً قاسياً جداً نهار اليوم.

– هذا حقكِ...

قال حميد ببعض من الرضا واضاف:

– من حقكِ أن تضربيها وتشتميها، فهي خادمتك وأنتِ السيدة، ولكن حزنكِ بهذه الدرجة يوحي بأنك كنتِ قاسية فعلاً!

– لا، ليس بالقدر الذي تتصوره، لا أدري لماذا كنت منزعجة حين أتت لتسألني عن رغبتي في الاستحمام، صرختُ بوجهها وقلت لها بشكل عنيف أن تكف عن الأسئلة السخيفة، فلو كنت أريد الاستحمام لأخبرتها بتجهيز الحمام، وعندما ذهبت إلى

المطبخ بعد ذلك، وجدتها تبكي بمرارة، وقالت بأنها كانت تحسبني كأمها، ثم انفجرت بالبكاء مرة أخرى وطلبت مني أن أسمح لها بزيارة أهلها، لقد شعرت بغربتي والوحدة التي تكاد تقتلني، كل ذلك رأيته في تلك الدموع التي انهمرت من عينيها الجميلتين.

شاهد حميد اللمعان الذي ظهر في عيني افتخار فقال محاولاً تخفيف الأمر:

- لا عليكِ، الأمر بسيط جداً، أنتِ شفافة وحساسة جداً، وأعرف أنكِ تحبين شهلة وكأنها ابنتك، ولكن عليك أن تكوني أكثر لطفاً معها فهي يتيمة الأبوين وليس لها أحد غيركِ...

صُدمت افتخار من جملة حميد الأخيرة، وشعرت وكأنها لم تسمع ما وصلها من فم زوجها، وفي لحظة راح تفكيرها يشير إلى حالة السكر التي تسيطر عليه، ولكنها شعرت برغبة جامحة في أن تستوضح الأمر، فقالت بابتسامة راعشة:

- هل قلت إنها يتيمة الأبوين؟ كيف هذا وعائلتها تشتغل في أرضكم؟

- نعم، هي الآن يتيمة الأبوين، وليس لها أهل بعد اليوم، لقد مات جميع أفراد أسرتها...

صفعت افتخار خديها عند سماعا الخبر، وسألت زوجها عن الذي حدث لعائلة الطفلة المسكينة، فأجاب:

- لقد أمرت رجالي بقتل كافة أفراد عائلتها، وبالفعل تمت عملية التصفية، ودُفنتْ جميع الجثث داخل الكوخ " الصريفة " التي كانوا يعيشون بها.

- لماذا؟...

صرخت افتخار وانهمرت الدموع على خديها المحمرين من شدة الصفعة. شعر حميد بقوة الصدمة التي تعرضت لها افتخار مما زاد الدوران الذي يلف رأسه، وقال بكلمات بطيئة ومتلعثمة:

- كان وجودهم يسبب خطراً علينا. كانوا يشكلون عائقاً حقيقياً لسير أعمالنا، والحقيقة لست أنا من أصدر الأوامر بقتلهم، ولم تكن رغبتي، فالأمر صدر من الشيخ طه، طبعاً أنتِ لا تعرفينه، والحقيقة هو لم يصرح به علانية، بل شرح لي أمر تلك العائلة التي لو انتبهنا لجذورها، لوجدنا أنها من المستحيل أن تلتزم الصمت على ما ستراه من عمليات جهادية نقوم بها...

نهض حميد من مكانه وكاد يقع على ظهره لولا وجود الأريكة التي كان يتكئ عليها، والتي تهاوى عليها جالساً، ثم نهض وتوجه نحو الحمام قائلاً:

- لقد خلصناهم من معاناة الحياة وظلمها، وهم الآن بين يدي الرحمن الرحيم، أليس هذا أفضل لهم؟...

توقف واستدار نحو زوجته التي كانت تضع وجهها بين كفيها وهي تنتحب، قال محاولاً التماسك بوقفته، رفع صوته كي يتأكد من أن ما سيقوله يصل إلى مسامع زوجته:

- اسمعي افتخار!...

صرخ بالاسم وأغمض عينيه، وحين فتحهما مرة أخرى وجدها تنظر إليه، فقال:

- هنا تحت هذه الأريكة توجد حقيبة، ممنوع عليكِ وعلى

خادمتكِ الصغيرة أن تقتربوا منها أو تلمسوها. الحقيبة يجب أن تكون كما هي حتى يأتي رجب ويأخذها، ولا أدري متى سيأتي، ولكن قريباً... صمت قليلاً بعد أن أغمض عينيه وقال:

- سوف أذهب إلى الحمام ثم أنام، تصبحين على خير...

◆

أجرى حميد هلال ثلاث مكالمات هاتفية مستخدماً تلفونه النقال، وكان قبل ذلك قد تلقى مكالمة هاتفية قصيرة جداً أيقظته من نومه العميق، وأوقفت ضجيج شخيره الذي كان يسمع في كافة أرجاء المنزل. كانت نظراته أثناء حديثه التلفوني، تتوزع بين شهلة وافتخار اللتين جلستا بالقرب منه يتناولن طعام الإفطار، لاحظ دموع افتخار وهي تنهال من عينيها اللتين لم تذوقا طعم النوم منذ أن أخبرها بمقتل عائلة الطفلة المسكينة، كان وجه افتخار شاحباً جداً، وزاد من شحوبه لون العِصابة الصفراء التي كانت تربط رأسها.

شرب شايه بعد أن تناول ما أمامه من طعام، ونهض كي يغير ملابسه. والحديث الذي جرى بينه وبين الآخرين في مكالماته التلفونية الثلاث، لم يكن عصي الفهم على من يسمعه، حيث فهمت زوجته أنه على موعد مهم مع بضعة أشخاص، وقبل أن يهم بالخروج، قال وصوته يوحي بأهمية وخطورة الشيء الذي يتحدث عنه:

- الحقيبة التي تحت الأريكة، يجب ألا يمسها أحد مهما كانت الأسباب، هل فهمتم أم عليَّ واجب الإعادة؟...

أجابت افتخار بالإيجاب وذكّرته بأنه قال ذلك ليلة أمس،

وذكّرته أيضاً بأنه أمر بأن يكون رجب الشخص الوحيد المسموح له بأخذ الحقيبة.

- عظيم جداً.

قال حميد وأفلت جسده من الباب، ولم ينسَ أن يوصده بشكل جيد.

قبل أن يأخذ مكانه خلف مقود السيارة، كان يعرف بأن الوقت الذي يحتاجه للوصول إلى مكان الاجتماع لا يتعدى العشرين دقيقة، حيث منطقة اليوسفية، وبما أن الموعد قد حُدِّدَ في تمام الثانية عشر والنصف بعد الظهر، فهو يمتلك قرابة الساعتين كوقت فائض، لذا قرر زيارة أحد الأشخاص في منطقة "أبو دشير"، التي تقع في منتصف الطريق، وبالفعل، وحين تجاوزت سيارته حدود منطقة الدورة ببضعة كيلومترات، استدار نحو اليسار متوجهاً لمنطقة أبو دشير، وهناك في طرف المدينة الشرقي المجاور لبساتين النخيل التابعة لمنطقة "آل بوعيثة". ترجل حميد عن سيارته، وتوجه نحو باب حديدي كبير يؤدي إلى مرأب يكفي لإدخال شاحنة. استقبله رجل طويل القامة، يرتدي قميصاً أبيضَ شفافاً وبنطالاً رمادي اللون، وحالما وقع نظر حميد عليه ابتسم له قائلاً:

- هل لا تزال معجباً بزيّ الجامعة؟ يبدو أن هذا الزي لن يفارقك حتى في الآخرة!

ضحك الرجل ورحّب بحميد وأدخله صالة الضيوف. قدم له قدحاً من الماء ألحقه بقدح شاي. ثم جلس إلى جانبه قائلاً:

- كيف أنت يا أبا أيمن؟ والله لولا أن التكنولوجيا التي أنعم الأمريكان بها علينا حين أُدخل الهاتف المحمول، لما كنا نسمع لك صوتاً...

ابتسم حميد وقال:

- أنت تعرف المهام التي أنا عليها، والخطورة التي تلف تحركاتنا، ولو كان الأمر بيدي لوجدتني قربك يومياً، على الأقل أن نعيد أيام زمان، أيام الصيد هل تتذكر؟...

أطلق الرجل ضحكة مجلجلة وقال:

- صيد البشر أم الطيور؟...

بادله حميد الضحكات وقال:

- الاثنين معاً. ولكن قل لي، هل لا تزال تشعر بالضجر بعد إقامتك هنا في بغداد؟

- لا، الواجب الوطني أهم من كل شيء، ولكن يا سيدي، أنت تعرف أن العشرة أعوام التي قضيتها بين جنيف وروما ومدريد، لها تأثيرها، أضف إلى ذلك اشتياقي إلى عائلتي، فمنذ أن صدر لنا القرار، بوجوب التواجد داخل العراق وأنا لم ألتقِ بهم، ولكن الهاتف يرأف بحالنا أحياناً.

- وكيف هو طعم الزواج الجديد؟...

ابتسم الرجل ودنا برأسه من حميد وقال بصوت منخفض:

- بنات الكلب هدّنْ حيلي، ثلاث، أكبرهن لم تتجاوز العشرين.

- ثلاث؟...

سأل حميد بشيء من الدهشة وأضاف:

- ولكني أعرف بأن الأخوة زوجوك واحدة منهم، وعمرها لا

يتجاوز السادسة عشرة، فمن أين أتيت بالأخريات؟

- واحدة من الشمال عمرها تسعة عشر عاماً، جميلة جداً، شقراء، والثانية من الموصل في السابعة عشرة، جلبهن لي جماعتنا في تلعفر، من المخطوفات.

- وكيف الأمر معهن، هل هناك مشاكل؟

- أبداً، هن يعرفن أن الرجال في الخارج، يجوبون المزرعة، وإذا شاهدوا أي امرأة يقتلونها في الحال، وقد قاموا بقتل ثلاث نساء أمامهن، كن ينظرن من الشباك، وهذا الأسلوب حلَّ جميع المشاكل...

قال الرجل واستدرك:

- ولكن قل لي، ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟ يبدو أن الأمر مهم؟

- مهم جداً، أريد معرفة موقفكم، وما يعوزكم، وما هي طلباتكم؟ بعد قليل سأجتمع بقادة المناطق، هناك اجتماع عام لتحديد المهام، ورسم خطة لسير العمليات لما تبقى من السنة، والآن أخبرني، عليَّ الذهاب بعد نصف ساعة.

- طيب، أنا لا أملك الكثير، جميع التعليمات والأوامر التي صدرت لي من قبلكم، ومن قبل الشيخ عبد الله، خلال الشهرين الماضيين، نُفِّذَتْ بالكامل ودون أي أخطاء، لدينا سبعة سيارات مفخخة جاهزة للتنفيذ. الذخيرة والعتاد لا تنقصنا. تم صرف ربع مليون دولار، من مجموع المبلغ الموجود بحوزتنا، وهذا كل شيء...

دوَّنَ حميد جميع الملاحظات على شكل حروف ورموز في ورقة صغيرة دسها في جيبه، ثم قال سائلاً:

- هل تم إطلاق سراح الشباب الذين ألقي عليهم القبض قبل يومين في منطقة الدورة؟

- نعم، في نفس الليلة، والبركة بالعميد ناهض، فهذه مهمته.

- كان عليك اخباري في وقتها، أو على الأقل يخبرني ناهض بذلك، هل أعتبر هذا تقصير؟

- تقصير غير متعَمَّد، ولكن الحقيقة تقول، بأن ليس هناك تقصير، فلقد عرف العميد ناهض صباح هذا اليوم فقط، وقام بتبليغي الخبر في الساعة التاسعة صباحاً، يعني الخبر لا يزال ساخناً.

ابتسم حميد، ونهض للخروج كي لا يتأخر عن موعده...

❖

قبل الموعد المقرر بعشر دقائق، وصل حميد هلال إلى منطقة العدوانية إحدى مناطق مدينة اليوسفية، انحرف عن الشارع الأسفلتي، ليتخذ من الشارع الترابي المحاذي لنهر صغير، طريقاً له، وبعد دقائق قليلة، وتحت نباح الكلاب، توقف بجانب بيت فخم البناء. كان ينتشر هناك عدد من الرجال بملابسهم الفلاحية، وكانوا يخبئون أسلحتهم تحت الثياب تخوفاً من اكتشافها من قبل طائرات الهليكوبتر التي تجوب المنطقة أحياناً. دخل العقيد حميد إلى البيت بعد أن استقبله صاحبه، كان هناك خمسة رجال، يتوزعون على الأرائك التي تراصت إلى الجدران. كان واضحاً على ثلاثة منهم، انتماؤهم الديني، فاللحى والكوفيات البيضاء ثم

الدشاديش القصيرة والسراويل البيضاء، كانت كافية الدلالة، أما الثلاثة الآخرين، اثنان منهم يرتديان الزي العربي، العقال والكوفية والدشداشة، والثالث كان يرتدي القميص والبنطلون.

كان العقيد يعرف جميع من في الصالة، فهذه ليست المرة الأولى التي يلتقيهم، فرجال الدين الثلاثة هم الشيخ طه والشيخ عبد الله والشيخ أبو حمزة اليماني، والاثنان اللذان يرتديان الزي العربي هما الرفيق منصور والرفيق عبد العزيز. أما الشخص السادس، فهو صاحب الدار، العميد حسن هادي، الذي كان يقود إحدى فصائل فدائيي صدام فترة الحكم الزائل. والذي أعلن بداية وقت الاجتماع، بعد أن تأكد من تأمين المكان عن طريق الاتصال بخلايا العيون المنتشرة في المنطقة.

تنحنح الشيخ عبد الله قبل أن يبدأ بالكلام حالما خرج أحد أبناء العميد حسن من الصالة وأوصد الباب، بعد أن أتم مهمته في توزيع الماء والشاي، ثم قال:

- الموقف بشكل عام، أكثر من جيد، فرجالنا ورجال حلفائنا، أبلوا بلاءً حسناً في كل المناطق التي يتواجدون فيها، وحسب ما وصلتني من تقارير، فإن جميع تعليماتنا، قد نُفِّذتْ بشكل دقيق خلال الشهرين الماضيين...

نظر صوب حميد هلال وقال له:

- بارك الله فيك يا أبا أيمن، لقد كان تنفيذكم للعملية الأخيرة، في قتل تسعة من رجال الكفر، وأقصد رجال الشرطة المتدربين القادمين من الأردن، تنفيذاً دقيقاً وله أهمية كبيرة، فلقد أحدث صدى هز أركان نظام الخونة. ولكن قل لي، كم خلية من

خلاياك، تستطيع الاعتماد عليها بشكل واثق وأكيد؟

- الخلايا التي تحت أمرتي جميعها تمتلك هذه الصفة...

أجاب حميد هلال وأضاف:

- فالخلايا الست التي أمتلكها في اللطيفية، سبق وأن جربناها في أكثر من عملية، وهذا لا يقلل بالطبع من شأن الخلايا الثلاث التي بأمرتي هنا في اليوسفية، وخليتان وورشة التفخيخ في الدورة وأبو دشير.

- وهذا ما أشهد به أنا شخصياً، ولك في ذمتنا مئة ألف دولار، تسعون ألفاً عن التسعة الذين قتلوا من رجال الشرطة، وعشرة آلاف هدية توزعها على الخلايا التي تأتمر بإمرتك، وهناك أمر آخر، أحب أن يخبرك به أخونا الشيخ طه...

التفت إليه وطلب منه الكلام، فقال الشيخ طه:

- العقيد حميد، أحد الإخوة الذين يعتمد عليهم وقت الشدة، وهو علاوة على ذلك ابن مدينتي وزميل دراسة وصديق حميم، وأنا أريد أن أشكره باسم جميع الاخوة المجاهدين، على تعاونه العظيم معنا، فما من مرة طلبنا منه إسناداً، أو حماية، أو معلومة، إلا ونفذها ورجاله الشجعان، بدقة وعناية فائقتين. ولكن لي عتب بسيط...

انتبه حميد هلال للجملة الأخيرة التي قالها الشيخ طه. نظر الاثنان لبعضهما وابتسما ليستمر الشيخ في كلامه قائلاً:

- لقد وصل إلى مسامعنا أن إحدى خلايا أبو أيمن قامت بخطف رجل من مدينتنا وزوجته الدنماركية دون أن يتشاور معنا،

وهو يعرف جيداً أن خطف الأجانب من اختصاصنا...

راح الشيخ طه يوزع نظراته على الحاضرين وهو يسأل:

- أليس هذا هو الاتفاق الذي نحن عليه منذ بداية مرحلة الجهاد؟

هز الرجال رؤوسهم ولم ينتظر حميد حتى يكمل طه كلامه فقال:

- العملية شخصية جداً، فالرجل الذي أمرت باختطافه أعرفه منذ الدراسة الابتدائية، وأعرف ميوله الشيوعية الخطرة، ولي معه عداء شخصي، علاوة على ذلك، الاحتمال الكبير الذي قد يكشف لنا عمالته مع جهات أجنبية كونه عاش في أوربا سنوات عديدة...

قاطعه الشيخ طه وقال بنبرته الهادئة المعهودة:

- إن ما قصدته من وراء كلامي، ليس ما يخص الرجل، فأنا أعرف علاء كما تعرفه أنت، هو لك، وأنت حر فيه، ولكن زوجته أجنبية خالصة. دنماركية، يعني من اختصاصنا...

قال الشيخ طه ذلك، وهو ينظر في الأرض، وتلك عادته حين يتكلم وفي داخله ما يغضبه، وكان حميد يعرف تلك الإشارة بشكل أكيد، فبادر بالقول:

- أنت تعرف يا شيخنا الجليل أن لا فرق بيننا إطلاقاً، وأرجو أن تعتبر المرأة لكم من الآن، ولكن وكما أعرف عنكم وعن عدلكم في مثل هذه الأمور، أتمنى ألا تغفلوا الجهد الذي بذله رجالي، فقد قاموا بعمل شجاع ومهم وخطر في نفس الوقت...

هز الشيخ طه رأسه ونظر صوب الشيخ أبو حمزة اليماني، الذي

هز رأسه هو الآخر فتوجه ناظريهما صوب الشيخ عبد الله. رفع الشيخ عبد الله سبابة كفه اليمنى بشكل سريع ثم خفضها، حينها قال الشيخ طه لحميد:

- لك منا مليون، أرجو أن يرضيك، وأنا مرتاح جداً لتصرفكم الجهادي العظيم، وعدم إعلانكم عن اختطاف المرأة، يؤكد صدق ما قلته بخصوص العملية، في صباح الغد، سأكون في مكاني المعتاد، في منطقة الحصوة، يمكنك أن تبعث أي شخص لاستلام المبلغ، وأرجو أن تنتظر رسالة مني، تخبرك بمكان وزمان تسليم المرأة.

- لا أستطيع إرسال أحداً من رجالي سوى رجب، فأنتم تعرفونه جيداً، سوف أكلفه باستلام المبلغ، أما المرأة فهي بالحفظ والصون عندنا، وأرجو اعتبارها من الآن أمانة بأعناقنا...

قال حميد ذلك بينما لاحظ صمت الشيخ طه وكأنه يفكر بشيء على قدر عال من الأهمية، وحين انتهى حميد من كلامه قال الشيخ طه سائلاً:

- هل بإمكاني أن أعرّج عليكم غداً صباحاً، وأنا في طريقي إلى الحصوة حيث مكاني؟

- بكل تأكيد، وسأكون بانتظارك.

قال حميد.

- لا، ليس بالضرورة أن تكون موجوداً، فقط أعطِ التعليمات لرجالك هناك. بالمناسبة أين مكان المرأة؟

- في بيتنا، أقصد القرية، في نفس الملجأ الذي كان فيه الأجنبيان قبل أن تستلمهم بنفسك.

ابتسم الشيخ طه وكأنه تذكر شيئاً ساراً قد حدث في الماضي، ثم قال:

- على بركة الله، سأكون في صباح الغد عند رجالك.

وحين سكت الشيخ طه، بادر الشيخ عبد الله بالكلام متوجهاً إلى الرفيق عبد العزيز، فسأله:

- إلى أين وصلت جهودك يا شيخ عبد العزيز؟

أطلق لقب الشيخ على عبد العزيز بغرض الملاطفة.

- والله يا شيخ عبد الله كل الجهود باءت بالفشل، فالرجل عنيد ولا يريد التعاون، لقد أغريناه بالمال والمنصب، واستخدمنا معه التهديد كما تعرف، ولكنه عنيد. حتى أصبح يطرد أي شخص، حالما يشعر بأنه سيحدثه بأمرنا.

- يبدو أن شيخكم قرر حفر قبره بيده، ولكن قل لي يا عبد العزيز، ماذا تتوقع لو نفذنا التهديد وقتلنا الشيخ ضاري؟

- الأمر خطير، فعائلته وإخوته ومحبيه كثر، ولا أستطيع تخمين ردة فعلهم، حينما يُصدمون بفاجعة كهذه، ولكن الشيء المهم، هو أن أغلب هؤلاء من المسالمين، أقصد من الأشخاص اللذين لم يسبق لهم خوض معارك أو استخدام سلاح...

قاطعه الشيخ عبد الله قائلاً:

- لا عليك، سوف أكلف الشيخ طه، وها هو ذا يسمعني، في إصدار فتوى جديدة تحلل قتله، خصوصاً وأن كل من عرفه، يعرف تماماً علاقته بالضباط الأمريكان، والولائم التي يقيمها لهم، وعند الإشارة أريد منك أن تكلف خلية "السرّاج" لتقوم بالمهمة، فالخلية

كما تعرف أغلبهم من عشيرة الشيخ ضاري، وعندما يقومون بقتل شيخهم فإن الأمر يبقى محصوراً بينهم.

استمر الاجتماع لأكثر من أربع ساعات، تبادل المجتمعون فيه التعليمات، ووزعت المهام الجديدة على أمراء المناطق، بعد أن شرح كل واحد منهم موقفه العسكري، من حيث العدة والعتاد والمال الذي تم تصفية حساباته بين الأمراء، كل، حسب ما في ذمته للآخر، وكان الشيخ اليماني يدون في ورقة صغيرة رموز وإشارات بين الحين والآخر، وكأنه هو المسؤول عن توزيع واستلام الأموال، وقبل انتهاء الاجتماع بدقائق، قال حميد موجهاً كلامه للشيخ عبد الله الذي طلب من الحاضرين أن يقولوا ما لديهم إذا كان هناك شيء قد نسوه:

- يا شيخ عبد الله، أنت تعرف بأن رجب شاب مندفع، وقد انضم لنا عن طريقكم، فأنتم من أتى به ليجاهد معنا، وهو والله يشهد على كلامي، شاب ذو أخلاق عالية، وخدوم ومستميت في جهاده، ولكنه ومنذ أكثر من شهر، صار يلح بشكل مرير على نيل شرف الشهادة، يريد أن نكلفه بعملية استشهادية، فماذا تقول؟

- هذا الشاب طالما نال اهتمامي، وسوف أسعى له، كي يقابل ربه بوجه كريم، ناصع البياض إن شاء الله، سوف أتصل بك حين نحدد موقع العملية، ولكن هل أنتم على استعداد؟

- نعم، الحزام جاهز، لقد جهزه سلمان وبعض من رجالي، في ورشة أبو دشير- وهو رهن الإشارة.

- على بركة الله إذاً...

قال الشيخ عبد الله وأضاف:

- لم يبقَ سوى تحديد المكان، انتظر مني إشارة...

❖

كان حميد هلال صادقاً في كل كلمة قالها بخصوص رجب خضر، الشاب السوري الذي قدم من منطقة دير الزور قبل ما يقارب العام. كان عمره آنذاك تسعة عشر عاماً. وما قاله حميد هلال في ما يخص إلحاح رجب المستميت ورغبته العارمة في القيام بعملية استشهادية، كان قد حدث بالفعل، ولكن الشيء الذي لا يعرفه العقيد حميد هلال، هو الدافع الحقيقي وراء ذلك الطلب. فرجب هو الشخص الوحيد، من بين الرجال الذين يعملون بإمرة حميد هلال، الذي يعرف مكان بيت سيده. البيت الذي يضم تحت جناحيه، افتخار، الفتاة السمراء، ساحرة الجمال. وكثيراً ما كان حميد يبعث رجب، بمهام عادية حيناً، وخاصة أحياناً أخرى، إلى بيته، وقد نسي السيد العقيد أو سها، عن أن رجب في عمر افتخار تقريباً، صحيح أن افتخار تكبره بخمس سنين، ولكن يبقى الشباب في عمر متقارب.

في الزيارة الأولى التي قام بها رجب لبيت افتخار، كان بمعية السيد العقيد، الذي قدمه إلى افتخار كونه الشخص الوحيد الذي يمكنه الدخول إلى بيته بغيابه. وقعت نظرات رجب في عيني افتخار أثناء تلك الزيارة، حينها شعر بشعاع يدخل جسده فيتملك روحه، وراح يفكر بخجل واضح، كيف يكون مستقبله إذا فتحت هذه السمراء الساحرة الجالسة أمامه صدرها واستقبلته حبيباً ظافراً. انتبه حميد إلى الوضعية المنكسرة التي كان عليها الشاب، أطلق ضحكة صاخبة وراح يشرح لزوجته كيف أن رجب شاب خجول، ثم راح يعدد لها مزاياه الحميدة.

في الزيارة الثانية كانت افتخار على علم بقدوم رجب، كان عليه أن يأخذ حقيبة ظهر مصنوعة من القماش المشمع، يستخدما طلبة المدارس، إلى ورشة التفخيخ في منطقة أبو دشير، وكانت التعليمات واضحة جداً بقدر صرامتها. ألا يفتح الحقيبة، وأن يتجنب نقاط التفتيش، التي قد تكون في طريقه. حين علمت افتخار قبل قرابة الساعة من موعد قدومه، افتعلت موجة غضب شديدة، وصارت تصرخ في وجه شهلة المسكينة، التي لا تعرف سبباً لغضب سيدتها، التي صارت تهدد وتتوعد، حتى اتخذت قرارها الذي فكرت به قبل انطلاق موجة غضبها المفتعلة، بحبس شهلة في الحمام، وكانت تلك المرة الأولى التي تحذو فيها افتخار حذو زوجها في معاقبة الصغيرة، وحين رن جرس البيت، كانت شهلة حبيسة الحمام والمفتاح في صدر سيدتها، استقبلت رجب بحرارة واضحة، زادت من تلاطم الأفكار التي كانت تغزو مخيلته، وهو في طريقه إليها. وحين صار الاثنان داخل البيت وتحدثا عن الحقيبة، اقترحت افتخار على الشاب أن يشرب شيئاً، فقدمت له الشاي، كانت تريد تأخيره بأية وسيلة كانت، وكانت تعرف مقدار الرعب الذي يسيطر على رجب، جراء جبروت وسطوة زوجها، كيف لا وهي الخبيرة بزوجها وخبايا روحه منذ اليوم الأول لزواجها منه، ولكن، لابد، وأن تكون هناك طريقة، تخرجها ورجب من خوفهما المشترك. أبدت افتخار جرأة غير عادية، وراحت تسأله عن علاقاته وتجاربه مع الفتيات، وما هي إلا دقائق قليلة حتى ارتمت عليه وراحت تقبله. لم يبدِ رجب أي ممانعة، بل صار بعد القبلة الأولى أكثر جرأة من افتخار لتشهد الأريكة أول لقاء حب ندي بماء الحياة بين افتخار ورجب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي ترتقي بها روح افتخار إلى الذروة، صاعدة بشبقها إلى السماء،

منشدةً لحن اللذة والرعشة الملائكية، إنها المرة الأولى التي يطلق فيها ظهرها أنات مائه ليمتزج بماء رجب.

توالت بعد ذلك زيارات رجب إلى افتخار، ولكن لم يسبق وأن زارها دون طلب من سيده، ولهذا فإن اللقاءات التي تمت بينه وبين عشيقته كانت لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة. وفي آخر زيارة جمعتهما، اتفق الاثنان على الهرب. كانت الفكرة تلك تجول بخاطر افتخار شهوراً عدة، حتى باحت بها إلى رجب الذي تقبلها بفرح غامر، ولكن العقبة، كانت تكمن في الطفلة الصغيرة، فمن الممكن أن تكشف لزوج افتخار قصة هروبها، حينها قالت بأنها تحب الطفلة حباً شديداً وكأنها ابنتها، لذا قررت أخذها معهما لتصبح ابنتهما المشتركة، فأستقر الرأي على ذلك، وأصبح رجب يتهيأ إلى تنفيذ قرار هروبه مع عشيقته وخادمتها حيث أكمل جميع الترتيبات لذلك، وشرع بتنفيذ الخطوة الأهم في خطته، فصار يطلب بإلحاح مستمر، السماح له في القيام بعملية استشهادية...

◆

بعد خروجه من الاجتماع اتصل العقيد حميد هلال هاتفياً بسلمان داود، وأخبره بأنه لا يستطيع القدوم إلى القرية كون الوقت أصبح متأخراً، ولذا عليه التوجه إلى البيت، وأخبره بان الشيخ طه سيكون في زيارتهم صباح الغد، وقال بنبرة صارمة:

- عليكم القيام بخدمته على أتم وجه وألا تعصوا له أمراً، إلا إذا أراد أن يأخذ المرأة معه، فهذا ممنوع منعاً قاطعاً، قد تكون عقوبته قتل جميع من في الموقع!

كان تهديداً واضحاً لا يحتمل اللبس. هذا ما انتبه إليه حميد. حينها فكر تغيير الموضوع وإضفاء بعض المرح على المكالمة، فراح يسأل عن علاء وكيف قضى ليلته، وسأل إن كان سلمان قد قام بإحصاء أعداد الحشرات التي تسربت إلى جسده. ثم أطلق ضحكة عالية، ووعد سلمان ورفاقه بمكافأة مجزية، سيسلمها لهم بعد ظهر الغد. ثم طلب منه أن يعيد الكرّة مع علاء، لينام على كومة الفضلات الحيوانية ليلة أخرى.

في صباح اليوم التالي، لم يتوقع سلمان أن يقوم الشيخ طه بزيارة الملجأ في مثل تلك الساعة المبكرة من الصباح، فلقد غفا سلمان على الفراش الإسفنجي حيث فتحة الملجأ دون أن يزيل عدة السُكْر لليلة أمس. وصل الشيخ طه بعد أذان الفجر بنصف ساعة، كان بمعيته ثلاثة رجال يرتدون الزي الإسلامي الذي بات منتشراً في أرياف المنطقة منذ احتلال القوات الأمريكية لأرض العراق. الملابس كلها بيضاء من الدشداشة القصيرة والسروال والكوفية، وكان أحد الثلاثة يرتدي "صديري" بني اللون، كان رجلاً في الأربعين من عمره، يكبر الآخرَيْن بأكثر من خمسة عشر عاماً. وقف سلمان أمامهم وهو يدعك عينيه بأصابعه. بادرهم بالترحاب، وشرع يزيل فراشه عن فتحة الملجأ كي يرفع غطاءها، نظر الشيخ طه إلى قنينة "العرق"، التي كانت شبه فارغة، ورفع طرف كوفيته وتلثم بها كي يمنع رائحة الخمر الطافحة من أنفاس سلمان عن مشمه، وقال معلقاً ومبتسماً لسلمان:

- أعمالك البطولية تشفع لك حرامك هذا، ولكن، كن حريصاً على ألا يراك أحد...

ثم استدار صوب اليسار بعد ما سمع خربشات صادرة من مكان

قريب منه، شاهد رجلاً بملابس فلاحية قذرة، مضطجعاً على كومة من التبن، اقترب منه وقال:

- صبحك الله بالخير.

رد الرجل التحية فلاحظ الشيخ طه أنه مكبل اليدين والقدمين، نظر في عينيه، وأطال النظر. راحت مخيلة الشيخ طه تستحضر الملامح الطفولية للوجه الذي أمامه، وهي تجول بين مئات الوجوه من الطلبة الصغار فترة الدراسة الابتدائية، ثم زحف بذاكرته، باحثاً عن ملامح الوجه ذاته في مرحلة الصبا، وكيف كان هذا الرجل المقيد اليدين والقدمين، صديقاً لشقيقه الأصغر "علي" الذي مات بداء الكبد الفيروسي، وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم تذكر كيف أخذت أم علاء، أخاه الصغير إلى بيتها، ليبيت بين أبنائها كي تخفف عليه صدمة موت والدته. وللمرة الأولى، وبعد سنوات طوال من النسيان، شعر الشيخ طه بطعم مرارة الفقر والحرمان، وتحسس خشونة المذلة التي صارت تطلي جدران روحه من جديد.

حينذاك أخذت الدهشة تسيطر على علاء، فتسمرت نظراته هو الأخر، على ملامح الشيخ طه، فالوجه ليس غريباً عليه، توصل إلى أن تنتزع مخيلته شعيرات اللحية عن الوجه، لينكشف لها وجه دائري وعينان سوداوان، وملامح هادئة تفيض بالانكسار. ارتعشت شفتا علاء وأفلتتا كلمة تشوبها الحيرة ولا تنقصها الثقة:

- ماهر!! ألست ماهر حامد؟

أشاح الشيخ طه بوجهه، واستدار بجسده صوب سلمان. أمره برفع الغطاء الكونكريتي، مكتفياً بإشارة من يده. هبط السلم وتبعه أحد مرافقيه، بينما بقي الاثنان على السطح.

اخترق صوت علاء المسافة الفاصلة بين الرجلين، وهو يطلب قليلاً من الماء. مد سلمان يده داخل الصندوق البلاستيكي، وغرف بعض الماء في قدح الليلة المنصرمة، قرَّبه من شفتيه، فتجرع علاء شربة الماء العبقة برائحة اليانسون...

❖

- صباح الخير.

قال الشيخ طه بالإنجليزية... ردت عليه كميلة التحية الصباحية، وهي تجفف وجهها من الماء الذي علق عليه. أشار الشيخ طه بيده إلى المرأة كي تجلس على السرير القريب منها، ليتخذ من السرير المقابل مكاناً له، ثم قال:

- لن أسألكِ عن أحوالكِ، أو فيما إذا كنتِ تشعرين بالراحة أم لا...

قال ذلك بإنجليزية حظيت باهتمام خاص من قبل المرأة. راحت تمد عنقها إلى الأمام، دون دراية منها كي تكتشف المكان الذي تعلم فيه هذا الرجل النطق السليم للغة، وعلى الرغم من اللكنة الواضحة في كلام الرجل، إلا أنها تأكدت من أنه يتكلم الإنجليزية باللسان الإنجليزي، وليس الأمريكي، استمر الشيخ طه بكلامه وقال:

- أنا على ثقة تامة بأن ما تعرضتِ له، كان أمراً صعباً، ومزعجاً، ولكني حرصت على مقابلتكِ كي أضعكِ في الصورة الواقعية، والطبيعية لحالتكِ الخاصة جداً...

قاطعته المرأة قائلة:

- من المهم أن أعرف سبب وجودي هنا، وبالتالي أريد أن

أعرف من أنتم؟ وما هو هدفكم من كل هذا الرعب واللاإنسانية، التي نتعرض لها أنا وزوجي؟

ابتسم الشيخ طه وقال:

- هو زوجكِ إذاً؟...

منحها نظرة ساخرة وأضاف:

- هل أنتِ متأكدة؟... على العموم يا سيدتي، أشكركِ على أسئلتكِ هذه، لأنها قصرت المسافة واختصرت الوقت، والوقت كما تعلمين أثمن شيء نمتلكه في وقتنا هذا...

استقام في جلسته ونظر صوب الرجل، الذي يقف إلى جانب السرير حيث المرأة، وقال في هدوءٍ تام بعد أن حوَّل نظره إليها:

- أنتِ أمانة في أعناقنا، سوف نحافظ عليكِ كلما حافظتِ أنتِ على نفسكِ!

- لم أفهم!

قالت المرأة.

- أقصد، أن عليكِ أولاً أن تحافظي على نفسكِ، عن طريق الهدوء وعدم محاولة المقاومة أو الهرب، وأن تمتثلي لأوامرنا، أعتقد أن الأمر واضح الآن! هذا المكان لا يليق بكِ، سوف ننقلكِ إلى مكان آخر أكثر أماناً، وهناك ستعرفين كل شيء...

صمت الشيخ طه قليلاً وأضاف:

- هل لديك أية مطالب؟ أرجو ألا يكون من ضمنها إطلاق سراحكِ...

ابتسم وأضاف:

- في هذا الوقت على الأقل...

شعرت المرأة أنها أمام رجل ذي نفوذ وسلطة، فهذه هي المرة الأولى التي تتحدث فيها، مع شخص مسموح له الحديث عن عملية اختطافها وزوجها. حاولت أن تتماسك، كي لا تمنح صورة الضعف والهوان التي هي عليها للرجل الذي أمامها فقالت:

- أنا أشتغل في مجال الصحافة، وزوجي كذلك، والمعروف عني بين زملائي، بأني محبة للأجانب، وخصوصاً العرب منهم، فكثيراً ما قدمت لهم المساعدات، والدليل على ذلك إني متزوجة من رجل عراقي، مثلك، ألست عراقياً؟...

لم تبدر من الرجل أي إجابة، فأضافت:

- صحيح أن موقفي هذا، سبب لي بعض المشاكل بين أهلي ورؤسائي في العمل، ولكن هذا ما أؤمن به، والمعروف لديكم، بأني لم أسبب الأذى لأي شخص. وأنتم بالذات، فلو آذيتكم بشيء، لكنتم أول من يعرف، وهذا بديهي، ولكن، ورغم كل هذا، فأنا أتعرض إلى أبشع معاملة، وأعيش كما ترى، حالة مزرية، تُرى لماذا؟

صمتت بعد أن شعرت بالضعف نتيجة كلماتها الأخيرة، فأجابها الشيخ طه:

- الجهاد في سبيل الله والوطن، هو ما وضعكِ في هذا الموقف، ولسنا نحن، الاحتلال الأمريكي هو السبب الرئيس والمباشر لحالتكِ المزرية هذه... على الرغم من أني أرى، أن حالتكِ لا بأس بها، وهي ليست كما تصوريها لنا...

قاطعته المرأة وقائلة:

- لقد لاحظت في كلامكَ، أنكَ تتكلم عني وحدي، فهل نسيت أن زوجي يشاركني المأساة؟ إنه معي! فهل تفصح لي عن مغزى كلامك الذي يدور عني فقط؟

- نحن لسنا مسؤولين عن زوجكِ كما تدعين، فمن الآن أنتِ في حمايتي...

رفع أصبعه بوجهها وكرر العبارة:

- أنتِ فقط، أما زوجكِ، فهو في حماية رجل آخر، يعرفه جيداً. والسبب في هذا يعود، إلى أننا في الوقت الحاضر لا نملك الإمكانية التي توفر لكما الحماية مجتمعين، لذا جاء التدبير على أن تكوني أنت فقط ضمن نطاق حمايتي...

نهض وألقى على المرأة تحية الوداع، ثم سحب الرجل الذي كان يرافقه، وارتقى درجات السلم.

حين صار على أرض الزريبة نظر صوب علاء، ثم دنا من سلمان ليودع بعض كلمات داخل أذنيه. استدار حيث الباب الحديدي الذي دخل منه، ليختفي ومرافقيه خلفها...

(14)

لم يكن علاء كاظم مخطئاً حين أطال النظر في ملامح الشيخ طه، وأطلقت شفتاه المرتعشتان اسم "ماهر حامد" بذهول وإرباك شديدين.

فبعد أن اتفق الشيخ محمد السامرائي مع حامد الشرطي " أبو ماهر " على ضرورة مواظبة ابنه الذي كان في بداية المرحلة الدراسية الثانوية، على الحضور إلى الجامع، والمشاركة في الصلاة، وتلقي بعض المحاضرات الدينية. صار ماهر بالفعل، مواظباً على الحضور، وأظهر حرصاً شديداً على التقيد بأوقات الصلاة، وصار يتلقى المحاضرات الدينية والمساعدات المادية والمعنوية من الشيخ محمد وشيوخ آخرين كانوا يأتون إلى " جامع المحمودية الكبير " لأوقات قصيرة. وتعرف على عالم القراءة بعد أن عرف طريق الكتب غير المدرسية التي كان يحفظها عن ظهر قلب، وصار يقرأ الكتب الدينية بنهم شديد، وأكتشف أنه يمتلك قدرة هائلة على خزن المعلومات التي يتلقاها عن طريق المحاضرات أو الكتب في ذاكرته التي سرعان ما تستحضر المعلومة الصحيحة في مكانها الصحيح عند الضرورة. قرأ كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وكتب السلفية وتفسيراتهم، ورسائل ومحاضرات وفتاوى عبد العزيز ابن باز ومحمد بن صالح العثيمين وغيرهم الكثير، وكان يفرحه كثيراً وصول بعض الأعداد من نشرات ومجلات دينية كانت تصدر من جامعات ومنظمات إسلامية عراقية

وغير عراقية، وكان يعتبر الدروس والمواعظ التي يسمعها من إذاعة القرآن الكريم التي تبث من المملكة العربية السعودية وعلى وجه الخصوص برنامج " نور على الدرب " الذي كان يقدمه الشيخ عبد العزيز ابن باز، من أهم ما يقوّم روحه ونفسه في تعلم القيم الإسلامية، حتى صار ماهر حامد وزميله وصديقه عثمان مرزوق بعد فترة وجيزة لا تتعدى العامين، من أهم الشبان الذين يلقون المحاضرات الفقهية على الطلبة المبتدئين.

ثم تكثفت محاضراتهم بعد أن أفتتح المعهد الفقهي في جامع المحمودية الكبير، كان المعهد تابعاً لوزارة الأوقاف. وهو عبارة عن بناية من طابقين بنيت بمحاذاة الجامع من قبل وزارة التربية لتكون أقساماً داخلية لطلبة القرى والأرياف ممن يتلقون تعليمهم في مدارس مدينة المحمودية. لكن البناية سرعان ما أُلحقت ببناية الجامع، حيث تم إزالة الجدار الفاصل بينهما، لتكون معهداً فقهياً لطلبة العلوم الدينية والشريعة، بعد أن صارت ملكاً لوزارة الأوقاف. وكان من ضمن سياسة المعهد أن يرتدي الطالب الزي الديني الذي يتكون من دشداشة وعمامة بيضاء رفيعة الطويات، يتدلى من جزئها الخلفي بطول يزيد عن العشرين سنتيمتراً بقليل أحد أطراف القماشة التي تكونها، وكان بعضهم يرتدي الـ " صديري " أو " يلگ " كما يسمى باللهجة العراقية الدارجة. وكانت إدارة المعهد بداية الأمر حريصة على ألا يخرج الطلبة إلى الشارع بزيهم الديني.

أصبح عدد الطلاب داخل المعهد يتجاوز المئة طالب بعد سنتين من تاريخ انشائه، وصار الطلبة يخرجون إلى شوارع المدينة بزيهم الديني الخاص، وفي ذلك العام أعفى الشيخ محمد السامرائي "مدير المعهد"، ماهر حامد وعثمان مرزوق من إعطاء الدروس

الدينية كونهما أصبحا في السنة الدراسية الأخيرة من المرحلة الثانوية، مما يتطلب تفرغهما للدراسة. فالآمال كانت معلقة عليهما للحصول على أعلى الدرجات الامتحانية كي يدخلا أفضل الجامعات، وبالفعل، حصل ماهر على أعلى الدرجات ليكون الأول على طلبة ثانوية المحمودية وحصل عثمان على المرتبة الرابعة، وتم قبول ماهر حامد في كلية الطب ببغداد، بينما تم قبول عثمان مرزوق في كلية الهندسة.

لم يمضِ على انتساب ماهر حامد إلى كلية الطب سوى بضعة أشهر، حتى ضبطه رجال أمن الكلية، وهو يوزع أوراق على الطلبة. لم يكن أمن الكلية يعرف بما تحتويه الأوراق، ولكن حين تم حضوره إلى غرفة الأمن، ووضعت بقية المنشورات على مكتب ضابط الأمن، الذي راح يقرأها بتأنٍ وبصوت مسموع:

"الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه. أما بعد: فإن الحادثة النكراء والجريمة الشنعاء التي قام بها جماعة من المسلحين بعد صلاة الفجر من يوم الثلاثاء الموافق 1/ 1/ من عام 1400 هجرية، باقتحامهم المسجد الحرام وإطلاقهم النار بين الطائفين والقائمين والركع السجود في بيت الله الحرام أقدس بقعة وآمنها، قد قضت مضاجع العالم الإسلامي وألهبت مشاعره وقابلها بالاستنكار الشديد، وما ذاك إلا لأنها عدوان على البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وانتهاك لحرمته وحرمات البلد الأمين والشهر الحرام، وترويع للمسلمين، وإشعال لنار الفتنة، وخروج على ولي أمر البلاد بغير حق".

سكت الضابط، وراح يقرأ البيان الذي يدين الحادث بصمت تام، وحين فرغ من القراءة، نظر صوب ماهر وسأله

– هل أنت سعودي؟

– كلا، أنا عراقي، والأمر لا يخص السعوديين وحدهم، فبيت الله بيت كل مسلمي الأرض.

طلب الضابط من ماهر الانتظار خارجاً. أجرى عدة اتصالات وقرأ البيان من خلال سماعة الهاتف بعد أن بعثه عن طريق جهاز الفاكس إلى جهة عليا، وبعد نصف ساعة من الانتظار، فتح الضابط باب غرفته وطلب من ماهر الدخول. وبعد أن أخذ الطالب مكانه على الكرسي، قال الضابط:

– كونكَ طالباً جديداً في الكلية، وكونك تجهل القوانين والتعليمات الخاصة بنظام أمن الجامعة، فهذا لا يعني أن تتصرف على هواك ودون استشارة أحد، لقد صدر الأمر بإعفائك من العقوبة، بشرط ألا تعاود فعلتك مرة أخرى، وإذا اقتضت الضرورة إلى توزيع بعض المنشورات، عليك أن تأخذ رأينا أولاً، هل فهمت؟

أجاب ماهر بالإيجاب وانصرف يملأه الخوف. فلقد لاحت في مخيلته صورة والده بملابسه العسكرية وهو يصرخ داخل البيت، تملكه خوف الطفولة واستحضر صورة والدته وهي تحتضنه وأخاه تحت ذراعيها.

تملكت الدهشة قلوب رفاقه حين راح يشرح لهم ما حدث في غرفة ضابط أمن الجامعة، وقال الشيخ عبد الستار مسؤول التنظيم الطلابي:

– أن التنظيم حصل على موافقة الجهات الأمنية الحكومية لتوزيع المنشور الذي يدين أحداث مكة المكرمة، وفي الحقيقة أن

السلطات الأمنية هي من اقترح علينا توزيع المنشور، ولكن، يبدو أن ضابط أمن الجامعة لم يكن على دراية في الأمر، لذا ومن المؤكد أنه أجرى اتصالاته وعرف الحقيقة ليطلق سراحك بعد ذلك.

حينها قال ماهر كلاماً يوحي باتقاد ذكائه وتمتعه بعقلية تنظيمية فذة، فقال:

- إذا كانت السلطات الأمنية هي من اقترح علينا توزيع المنشورات، فهذا يعني إنها تريد أن تعرف أكبر عدد ممكن من الإخوان كي تحددهم تحسباً للمستقبل، وإلّا كان الأحرى بهم أن يكلفوا رجالهم ووكلاءهم لتلك المهمة!

أثار كلام ماهر الكثير من علامات الاستفهام لدى إخوانه، وعلى الرغم من أنه حصل على الثناء من قبل رفاقه، إلا أن الشيخ عبد الستار حاول أن يغير اتجاه الشكوك إلى زاوية أخرى، فقال:

- لا خوف من رجال أمن السلطة، فالسلطة العليا داعمة لنا على الدوام، وما مشاركتنا في توزيع المنشورات، سوى واجب وطني جهادي نشترك فيه مع إخواننا رجال أمن السلطة.

◆

أصبح ماهر حامد من العناصر القيادية للتنظيم الإسلامي في جامعة بغداد، ثم أصبح المسؤول الأول عن التنظيم وهو في مرحلته الدراسية الرابعة، وكان يتمتع بعقلية وقدرة تنظيمية نالت إعجاب مسؤوليه، وفي نهاية العام الدراسي 84-85 وبعد استلامه شهادة التخرج، أصدرت له الأوامر بالذهاب مع حجاج بيت الله الحرام إلى المملكة العربية السعودية، وقد حصل على الموافقة الرسمية وجواز سفر على الرغم من أن قوانين الدولة تقضي بسوقه

إلى الخدمة العسكرية الإلزامية. وبالفعل سافر الطبيب ماهر حامد إلى مكة المكرمة، وهناك تحققت له أمنية طالما حلم بها، فلقد أجريت له الترتيبات لزيارة الشيخ عبد العزيز ابن باز والشيخ محمد صالح العثيمين فيما بعد، ليعود إلى بلده مزهواً مرفوع الرأس بعد أن حصل على مرتبة قيادية تؤهله اتخاذ القرارات التنظيمية دون الرجوع إلى أحد، ووجد أن الإخوان قد قاموا بفتح عيادة طبية له في منطقة الإسكندرية، قدموها هدية له بمناسبة حصوله على شهادة الطب والدرجة التنظيمية المسؤولة في نفس الوقت.

مارس ماهر حامد مهنة الطب بإخلاص كبير، واشتهر كطبيب ناجح نال رضا أغلب زبائنه، وصار وجهاً اجتماعياً مرموقاً في مدينة الإسكندرية، ومع مرور الوقت الذي لم يتخلف فيه الدكتور ماهر عن حضور صلاة الجمعة وسماع الخطبة، صار له أتباع ومريدون، وقد قام بكسب عدد لا يستهان به من شباب المنطقة والمناطق المجاورة، ثم انتقل بعيادته إلى مدينة الحلة حسب الأوامر التنظيمية للجماعة، فلقد أتم مهمته في مدينة الإسكندرية على أتم وجه. وصار يحضر كل جمعة إلى جامع الإسكندرية كونه أصبح خطيب الجامع بشكل ثابت.

لو أراد ماهر حامد أن يصبح خطيب جامع، لكان قد نال ذلك المنصب منذ زمن طويل، ولكن الصدمة الكبيرة التي تلقاها عند سماع خبر اغتيال الشيخ محمد طه السامرائي من قبل رجال أمن السلطة عام 1991، هي التي جعلته يتخذ ذلك القرار، ولو بعد حين، فلم يستطيع الخروج من صدمته ويتخذ قرار الإحلال بديلاً عن معلمه الأول، إلا بعد مرور ما يقارب العامين. صار يلقي الخطب الدينية والسياسية المؤثرة في قلوب سامعيه، وعلى وجه

الخصوص، صغار السن والشباب، وكان أتباعه يندسون بين الناس ليخبروهم بعظمة الرجل الخطيب، كيف أنه طبيب ناجح لم تبهره مهنة الطب ولم ينسَ عبادة ربه والدعوة لنصرة الإسلام والمسلمين. استمر ماهر على هذا الحال، حتى عام 98. في ذلك الحين، وفي إحدى خطب الجمعة، قال بشكل واضح وصريح:

"أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وزيارة القبور بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فالواجب على المسلمين التقيد بالشرع المطهر والحذر من البدع في زيارة القبور وغيرها. والحقيقة يا أخوة الإسلام، أن الزيارة مشروعة لقبور المسلمين جميعا سواء سموا أولياء أم لم يسموا أولياء، ولكن لا يجوز للزائر ولا لغيره دعاء الأموات أو الاستغاثة بهم أو النذر لهم أو الذبح لهم عند قبورهم أو في أي مكان يتقرب بذلك إليهم ليشفعوا له أو يشفوا مريضه أو ينصروه على عدوه، أو لغير ذلك من الحاجات، لأن هذه الأمور من العبادة، والعبادة كلها لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ وقال عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ كما أن الآيات السابقات تشمل ذلك كله وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لعن الله من ذبح لغير الله".

أما النساء فليس لهن زيارة القبور، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعن زائرات القبور والحكمة في ذلك، أن زيارتهن قد تحصل بها الفتنة لهن ولغيرهن من الرجال، وقد كانت زيارة القبور

في أول الإسلام ممنوعة حسما لمادة الشرك، فلما علا شأن الإسلام وانتشر التوحيد أذن صلى الله عليه وسلم في الزيارة للجميع ثم خص النساء بالمنع حسما لمادة الفتنة بهن".

كان صوت الخطيب يصل إلى مسامع الناس ممن تواجدوا في المقاهي والشوارع، عن طريق مكبرات الصوت الضخمة الموزعة بشكل منتظم على الجزء العلوي من منارة الجامع، وما أن وصل كلام الخطيب، الدكتور ماهر إلى مسامع الناس ممن كانوا يصغون إلى الخطبة، حتى ثارت ثائرتهم، وأصبحوا يستغفرون ربهم، ويكيلون الشتائم لذلك الكافر الذي يحرم زيارة قبور أهل البيت ويحرم تقديم النذور كرامة لهم، هكذا فهموا ما وصل إلى مسامعهم. وبعد مداولات بين الناس الغاضبين وشيوخهم وأعيان المدينة، وصل القرار إلى التحاور واستبيان الأمر من الخطيب نفسه، ولكن المشكلة تكمن في عقول الناس البسطاء الذين انتشر الخبر بينهم مع بعض الزيادات والتحريفات، وأصبحوا يتوعدون الخطيب بالضرب أو الطرد أو الاثنين معاً، ووصل حد القتل عند بعضهم. وما هي إلّا أيام قليلة حتى شاع الخبر في مدينة الحلة، وفي المناطق المجاورة لعيادة الطبيب ماهر حامد.

هجم مجموعة من الناس كان أغلبهم من الشباب على عيادة الطبيب، اكتسحوا كل شيء كان في طريقهم، خلعوا الأبواب وحطموا لوحة العيادة ليختفي اسم الطبيب المكتوب عليها إلى الأبد، دخلوا غرفة الكشف وحطموا كل شيء، ولحسن حظ الطبيب، أنه لم يكن متواجداً في عيادته، فلقد كان الوقت مبكراً لحضوره، وكان ذلك اليوم هو آخر يوم، وتلك العيادة هي آخر عيادة طبية يزاول فيها الطبيب ماهر حامد مهنة الطب، ليستقر في

مدينة الحصوة، ويصبح خطيب جامع مدينة الحصوة، ويعمد على تغيير اسمه من ماهر إلى طه، وأصبح اسمه الشيخ طه، تيمناً باسم الشيخ طه السامرائي إمام وخطيب " جامع المحمودية الكبير " ووالد الشيخ محمد طه السامرائي معلمه الأول ومرشده إلى طريق الهداية والإيمان...

(15)

بعد أن غسل وجهه ورقبته ويديه، وغرغر فمه بالماء كي يتخلص من رائحة الروث الحيواني التي علق طعمها المر في حلقه، مستخدماً برميل الماء تحت السلم. جلس علاء إلى جانب زوجته وراح يحدثها باللغة الدنماركية مستفهما حول ما دار بينها وبين الشيخ الذي عرف اسمه الجديد عن طريق سلمان. لم تجبه، نكّست رأسها وكأنها تنظر صوب حجرها ثم أجهشت ببكاء مرير استفز علاء، وراح يحتضن رأسها راجياً منها الكف عن البكاء. رفعت رأسها ونظرت صوبه بعينين غارقتين ثم قالت:

- أشعر بالانهيار، لا أستطيع الاحتمال، أن ما يجري لنا فوق طاقتي، لقد سئمت هذا المكان الذي يشبه القبر...

راح صوتها يعلو شيئاً فشيئاً مما أثار انتباه رجب الجالس قبالتها وتوفيق الذي كان في مطبخه يعد الإفطار والذي سرعان ما ظهر رأسه محمولاً على رقبة ملتوية على حافة الباب كالأفعى. استمرت كميلة بكلامها وهي تقول:

- لقد سئمت تلك الصفيحة التي نستخدمها مرحاضاً ونحن نكشف عورتنا بملء إرادتنا لهؤلاء الخنازير...

مسكت وجه علاء بكفيها ودنت بوجهها منه وقالت:

- هل تعرف، حبيبي؟ لقد تم بيعي! ذلك الخنزير الملتحي أخبرني ما يوحي على أنه اشتراني من هؤلاء. هؤلاء الخنازير قاموا

ببيعي له، قال لي بصراحة بأنه أصبح المسؤول عني، وإنه سوف ينقلني إلى مكان آخر، وحين سألته عنك قال، إنك وشأنك ليس من اختصاصه، هذا يعني أني سوف أتركك، ستكون أنتَ هنا وأكون أنا هناك ربما في جهنم، بأيدي شياطين لا يعرفون سوى القتل والاغتصاب...

حاول علاء أن يهدئ من روعها، احتضنها وطلب منها الكف عن الحديث، طلب منها أن تسمع ما سيقوله بخصوص الرجل الذي قابلته. كفتْ كميلة عن الكلام ولم تتوقف عيناها من ذرف الدموع. قال علاء:

- أنا أعرف ذلك الرجل، إنه زميل دراستي الابتدائية، وابن مدينتنا، شخصية غامضة، حاقد على كل البشر. وعلى الرغم من أني لست متأكداً من درجة إجرامه، إلا أن الظروف التي عاشها ذلك الرجل ووجوده هنا واتفاقه مع هذه العصابة خير دليل على ما أقوله.

- هل تعرف بأنه يتكلم الإنجليزية بشكل مدهش؟

- نعم، فذلك الرجل درس الطب وتخرج ومارس المهنة عدة سنوات، والطب عندنا يدرس باللغة الإنجليزية فقط...

قطع حديثهما صوت سلمان الذي أتى من الأعلى، وحين صار صاحب الصوت بمستوى النظر، ألقى التحية الصباحية عليهم، وصاح بصوت عالٍ:

- توفيق الكلب، أين الإفطار؟ نكاد نموت جوعاً.

عندها صاح توفيق من داخل الغرفة قائلاً:

- أن الكلاب تعرف بعضها، وأن الإفطار جاهز، ولكني لا أستطيع أن أحمله بيدٍ واحدة!

أومأ سلمان لرجب ليدخل ويجلب الأكل.

جلس الجميع على الأرض متحلقين حول صينية الأكل، كانت كميلة أكثرهم شعوراً بالجوع، ولكنها اكتفت بشرب قدح الشاي، فالانهيار النفسي غلق معدتها وعقد أمعاءها. وبينما علاء يحاول مضغ ما تحت أسنانه قال سلمان:

- أستاذ علاء... علاوي الوردة... عليك أن تأكل بشكل جيد، فأنت اليوم على موعد مع الأستاذ، ربما يطول وقت اللقاء، وعليك أن تقابله بملابسك هذه، فالأستاذ في شوق للمرحوم "أبو صادق"، وهذه ملابسه كما تعرف.

نظر علاء صوب كميله التي اتسعت عيناها وهي تتساءل عما يقوله هذا المعتوه الذي تفوح منه رائحة الخمر، هز رأسه إشارة إلى سلمان بأنه فهم ما قاله، ثم قال لكميلة:

- يبدو أن الأمر خطير، لقد طلبني الخنزير الأكبر لمقابلته، وقد شدد على مثولي أمامه وأنا بهيئة مذلة، يريد أن يراني مرتدياً هذه الملابس القذرة. يبدو أن الأمر في غاية الخطورة...

❖

لم يغلق سلمان فتحة الملجأ بعد أن صار علاء ورجب على أرض الزريبة، كانت يدا علاء مربوطتين إلى الخلف بسلك كهربائي، وهو يقف ناظراً صوب حميد هلال الذي اتخذ من كرسي بلاستيكي أبيض اللون مكاناً له تحت سقيفة صغيرة، تماماً إلى جانب المكان الذي قضى فيه ليلتيه السابقتين. اقترب رجب من

سيده. قبل يده وسأله فيما إذا حان الوقت لقيامه بتنفيذ العملية الجهادية التي وعده بها، فقال العقيد بصوت مسموع:

- نعم، قريباً جداً ربما غداً أو بعد غدٍ، لقد جهز لك سلمان الحزام الناسف...

ثم نظر صوب سلمان وسأله:

- أليس كذلك يا سلمان؟

أجاب سلمان بكلمة نعم سيدي، فقال حميد:

- يجب أن نحدد وندرس مكان التنفيذ بشكل جيد، وهذا كل ما ينقصنا.

ثم صوب نظراته نحو علاء، أطلق ضحكة صاخبة وقال:

- ما هذا الذي أنتَ عليه؟ لقد ذكرتني بحبيبي "أبو صادق"، إنه هناك تحت ذلك الكوخ المصنوع من القصب. كيف أنت؟... هل تشعر بالراحة معنا؟

التزم علاء الصمت مكتفياً بالنظر إليه، فأشار حميد إلى مكان قبالته، سارع سلمان على إثرها باقتياد الرهينة إلى النقطة التي أشار إليها سيده. أرغمه على الجلوس بوضع القرفصاء، وشرع بسكب ماء جردل كان بقربه على رأس علاء. سكبه بتأنٍ كي يضمن بلل أكبر مساحة ممكنة من جسده وثيابه، ثم انهال عليه بالتراب مستخدماً كرك الحراثة. في تلك الأثناء سارع رجب إلى ملء الجردل بالماء مرة أخر لتتكرر العملية ثانية وثالثة حتى أصدر حميد أمره بالتوقف. تكونت بركة من الوحل الممزوج بفضلات الحيوانات تحت علاء، وصارت تحيطه كقاعدة لتمثال طيني، حينها طلب حميد منه أن

ينبطح على الأرض ويدحرج جسده في الوحل. رفض الرجل الامتثال للأمر، ولكنه سرعان ما تمدد على الأرض الموحلة بعد أن تلقى رفسة قوية من قدم سلمان، لتستمر عمليات التعذيب بشكل متلاحق وسريع، فسلمان ورجب وأغلب من يعمل تحت إمرة حميد هلال، كانوا قد مارسوا تلك الأساليب أو مورست عليهم خلال فترات العقوبة التي كانوا يختارونها بمحض إرادتهم حين يخيرون من قبل سيدهم بينها وبين القتل، وحميد هلال ضابط المخابرات السابق، كان قد مارس تلك الأساليب ومورست عليه كذلك، في فترات التدريب أو التهذيب، أي العقوبة، أيام الخدمة الفعلية لعمله السابق. وها هو يمارس سلطته في إصدار أوامر الإذلال التي تعرض لها سابقاً على الرهينة التي بين يديه. صب غضبه وحقده كله على رهينته، الماء والوحل والتعليق والدوران والوقوف على حافة البرميل بأقدام عارية ثم السقوط على الحافة، الركلات والشتائم والتهام التراب وفضلات الحيوانات، وكانت أشد العقوبات التي أنزلت على جسد علاء إيلاماً وإذلالاً، هي عندما عَصَبَ سلمان عينا علاء بكوفية "أبو صادق" وطلب منه الركض بأقصى سرعة، كونه سيركض خلفه وفي يده سلك كهربائي غليظ، وإذا لحق به سيجلده بالسلك. امتثل علاء لينفذ ذلك الأمر القذر بعد أن تلقى ظهره عدة ضربات سلخت جلدة وسال دمه، ركض بأقصى ما يستطيع من سرعة، وما هي إلا ثوان حتى ارتطم بالجدار المقابل وسقط على قفاه وتذوق طعم الدم الذي رعف بغزارة من فمه ومنخره. تكررت طريقة التعذيب تلك مرة أخرى وثالثة تحت إمرة السياط والركلات، وحين سقط الرجل على ظهره نتيجة اصطدامه بالجدار للمرة الرابعة، دخل في إغماءة أنقذته من آلام جسده والشعور بالمذلة والاحتقار، إغماءة لم يفق منها حتى شارفت

الشمس على الاختباء خجلاً في جوف الأرض. حينها فتح علاء عينيه بصعوبة، فلقد جف الوحل على جفنيه. وجد نفسه فوق كومة التبن وفضلات الحيوانات، أو سريره الجديد الذي تعرَّفَ عليه منذ يومين، وحين تأكد من أن يديه وقدميه موثقتان وأن لا أحد غيره على أرض الزريبة، عرف أن فترة التعذيب قد انتهت. تفيء هوان قواه وأنين جسده ونام بعمق.

أمر حميد ببقاء الرهينة المحطمة نتيجة التعذيب على ما هو عليه حتى الصباح، ثم يأخذه سلمان إلى الحمام داخل الدار ليغتسل بشكل جيد ويرتدي ملابسه، ثم يقدم له إفطاراً جيداً، يسند به جسده المتهالك كي يتحمل حفلة أخرى من " التهذيب "، هكذا قال العقيد حميد هلال مطلقاً ضحكاته الصاخبة وهو يجلس خلف مقود سيارته...

◆

استقبلته زوجة محمود درديري بطلتِها البهية المعهودة، رحبت به بطريقتها التي لا تخلو من الميوعة، ثم استوقفته بعد خطوتين من دخوله البيت، لتقول بنبرة مليئة بالتوسل:

- أرجوك أستاذ حميد أن تتكلم مع محمود، فهو منهار، رفض الأكل والشرب منذ أن شاهد على التلفزيون ليلة أمس بعض من جماعته وهم يدلون باعترافاتهم، أرجوك أن تخفف عليه الصدمة.

ابتسم حميد وقال:

- لا عليك، أنا جائع، وأكيد محمود كذلك، جهزي لنا الأكل وسوف ترين كيف يلتهمه بشهية... طلباتك أوامر يا جميل أنت.

ثم غزها في جنبها مستخدماً سبابته. تراجعت إلى الوراء وأطلقت ضحكتها الماجنة.

حين دخل حميد إلى الغرفة، شاهد محمود درديري واضعاً رأسه بين كفيه. ألقى عليه التحية واستفسر منه عن الذي حدث. رفع درديري رأسه وبان احمرار عينيه وقال:

– التنظيم القومي يا أبا أيمن... التنظيم القومي في خطر.

نكس رأسه مرة أخرى ليضعه بين كفيه وهو يتأسف لما حدث. سأله حميد بنبرة آمرة صارمة، وطلب أن يحدثه بالتفصيل، فالأمر يبدو في غاية الخطورة، وحين شعر محمود بجدية كلام حميد، راح يشرح له ما حدث بالتفصيل، عندها ابتسم السيد العقيد وقال:

– الأمر مهم جداً، وهذا من حقك، ولكن عليك ألا تنسى رجالنا وأصدقاءنا في أغلب المراكز الحساسة. سوف أتصل بالعميد ناهض وأخبره بالأمر، وأنت تعرف ناهض جيداً وخبرته في مثل هذه الأمور، فطالما أعاد رفاقنا إلينا بعد إلقاء القبض عليهم...

ثم ربت على كتفه بود وقال:

– حبيبي "أبو شكري" لا تنسَ الفلوس تجلب العروس، ما دام هناك دولارات، أكبر جريمة تختفي من أصعب ملف لدى الجهات الأمنية العميلة.

دخلت لواحظ زوجة محمود بصينية كبيرة تحتوي على ستة صحون مليئة بالطعام، وضعتها أمام زوجها وسيده. وحين شرع الاثنان بالأكل، أطلقت ضحكة صاخبة ألحقتها بزغرودة مصرية، ثم قالت لزوجها:

– أنا أعرف دواءك، فالوحيد الذي يستطيع أن يرد لك عقلك هو " أبو أيمن " الله يحفظه. لذلك اتصلت به...

❖

الذي كدّر صفو محمود درديري وجعله في حالته المزرية تلك، هو ما عرضته قناة الفضائية العراقية ليلة أمس، فلقد ظهر على شاشتها قائد "جيش التحرير" وهو يدلي باعترافاته إلى المشاهدين، كان ذلك الشخص هو "آدم الدوما عمر"، سوداني الجنسية، من مواليد منطقة الفاشر عام 1964. أعترف آدم بأنه قائد جيش التحرير للتنظيمين المصري والسوداني في العراق، وأنه قام بقتل العشرات من العراقيين، بحجة الجهاد في سبيل الله وطرد الأمريكان من العراق. وآدم عاش في العراق قرابة الست عشرة سنة، كان موظفاً في مديرية الآثار العراقية، ثم انتقل ليعمل في أحد مطاعم بغداد. وبعد سقوط النظام صار آدم الدوما قائد "جيش تحرير العراق".

بعد ذلك ظهر على الشاشة "محمد سمير محمد رمضان"، مصري الجنسية، من مواليد القاهرة يتحدث العراقية بشكل جيد، ثم تلاه زميله في (النضال) "ذكاء الدين عبد الفتاح سليمان"، مواليد كفر الشيخ عام 1958، يعيش في العراق منذ 24 سنة. اعترف الاثنان بأن آدم الدوما هو من قام بتنظيمهما في جيش التحرير، وإنهما قاما وبمساعدة زميلين لهما في الجهاد والمواطنة وهما "مصطفى والسيد متولي"، بذبح ستة شبان عراقيين، ذبحاً بالسكين وحسب الشريعة الإسلامية، في صالة فندق "أور" ببغداد، وقد تم استلام مبلغ ألف ومئتين دولار ثمناً لعملهما ذاك حسب التسعيرة الشرعية التي حددت مبلغ مئتين دولار على كل رأس بشري عراقي يفصل عن جثته.

كان محمود درديري يعرف الأشخاص الذين ظهروا على الشاشة معرفة جيدة، وكان يعرف أهميتهم ودورهم في التنظيم، ولكن الذي قلب كيانه وجعله يعيش الكارثة قبل وقوعها، هو الرعب الذي

تلبسه من احتمال الاعتراف عليه وكشف دوره في التنظيم، فالدرديري حلقة الوصل الرئيسية بين تنظيم جيش التحرير الذي كان اسمه التنظيم القومي قبل سقوط الحكومة، وتنظيم "جيش محمد" الذي كان اسمه التنظيم الحزبي لحزب البعث العربي الاشتراكي والذي تأسس بأمر من صدام حسين في الفترة التي تلت سقوط التمثال، أي فترة الاختفاء.

سكبت وعود العقيد حميد بعض الاطمئنان على روح الدرديري، وصار يفكر بهدوء أكثر بعد أن خفت نوبات الارتعاش البدني التي صارت تنتابه منذ أن شاهد الخبر، فلقد وعده حميد هلال بأن يقضي نهار الغد في البحث والتقصي عن كل شاردة وواردة حول هؤلاء الأشخاص، وسوف يكوّن فريق عمل بينه وبين العميد ناهض، كي تتم عملية البحث بأحسن وجه، يضمن من خلالها عدم اعتراف المقبوض عليهم على أي شخص داخل وخارج التنظيم، وزاد من اطمئنان الدرديري، المكالمات الهاتفية التي أجراها حميد هلال مع بعض الأشخاص، كان العميد ناهض أولهم...

(16)

خرج كعادته التي لم تتغير منذ قرابة نصف القرن، كان الصبح ندياً والوقت يزحف بثوانيه نحو السادسة والنصف صباحاً، رجل نشيط في الستين من عمره، تعوَّدَ النهوض باكراً ليتوجه إلى المدينة، يشتري طعام الإفطار، مندفعاً صوب رائحة الخبز الساخن، ليعود بعد دقائق إلى بيته. يتناول إفطاره مع عائلته، ثم يخرج عند السابعة والربع، متوجهاً إلى عمله. لم يُعرَف عن الشيخ ضاري علي دليمي أي تأخير في مواعيده، بل لم يُعرَف عنه، أنه أتى موعده في وقته المحدد، كان يسبق الوقت دائماً، وديدنه هذا، بدأ معه منذ أن عرف مقعد الدراسة لأول مرة، وهو في السادسة من عمره، ليلازمه فترات الدراسة، وفي ممارسته لمهنة المحاماة، وكذلك في آخر منصب شغله، كرئيس للمجلس البلدي في قضاء المحمودية، بعد دخول القوات الأمريكية وسقوط نظام الحكم في العراق. لم يكن "ضاري المحامي" - هكذا يطلقون عليه أبناء المحمودية - راغباً في منصب رئاسة المجلس البلدي، ولكن التنافس الذي شهدته المدينة بين بعض الرموز المتنفذة على الدوام وفي كل الأزمنة، هو ما دفع وجهاء المدينة إلى اختيار شخصية أجتماعية من أبناء المدينة، تمتاز بالنزاهة والتاريخ النظيف، بالإضافة إلى الحب والاحترام المتبادلين بينها، وبين أبناء المدينة، فوقع الاختيار على المحامي ضاري علي دليمي ليشغل منصب رئاسة المجلس. وعلى الرغم من امتناعه بداية الأمر، إلا أن إصرار أبناء المدينة

ووجهائها، استطاع أن ينتزع منه الموافقة، ليشغل ذلك المنصب. وراح يعمل بكل جد وإخلاص.

وقف إلى جانب سيارته، أطلق نظره صوب أشجار النخيل حيث البستان المجاورة، ابتسم وكأنه تذكر شيئاً مضحكاً. ملأ رئتيه بهواء صباح أكتوبر المنعش، وتوجه بسيارته حيث سوق المدينة، وفي منتصف الطريق اعترضت سيارة نوع "كيا" طريقه، مما اضطره إلى التوقف جانباً. ترجل عن سيارته ليستطلع الأمر. كان رجلاً قوياً، لم يسبق لروحه أن عرفت الخوف. في الوقت نفسه، ترجل عن سيارة الكيا خمسة شبان، يحملون بنادق كلاشنكوف، كانوا يرتدون الدشاديش، وكان ثلاثة منهم ملثمين، فعرف الشيخ ضاري الإثنين الآخرين. كان أحدهم من أقربائه! نظر في عيونهم، وقرأ موته مكتوباً بأيدي البعض من أقاربه وأبناء عشيرته، التي أصبح ضاري شيخها بعد وفاة شقيقه الأكبر. وقف ينظر إليهم بعينين متسعتين من شدة الدهشة، وما هي إلا ثوان معدودات حتى فتحت المجموعة نيرانها، لتستقر ثلاثون رصاصة في جسد الشيخ المحامي، وتتهاوى قامته الفارعة على الأسفلت.

لم يكن المحامي والشيخ ضاري علي دليمي، شيخاً لعشيرة "الغرير" المتعددة الفروع فقط، بل كان رئيساً منتخباً لرابطة عشائر منطقة بغداد وضواحيها، وسبب ابتسامته التي ظهرت على ملامحه قبل دقائق من مقتله، كان ذلك اللقاء الذي شارك فيه أكثر من عشر شخصيات من شيوخ ومندوبي العشائر مساء الأمس، كي يناقشوا معه أمر الفتوى التي صدرت بحقه في صباح اليوم نفسه. كانت الفتوى الصادرة من قيادة "جيش الإسلام"، تبيح إراقة دمه. حيث تتهمه بالعمل مع المحتل الأمريكي، وأوضحت الفتوى، التي عُلّقت

تحت جنح الظلام على جدران المدينة، أن الشيخ ضاري رفض الانصياع لأوامر الله، والشريعة الإسلامية بتخليه عن منصب رئاسة المجلس البلدي، والامتناع عن التعاون مع المحتل الأمريكي، لذا فقد أُهْدِرَ دمه علناً. وكان الشيخ طه، هو من أصدر الفتوى، أو الطبيب ماهر حامد، ابن حامد الشرطي، الذي كان يشتغل في رعي مواشي الشيخ علي دليمي والد الشيخ ضاري.

❖

خرجت المحمودية في تشييع الشيخ ضاري. كانت الصدمة قاسية. بكاه الصغير والكبير. بكته النساء والأبناء، كانت الأصوات تخرج من بين المشيعين رطبة بدموع مريرة، صوت نسائي هدر... اذهب في أمان الله، سوف أبقى مدينة لك ما حييت، لن أنسى وقفتك معنا، هل أنسى أنك أنقذت ولدي من الإعدام؟ اذهب في أمان الله... امتزج صوت أم حسين مع صوت الرجل المكبِّر أما الجنازة، لقد تذكرت أم حسين كيف أن المحامي ضاري أنقذ ولدها من تهمة لُفقت له كانت ستؤدي به إلى الإعدام، كان ذلك قبل خمس عشرة سنة مضت، حين سحبت الشرطة ابنها الحدث من بين أحضانها بتهمة السرقة ليلاً، وكانت كلمة " ليلاً " هي سبب اللوعة والمرارة التي عاشتها أم حسين لشهور عدة، فلقد سبق وأن أصدر صدام حسين رئيس الجمهورية، قراراً فترة الحرب العراقية الإيرانية يعاقب فيه كل من يقوم بالسرقة ليلاً بالإعدام، بينما يكون السجن المؤبد لمن يسرق نهاراً. أصابت تلك الواقعة أم حسين المرأة الأرملة بالجنون، وراحت تبحث عن محامٍ ينقذ لها ولدها، فتوجهت أول الأمر إلى محامٍ من أبناء المدينة، كونه من عائلة تمتلك نفوذاً مؤثراً في دوائر الدولة، رفض ذلك الرجل الأبيض

البشرة المجعّد الشعر المتغطرس الشخصية، استلام أوراق الدعوة قبل أن يتسلم نصف أتعاب المحاماة مقدماً، كان المبلغ كبيراً، وكان من المستحيل عليها أن تؤمن ربعه حتى لو باعت كل ما تمتلك، جلست أمام غرفة المحامين في بناية محكمة المحمودية تندب حظها العاثر، كانت تفترش الأرض ويداها تتناوبان اللطم على فخذيها ووجنتيها، ولم تكف عن ذلك حتى وقف ضاري المحامي أمامها، رفعها من زندها بعد أن تبين الأمر. دس في يدها ورقة من فئة الخمسة دنانير وطلب منها أن تذهب إلى حسن المصوّر "أبو قاسم" الذي ترك مهنة التصوير واشتغل في كتابة الدعاوي، لتكتب توكيل رسمي له يخوله استلام الدعوة والسعي بها أمام القضاء، وما هي إلا ثلاثة أشهر حتى عاد الصبي إلى أحضان أمه.

كانت مقدمة نعش الشيخ الشهيد محمولة على كتف "حسين" الأيسر، يجاوره الكتف اليمنى لسعدي جبار، وكانت المؤخرة محمولة على أكتاف، تتناوب على حملها لتقدم الحب والاحترام للشيخ المحامي.

في اليوم نفسه، تلقت عائلة الشيخ ضاري العديد من برقيات التعزية، الصادرة من رجال الدولة والأحزاب السياسية، ونشر أحد أعرق الأحزاب السياسية العراقية تاريخاً ونضالاً، برقية نعي الشيخ على موقعه الإلكتروني، ثم الصحيفة الناطقة باسمه، وكان البيان يتضمن إشارة جاءت في سطوره الأولى، تشير إلى أن الشيخ ضاري "قضى ردحاً من السنين في السجون والمعتقلات" وتلك الإشارة لها مدلولاتها، كون أن ضاري علي دليمي يعد من المؤسسين الأوائل لاتحاد الشبيبة الديمقراطي في المحمودية، نهاية الخمسينيات، في تلك الفترة، كانت الساحة السياسية العراقية

مشحونة بالصراعات السياسية المختلفة الألوان والانتماءات، فالعراق أصبح جمهورياً لأول مرة في تاريخه، والأحزاب السياسية تتسابق لنيل رضا الحكومة الجديدة، فصار كل حزب تحت بحبوحة الحرية السياسية الجديدة، يكشف عن نشاطاته الثقافية والسياسية، بهدف توسعة قاعدته الجماهيرية. حينها تكونت النواة الأولى لاتحاد الشبيبة الديمقراطي في المحمودية من قبل ثلة من شبابها "الثوريين" - اصطلاح كان سائداً يفتخر به من يحمله آنذاك - من الموظفين وطلبة الثانويات والجامعات، ضاري علي دليمي، عبد الأمير إسماعيل، علي حسين البيرم، عبد الرزاق خطار الأعسم، مظهر علي دليمي ومهدي كاظم، أما زملاؤهم المؤسسون من الكسبة والعمال فكان من ضمنهم، جبار الأوتجي "أبو سعدي" وحميد الأوتجي وغيرهم. قامت تلك المجموعة بفتح أول مقر لهم في شارع النعمان، حيث تم تأجير دكان حديث البناء، يتوسط الجهة الجنوبية من الشارع، ليصبح ذلك المكان، شعلة من النشاط الثقافي والأدبي والفني حرك المدينة بكاملها، وأصبح مكاناً معروفاً لشباب مدينة المحمودية، يتبادلون فيه الكتب الثقافية، والمجلات القادمة من بيروت وبعض الدول العربية والأجنبية، عرفت مدينة المحمودية على أثرها موجة ثقافية هائلة. وفي عام 1959، وحين كان اتحاد الشبيبة يستعد للاحتفال بمناسبة مرور عام على قيام الثورة، تعرضت مدينة المحمودية، إلى هجوم فلاحي كاسح، هجوم غزاة انطلقوا من مناطق اللطيفية القريبة من نهر شيشبار، يحملون بأيديهم العصي والهراوات والسكاكين، هجموا على أبناء المدينة، وكان مقر الشبيبة هدفهم الأساس، وعند وصولهم على مقربة من المقر، حدث اشتباك دامٍ بين المهاجمين من الفلاحين، والمتصدين من أبناء المدينة استمر لساعات، ولم ينتهِ الاشتباك إلا حين أعلن عن مقتل

"طه السرهيد"، أحد أفراد المجموعة الفلاحية المهاجمة، على يد الشاب علي حسين بيرم، الذي فر خارج المدينة متوجهاً إلى أقارب له في مدينة أخرى.

صار ذلك المقر وأعضاؤه محط أنظار السلطة، حتى صدرت أوامرها باعتقال ناشطيهم، وأصبح رجال الشرطة والمخبرون يتحينون الفرصة للقبض على الناشطين، ولم تدم الفترة طويلاً، حتى جاءت زيارة حاكم أندونيسيا أحمد سوكارنو، الذي أراد في أحد أيام زيارته أن يزور العتبات المقدسة. وهذا يعني أن موكبه سيمر في شارع المحمودية العام، متوجهاً إلى كربلاء والنجف، فخرج أهالي المحمودية لاستقبال الرئيس الأندونيسي، تحييه وترحب به، وبعد دقائق من مرور الموكب، تم إلقاء القبض على ضاري علي دليمي، وأخيه الأكبر مظهر، وبعض الأعضاء من اتحاد الشبيبة، بتهمة محاولة اغتيال سوكارنو، وسميت القضية في المحاكم بقضية سوكارنو، وحكم على ضاري ومظهر علي دليمي بعشر سنوات سجن، وبأقل منها على الآخرين، وعلى أثرها نقل ضاري ورفاقه إلى سجن العمارة، ليقضوا محكوميتهم، وهناك تعرف ضاري ورفاقه، على أبرز المثقفين والسياسيين العراقيين، وكانت تلك إحدى مراحل السجون التي عاشها الشيخ المحامي ضاري علي دليمي...

(17)

كان الهواء الصباحي المنعش ببرودته الذي استنشقه الشيخ ضاري، قبل مقتله ببضع دقائق، قد أيقظ صاحب الجسد المتهالك المرمي على كومة التبن وروث الحيوانات. فتح علاء عينيه وحاول أن ينقلب بجسده إلى الجهة الأخرى. أطلق صرخة ألم مدوية أيقظت سلمان المخمور من نومه فزعاً، نظر صوب مصدر الصوت، ثم وقف وتقدم من كومة التبن، ابتسم وقال:

- صباح الخير أستاذ علاء، أعرف أنك نمت أجمل نومة في حياتك، لقد كنت نائماً بعمق حتى خُيِّلَ لي أنكَ فارقت الحياة.

لم ينطق الرجل بكلمة، على الرغم من فترة الصمت التي كان سلمان يتأمل فيها منظر الرجل الذي تحول إلى تمثال طيني. أطلق سلمان ضحكة بعد أن تثاءب ساحباً رائحة الروث إلى رئتيه وقال:

- عليك أن تنهض الآن! الأوامر تقول، بأن عليك الاستحمام في حمام القصر، وأن ترتدي ملابسك الشخصية، أقصد التي أتيت بها إلى هذا المكان...

أطلق ضحكة أخرى وأضاف باستخفاف واضح:

- ألست أنتَ من أتى إلى هذا المكان؟ على العموم، ترتدي ملابسك، وتتناول إفطارك وتنتظر وصول الأستاذ كي تقابله، هذا كل شيء، مفهوم؟

هز علاء رأسه وشكا من الخدر الذي تملك يديه جراء ضغط الأسلاك على رسغيه.

أغلق سلمان باب الحمام الحديدي بمزلاج رُكِّب من الخارج بعد أن صار علاء داخله، واتجه صوب الملجأ لجلب ملابس الرجل التي خلعها منذ ثلاثة أيام. وعند عودته إلى باحة البيت، سمع صيحات علاء وهو يتألم من حرقة تلهب ظهره. لقد سلخت سياط الأمس جلده وراح الماء المسال عليها يحفر فيها بعد أن أزال طبقة الطين وبعض من الدم المتخثر. تغير لون الماء المنساب على الأرض شيئاً فشيئاً حتى صار قريباً للونه المعتاد، توقف علاء عن الاغتسال بعد أن اقتنع بنظافة نسبية، وبعد أن خدَّرَ الماء البارد آلامه، حاول فتح الباب ولكن دون جدوى، حتى أعاد سلمان مزلاج الباب إلى وضعه السابق بعد أن سمع محاولات الرجل، فتح الباب ليظهر علاء أمامه عاريا تماماً، نظر إليه باستخفاف وألقى عليه قطعتي الملابس، لم تكن سوى بنطلون وقميص ارتداهما دون أن يجفف جسده ودون أن يرتدي ملابس داخلية، ظهرت خطوط حمراء على قميصه جهة الظهر وبعض النقاط مثلها متفرقة في أماكن أخرى من القميص. اقتاده حيث الملجأ، وحين فتح الباب الحديدي المؤدي إلى الزريبة، شاهد ثلاثة أشخاص يقفون إلى جانب فتحة الملجأ المغلقة، توقف سلمان قليلاً وهو يقبض على ذراع علاء، نظر إليهم، ثم تقدم نحوهم بعد أن سمع الرجل الذي كان يقف في الوسط وهو يناديه باسمه، اقترب سلمان منهم وقال:

- أهلاً وسهلاً، أهلاً عمي أبو عبد الله، أرجوك أن تسامحني، لم أتعرف عليكم أول الأمر.

كان الرجال الثلاثة يرتدون الدشاديش البيضاء، وكان أكبرهم

سناً، أبو عبد الله، رجل في الخمسين من عمره يضع على عينيه نظارة طبية ويعتمر كوفية بيضاء، بينما الشابان الآخران كانا حاسري الرأس وكان الفارق العمري بينهما وبين أبي عبد الله واضح جداً، وحين اقترب سلمان وفي قبضته زند علاء، نظر أبو عبد الله إليه وسأل سلمان عنه، فأجاب:

- هذا ضيف الأستاذ أبو أيمن، وهو في حمايتنا.

قال سلمان هذا، بينما تسمَّرت نظرات علاء على الرجل الذي أمامه، راح يتفحصه جيداً، إنه يعرفه، ملامحه ليست غريبة عليه، وحين نظر الرجل صوبه، ابتسم له، فشجعت تلك الابتسامة علاء على السؤال فقال:

- أعتقد أني أعرفك، ألست منعم حسن؟

ارتعدت فرائص الرجل واتسعت فتحتي عينيه، ثم قال:

- من أنت؟

- أنا علاء كاظم، شقيق المرحوم صابر صديقك، هل تذكره؟

لم يجب الرجل، دس يده اليمنى في جيب دشداشته الملاصق لفخذه اليمنى، وأخرج ورقة مطوية ناولها إلى سلمان قائلاً:

- عليك تسليم هذه الورقة إلى الأستاذ، وقل له إن أبا عبد الله يبلغك السلام ويرحب باتصالك به تلفونياً إذا لزم الأمر.

استدار الرجل إلى الخلف وتبعه من معه، وبعد أن صارت المسافة الفاصلة بينهم وبين سلمان ورهينته، لا تتعدى الخمسة أمتار، صرخ علاء سائلاً أبا عبد الله:

- منعم، ما هي آخر أخبار الحركة التكعيبية؟ وهل تم اكتشاف

علاقة جديدة، تربط التكعيبيين بالمفخخات وقتل الأبرياء؟

توقف أبو عبد الله دون أن يلتفت إلى الوراء، وبعد مضي ثوان معدودات، استدار أحد مرافقيه وتوجه صوب علاء، وحين اقترب منه، ركله ركلة عنيفة جاءت على خصيتيه لتسقطه أرضاً.

في داخل الملجأ، تحلّق الثلاثة حول صينية الإفطار، بينما جلس علاء يتلوى من آلام الضربة التي تلقاها قبل قليل، وكانت كميلة إلى جانبه حيث السرير. ناولته قدح الشاي قائلة بأن سخونته ستقلل الألم. كانت يد كميلة ترتعش بشكل واضح وهي تمسك القدح. لقد فزعها منظر حبيبها حين شاهدته وهو يهبط درجات السلم ثم يقف أمامها، شاحب الوجه غائر العينين، واضح الكدمات. شهقت كميلة بصوت مفزوع وهي تشاهد بقع الدم المنتشرة على قميص حبيبها، دخلت في نوبة بكاء حارقة. وتلك الصدمة ونوبة البكاء أفقدتها شهيتها المتلكئة في تناول الطعام، اكتفت بتناول الشاي ومثلها فعل حبيبها المنهك الجالس إلى جانبها. أراد أن يهمس لها بشيء إلا أن صوت سلمان جاء مقاطعاً

- أستاذ علاء، هل حقاً تعرف الشيخ منعم أبا عبد الله؟ وهل حقاً كان صديقاً لأخيك؟

لم يغير علاء من وضع رأسه المائل صوب زوجته، حين كان يستمع لسؤال سلمان، فقال لزوجته مستخدماً لغتها الأم:

- هذا المعتوه يناديني بالأستاذ، ومن يراه في الأمس، وهو يتناوب مع رجب في تعذيبي، يتصور أنه سيقتلني بعد لحظات، أعرف أنه يستخف بي حين يطلق كلمة الأستاذ.

وجه نظره صوب سلمان وقال:

- نعم، أعرفه جيداً، ولقد صدمت عندما رأيته وتعرفت على ملامحه رغم لحيته وملابسه التي لم أعتد على رؤيته مرتدياً لها، كنت أعرفه شاباً لطيفاً، وأعرف أنه قدم من القرية منتصف الستينيات مع عائلته، حين قرر والده الرجل المالك لأراضيه التي يزرعها، أن يسكن المدينة كون ابنه الأكبر "منعم" قد دخل الدراسة المتوسطة ولا يريد أن يضيع وقته في طول الرحلة بين المدرسة والبيت...

انتبه علاء إلى أنه قال الكثير عن الرجل، فحاول رمي كرة الحديث في ملعب سلمان فسأله:

- ولكن منذ متى وأنت تعرفه؟

ابتسم سلمان وقال:

- الشيء الذي لا تعرفه، أو على الأصح لم تتعلمه غاية الآن، هو أن السؤال ممنوع هنا، نحن نسأل وأنتَ تجيب، ولكن إذا أردنا أن نقول شيئاً، فلا ننتظر من أحد أن يسألنا، صحيح أننا تجاذبنا أطراف بعض الأحاديث بيننا طيلة الأيام القليلة الماضية، ولكنها لا تتعدى معرفتنا الأكيدة بأنك لن تبوح بها لأحد حتى لو كنت تملك الرغبة الملحة لذلك، عليك أن تتذكر سؤالك هذا وتطرحه على الأستاذ عندما تقابله.

نظر علاء صوب كميلة التي سرعان ما قرأت أمراً جللاً في عينيه، حاولت الاستفسار لتعود نظرات علاء وتطلب منها التأني والانتظار لوقت آخر. وبالفعل، حين خرج سلمان مصطحباً توفيق إلى الأعلى بعد أن قام بإقفال غرفة المطبخ بقفليها، القفل الأساسي وآخر إضافي، وتبعهما رجب بعد دقائق ليفرغ صفيحة المراحيض

في مكان ما، وعندما صار رجب خارج فتحة الملجأ قال بصوت عال وهو يشرع برد الغطاء إلى مكانه:

- سوف نغيب عنكما بعض الوقت...

ثم أطلق ضحكة عالية وأضاف:

- خذوا وقتكم، أقصد راحتكم، هكذا تقول الأوامر.

احتضنت كميلة حبيبها وراحت تشهق باكية على صدره، كانت تمتلك رغبة في الانهيار على صدره، نظرت في عينيه، قبلتهما وقالت:

- أنا السبب، أنا من شجعك للمجيء إلى هنا، لن أغفر لنفسي ما حييت إذا حصل لك إي مكروه.

ابتسم علاء وقال:

- كيف تقولين هذا، إنه وطني، بلدي، مدينتي، هنا ولدت، وهنا أمتلك تاريخي وذكرياتي وأهلي وأصدقائي، ومن الطبيعي أن أزوره أو أعيش به ثانية بعد زوال السلطة التي كانت السبب في تشردي وغربتي...

قبّلَ جبينها وطلب منها الكف عن البكاء وأضاف:

- هل تعتقدين بأني لن أزور بلدي لو لم تأتي معي أو تطلبي مني مرافقتك؟ بالعكس، كنت في كل الظروف سأزور أهلي ومدينتي، لذا أرجو منكِ أن تزيلي هذه الوساوس من مخيلتك كونها غير صحيحة.

استخدمت كميلة أصابعها لمسح دموعها... قبَّلَت علاء مرة أخرى وقالت بشيء من التوسل:

- لقد قرأت في عينيكَ أمراً خطيراً عندما كان ذلك المعتوه يكلمك، أرجوك أن تخبرني، ماذا كان يقول لكَ؟...

انتبه علاء إلى القلق الواضح في روح حبيبته، وفكّرَ أن يخفي ما استشفه من كلام سلمان وما كان يفكر به نهار ومساء أمس حين كان يخوض حفلة التعذيب، وحاول أن يقول شيئاً مغايراً طلباً للهروب من الموقف الصعب.

- هل تذكرين ذلك اليوم الذي عدنا فيه من منطقة الآثار؟ اليوم الذي حرَمَنا منه هؤلاء الوحوش؟

مال عليها بجسده وهو يبتسم بفيض من الحب، وأضاف بصوت خافض:

- كان من المفروض أن نتبادل الحب بعد انقطاع جبري دام سبعة أيام، هل نسيتِ وعدك؟

نظرت كميلة نحوه وأمالت رأسها قليلاً علامة على استغرابها لما يقوله حبيبها، تطلعت به جيداً وقالت:

- ما بك حبيبي؟ أنا أسألك عن الخطر والهلاك وأنت تحاول أن تأخذني إلى الحب والرومانسية التي غيبها هؤلاء الخنازير من أرواحنا؟ أرجوك أن تجيب على سؤالي.

لحظة صمت حاول علاء أن يلملم نفسه خلالها فقال:

- هناك أمر خطير يبيّت لي...

مسكَ كفها وضمه بين راحتيه وأضاف:

- أرجوكِ أن تسمعيني جيداً، وأن تتخلي عن العواطف، وتذكري ما قاله لك الشيخ طه حين قابلك، فكلامه يعني أنك

ستغادرين هذا المكان، وأبقى أنا هنا، وبقائي هنا، يعني أني صرت من أملاك الخنزير الذي يلقبونه بالأستاذ، " حميد أبو القمل "، لقد تعرضت في الأمس إلى أبشع أنواع التعذيب الجسدي والنفسي وهذا يعني أنهم لم يفكروا بإطلاق سراحي مقابل فدية مالية، كوني لم ألحظ منهم أي اهتمام بجسدي، وآثار التعذيب هذه خير دليل...

احتضنت كميلة حبيبها وراح نشيجها يعلو، دفنت وجهها في رقبته وراحت تشمه وكأنها تودعه الوداع الأخير، شعر علاء بدموعها وهي تبلل رقبته، ضمها إليه أكثر، وحاول تهدئتها، وحين استمرت ببكائها، هددها بالصمت إذا لم تكف. فكفكفت دموعها وحاولت أن تبتسم له وطلبت منه أن يستمر بكلامه، فقال:

- قبل قليل عندما كان سلمان يحدثني، قال كلمة ذات معنى واضح، قال " إننا على ثقة بأنك لن تبوح بما تسمعه منا لأحد، حتى لو كنت تمتلك الرغبة الملحة لذلك " وهذا يعني أنهم قرروا قتلي أو قطع لساني، فليس هناك غير هذين الاحتمالين...

جحظت عينا كميلة وراحت تذرف الدموع أكثر من ذي قبل، وانتابتها نوبة من الهستريا، ثم وقفت وهي تقول:

- هؤلاء الخنازير لا يعرفون بأن هناك دولة تقف خلفنا، هم لا يعرفون بأنهم لو فعلوا ذلك سيكون مصيرهم القتل، سوف أقتلهم بيدي...

حاول علاء أن يهدئها، سحبها إليه، احتضنها. وضعت كفيها على صدره، دفعته قليلاً ليواجه وجهها وجه حبيبها وقالت بهدوء مفتعل:

- اسمع، سوف أحاول أن أتكلم مع خنزيرهم الأكبر، سأغريه بالمال مقابل أن يطلق سراحنا، أو يطلق سراحك على أقل تقدير، سأقول له بأني أمتلك الكثير من المال، وأني سأبيع بيتي في كوبنهاغن وأعطيه ثمنه. سوف أساومه على أي شيء يريده مقابل إطلاق سراحك...

ابتسم علاء وكانت عيناه مغرورقتين بدمعتين عصيتين على النزول، قبّلها وأحتضنها، سادت لحظات صمت ممزوجة بنشيج يفيض حباً، ثم قال:

- دعيني أولاً أن أتكلم معه وأستبين الأمر، سوف يأتي ويطلب من زمرته أن يحضروني لأمثل أمامه، حينها ستكون الأمور أكثر وضوحاً...

سحبها إليه وأخبرها بالإرهاق الذي يسيطر على جسده. أفرد جسمه على فراش السرير الإسفنجي، سحبها أكثر لتتمدد فوقه وليأخذ رأسها مكانه على صدر حبيبها المتعب، أغمض عينيه، وراحت كميلة تستمع إلى موسيقى الشهيق متناوباً بإيقاع رتيب مع زفيره، تذكرت أسطواناتها إلى جانب جهاز التسجيل في شقتها الصغيرة المطلة على مقبرة النوربرو حيث يسكن الفيلسوف سورن كيركجارد، وما بين إيقاع القلب المحب وموسيقى النفس اللاهث، سيطر عليهما الوسن، فغفيا.

◆

أخبرهما رجب بعد أن استيقظا على صوت فتح البوابة، بأنهما بقيا وحدهما قرابة الخمس ساعات، وإن عليه أن يعد وجبة الغداء. انطلق صوت سلمان وهو يهبط السلم قائلاً:

– كيف حال العروسين؟ أتمنى أن يكونا قد استثمرا هذه الفرصة بشكل جيد.

أطلق ضحكة حين صار قريباً منهما وأخبرهما بان الغداء سيكون جاهزاً بعد قرابة الساعة. اقترب من علاء وقال له:

– الأستاذ لن يأتي هذا اليوم، وطلب مني أن أسألكما فيما إذا كنتما بحاجة إلى شيء ما؟

نظر علاء صوب كميلة وترجم لها ما قاله سلمان، فقالت:

– أريد أن أرى الشمس، أكاد أتعفن، أرجوك أن تطلب منه هذا.

– أنتَ تعرفُ جيداً أن زوجتي لم تخرج من هذا المكان منذ أن أتيتم بنا إليه، فهل لديكم ما يمنع أن نخرج إلى السطح كي ترى زوجتي نور الشمس؟ ابتسم سلمان ووجه نظراته إلى رجب سائلاً:

– هل هذا ممكن؟...

أطلق ضحكة أخرى وهو يحول نظره صوب كميلة وقال:

– ممكن، ولكن على شرط أن تكونا بوضع يضمن سلامتكما، إذا أردتما ذلك علينا أن نقيدكما جيداً، فهل توافقان؟

– نعم...

قال علاء واضاف:

– افعل هذا وليكن غداؤنا اليوم في الهواء الطلق.

ابتسم سلمان لهما وراح يغني... عذبني الهوى يا ناس، عذبني الهوى، عذبني... استمر في ترديد كلماته تلك التي ألفها للتو،

وراح يبحث عن بكرة الأسلاك الكهربائية. أوثق يديهما إلى الخلف موضحاً بأنه سيرفع الوثاق عند الأكل، ثم اقتاد الرجل إلى الأعلى بينما أقتاد رجب كميلة في أثرهما، وحين صار الأربعة على أرض الزريبة أشار علاء برأسه إلى كومة التبن وأخبر زوجته بأنه قضى لياليه الثلاث نائماً هناك. لم تجبه بشيء، وراحت تنظر إلى السماء بعد أن أغمضت عينيها الدامعتين من شدة الضوء لثوان. جلسا على الأرض، ووجهاهما يقابلان الشمس غير مبالين بأيادي سلمان ورجب وهما يلفان الأسلاك الكهربائية حول أرجلهما، نظرت كميلة صوب علاء نظرة يملأها الحنين، مالت برأسها نحو رأسه. تلامست خصلات شعرهما وقالت:

- هل صارت رائحة جسدي نتنة؟ أكاد أشمها وأقرف منها.

- أتمنى أن نكون أحراراً الآن، لآخذك حيث النهر، نغطس معاً هناك، وهناك أقوم بتعميدك بماء الفرات المقدس، ذلك الماء الذي اغتسل به كلكامش ونبوخذ نصر وأبي وأمي والملايين غيرهم. ماء الفرات يُطَهِّر الأرواح، ويطمئن النفوس... هل تعرفين أن المحنة تفقد الإنسان حواسه؟ ومع ذلك لازلتِ تتمتعين بحاسة الشم، حتى أنك صرت تشمين رائحة جسدك، ألم أقل لكِ بأنكِ روح نقية، أذكاها حب الحياة؟

أطلقت كميلة ضحكة وقالت:

- النهر مرة أخرى؟...

ثم استدركت:

- ألا تعتقد أن هؤلاء الخنازير وغيرهم ممن يعيشون بأرواح البشر قتلاً وانتهاكاً، قد شربوا ماء الفرات واغتسلوا به؟!

صمت علاء قليلاً. كان سؤالها مباغتاً. ولكنه سرعان ما خرج من صمته قائلاً:

- هنا، في هذا البلد، كل شيء منهوب حتى المعايير الإنسانية، فلا يمكن لشخص عاقل، عاش خارج مؤثرات سنوات الحروب والقتل والجوع والخوف وغيرها من مؤثرات تعرض لها إنسان هذا البلد، أن يتوقع ضمن مقاييسه الخاصة شيئاً عاقلاً يحدث هنا، وعليه ألا يصاب بالدهشة حين يجد عكس ما هو متوقع. فهؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الأرض، والذين نحن بين عينة منهم الآن... بالتأكيد ما أقصده أبعد من هذه المنطقة بكثير... ناس لا وجود للبحر في رؤوسهم، لا مواسم ثلج، لا موسيقى، لا ربيع أو أي موسم معتدل آخر، لا مقاهي تجلس فيها الفتيات إلى جانب الفتيان، لا مدارس مختلطة، لا مناهج تعليمية ينهلون منها حب الآخر واحترام رغباته، لا سفرات ترفيهية، لا متعة، رؤوس تفتقر القدرة على التفكير بالآخر، لم يتعلموا كيف يفكر الإنسان بالآخر، وحين نُسَلّم بأن كل تلك الأمور لم يرها إنسان هذا المكان أو يتعلمها، وبالتالي فهي ليست موجودة في رأسه، لأنه لا يعرفها. نتأكد بأنه لا يمتلك البديل لتصرفاته هذه. الرؤوس هنا تعتمر أصوات الرصاص وهدير الطائرات ودوي المدافع من أكثر من ربع قرن، رؤوس حفظت القرآن عن ظهر قلب لكثرة المآتم التي حضرتها.

- على رسلك يا علاء! كأنك تتحدث عن وحوش أو ضباع في غابة!

- هذا بالضبط ما أريد قوله، فالضبع لم يتعلم أن يسأل الضبع الذي بجانبه إن كان جائعاً أو بحاجة إلى شيء، بل بالعكس يفترسه

حين يكون مريضاً ولا يقوى على المقاومة، ينهش لحمه حين يريد أن يشاركه فريسته أو بقايا فريسة غيره، هذا هو واقع الحال، الواقع الذي خلقته الحروب والقتل والجوع، وجيل كامل من الأيتام يسيطر على الشارع العراقي الآن.

- هل كنت تتوقع أن ترى وتعيش، ما تراه وتعيشه الآن؟

- أتوقع؟ لا، ولكنني كنت أعرف أنه موجود، ولكن ليس بالشكل الذي رأيته، هل تصدقين بأني قابلت هذا الصباح قبل أن أدخل الملجأ، شخصاً أعرفه جيداً؟ هذا الشخص يعمل مع المجموعات الإرهابية، ربما هو أمير مجموعة أو قائد لمنطقة معينة. هذا ما عرفته من خلال بعض كلمات أطلقها سلمان على مسامعي. الشخص الذي قابلته، فنان تشكيلي!! نعم، صدقيني، منعم حسن درس الفن التشكيلي في معهد الفنون الجميلة، أو أكاديمية الفنون، وإذا لم أكن مخطئاً فأنه درس الفن التشكيلي في المعهد أولاً ثم الأكاديمية، وعمل في سلك التعليم مدرساً لمادة الرسم، وكان معروفاً عنه شغفه بالمدرسة التكعيبية وتأثره ببيكاسو وطريقته في العيش والتفكير، وكان كثيراً ما يتجادل مع أخي صابر حول برجوازية بيكاسو التي كان منعم يرفض الاعتراف بها. وعرف عنه أيضاً، شخصيته اللطيفة الهادئة، كان صديقاً لأخي صابر، وكثيراً ما كان يزورنا في بيتنا ويشاركنا طعامنا، أنظري ماذا أصبح الآن، وأنظري كيف تعامل معي بعد أن قدمت له نفسي، تركني بين هؤلاء الضباع بعد أن أمر أحد مرافقيه بضربي، غير مكترث بما ستكون عليه نتائج اختطافي وأسري في هذا المكان القذر.

- وكيف تريد منه أن يمد لك يد المساعدة، بعد أن تأكدت من أنه إرهابي متمرس؟ أنت تقول ربما هو أمير أو قائد مجموعة أو

مسؤول عن منطقة، هذا يعني أنه ارتكب من الجرائم ما يكفي كي يتولى مثل تلك المناصب.

- المشكلة التي لا أستطيع استيعابها، هي أن ينتمي ابن الوسط الفلاحي إلى المجموعات الإرهابية! تصوري أن الفلاح الذي يتعامل بكل رقة مع نباتاته وحيواناته، الفلاح الذي تعود أن يمسك ساق النبتة الغض بكل رقة خوفاً عليه من الكسر، والذي يداعب الحيوانات ويعرفها إن مرضت أو جاعت أو خافت بمجرد نظرة من عينيه، يصبح مجرماً إرهابياً، يذبح أبناء جلدته! الذي يخاف على الغصن من الكسر، صار يهشّم رقاب البشر ويفصل رؤوسهم عن أبدانهم، أليست هذه أعظم كارثة في التاريخ؟...

قال ذلك ثم استدرك بشيء من الحنين إلى الماضي:

- بالتأكيد ليس كل الفلاحين على هذه الشاكلة، ولا حتى ثُلثَهم أو رُبْعَهم بل هم مجرد أفراد انحرفوا عن طريق احترام الروح البشرية والنقاء الذي تمسَّك وما زال يتمسك به الفلاح، منذ أن عرفت هذه الأرض الطيبة أنامل البشر وهي تطوعها لتطرح خيراتها وتجود بها على بسطاء الناس. أتذكر حين كنت طفلاً، كنت أذهب مع والدتي وبصحبة إخوتي إلى الريف، كان لوالدتي صداقات حميمة مع بعض النساء الريفيات، فحين يأتي الفلاحون من الريف إلى المدينة، يذهب الرجال إلى المقاهي بعد بيع محاصيلهم، وتذهب النساء إلى بيوت معارفهن وصديقاتهن من نساء المدينة، فما من عائلة فلاحية إلّا وتربطها علاقة وثيقة وحميمة ببيت أو بيتين على الأقل من بيوت المدينة، وكانت عائلتنا من ضمنها. حين كنا نذهب إلى الريف ونحن نحمل في داخلنا فرحاً عظيماً لمثل تلك الزيارة التي كنا نعدها هدية عظمى يقدمها لنا أهلنا، كنا نقضي

هناك ليلة أو أكثر، من أجمل الليالي التي لا زلت أتذكرها وكأنها حدثت يوم أمس، كنت ولا أزال أحلم بأن أمتلك أرضاً زراعية داخل ريف المحمودية الساحر، وأعيش كما يعيش الفلاح... فالفلاح كما أراه، هو صاحب الروح النقية الأكثر قرباً إلى نقاء الأرض وعطائها، وهو كريم كالأرض التي يعيش عليها ويأكل من خيراتها...

كانت كميلة تصغي له بشكل تام وكانت نظراتها تبحر في عيني حبيبها وكأنها تراهما لأول مرة، وما أن وصل جملته الأخيرة حتى قالت:

- ألا تعتقد أن الطبيعة الجغرافية التي تعيش ضمنها العوائل الفلاحية لها دور فيما تفكر فيه؟

- ماذا تقصدين؟ لم أفهم!

- أقصد أن من طبيعة الفلاح، وهذا متعارف عليه في كل بلدان الأرض، أن يعيش داخل أرضه، وبالتالي فإن بيته يكون بعيداً بعض الشيء عن البيوت الأخرى، وهذا ما يجعله عرضة لتهديد المسلحين ومساوماتهم.

-هذا صحيح جداً...

قال علاء مبتسماً، ثم أضاف:

- قد تكون هذه الإشارة هي نقطة ضعف العوائل الفلاحية، فبيوتهم المنعزلة عن بعضها تجعلهم لقمة سائغة لأطماع المسلحين، حينها لا يكون لديهم أي خيار، أما أن يتعاونوا مع الجماعات المسلحة أو تُنسف بيوتهم على رؤوس ساكنيها...

كانت كميلة تنظر في عيني علاء والابتسامة مرسومة على ملامحها، فضوء الشمس المنعكس في عيني حبيبها قد منحهما لوناً رائعاً. انتبه علاء لابتسامة حبيبته وسألها:

– ماذا هناك؟ يبدو أنكِ لم تسمعي ما قلته، إلى أين ذهبت مخيلتكِ؟

– لقد كنت أبحر في عينيكَ التي منحتها الشمس لوناً جديداً، ومن خلالهما تذكرت رغبتك الملحة في أن تمنحني بعض من ملامحك الجميلة...

اتسعت ابتسامتها وأضافت:

– هل ما زلت تمتلك الرغبة في إنجاب طفلاً مني؟

اتسعت عينا علاء لتظهر دهشتها، وحاول أن يقول شيئاً إلا أن كميلة استمرت في كلامها:

تصور لو كنت قد حققت لك أمنيتكَ التي صرت تطلبها مني بشكل مُلِح في السنتين الأخيرتين؟ تصور أننا أتينا إلى العراق وفي صحبتنا ولدنا أو بنتنا، فماذا سيكون مصيرها ونحن تحت رحمة هؤلاء الخنازير؟

– الأمر لا يقاس هكذا، فأنتِ لم ترفضِ فكرة الإنجاب بسبب ما نتعرض له الآن. فلو كان هناك طفل بيننا، لأختلف الأمر تماماً، ليس من المعقول أن نأتي إلى العراق ونقطع المسافات وبيننا طفل صغير...

استمر الحديث بين علاء وكميلة حتى قطعه صوت رجب وهو يعلن وصول الغداء...

◆

كانت فترة الانتظار التي مرت عليه هذا اليوم قاسية جداً، تملكه شعور غريب، شعور أخذه إلى ذكريات بعيدة، وكأنه يسترجع أيام الطفولة وما تلاها، حتى صار يشم روائح غابت عن ذاكرته سنوات طوالاً، رائحة الخبز ودخان التنور. رائحة التراب المبلول بقطرات المطر وطابوق سياج سطح البيت وهو ينظر خلسة صوب ابنة الجيران، ثم رائحة شال (شيلة) والدته الذي طالما غفا لياليه، وهو يشمه بعد أن يغطي به وجهه، ناظراً صوب نجوم السماء من خلال ثقوبه. بدأت الروائح تتسرب إلى روحه وتسيطر عليها بسرعة مذهلة.

والحقيقة أن ذلك الشعور الغريب، صار يسيطر عليه منذ أن سمع الغمز في كلمات سلمان، فترة تناولهم وجبة الإفطار. أنهكه التعب والتفكير فغفا دون عناء هذه المرة، تمدد على سريره بعد أن أُدخِلَ وزوجته الملجأ بأمر من سلمان قرابة السابعة مساءً، ليبدأ سلمان مراسيم سكره وهو يحرس البوابة. نام علاء ومثله فعلت كميلة بعد أن دخل رجب مصطحباً توفيق إلى غرفة المطبخ وأغلق بابه من الداخل.

لا يدري كم من الوقت استغرق في نومه حتى داهمه حلمه المستهلك، بعد أن غادره منذ قرابة العام. حلم كثيراً ما تكرر غازياً مخيلته * يدخل مدينته بالخفية قادماً من منفاه، يرى وجوهاً عرفها من قبل، وجوه الطيبين، أصدقائه، أهله، ثم تتحول الصورة إلى وجوه مفزِعة، وجوه المخبرين ورجال الأمن، ثم يجد نفسه وسط زقاق يؤدي إلى زقاق آخر حيث بيت أهله، يشاهد العساكر والمخبرين وهم يسدون منافذ الزقاق والأزقة الأخرى، والنسوة والرجال والأطفال ينظرون إلى المشهد من خلال النوافذ وسطوح البيوت. يفكر في حيلة تخرجه من المأزق المميت. يتذكر هويته

المزورة التي كان يستخدما زمن الحقيقة، فيصاب بالهلع حين يتبين أنه لم يجلبها معه حين عاد من الغربة متسللاً. يضيّق رجال الشرطة والمخبرين الحصار عليه، يصرخ، ثم يستيقظ وقد تفصد جسده بالعرق " حلم عراقي موحّد يشترك فيه أغلب عراقيي المنفى، حلم وحَّدَ العراقيين في بلاد المنافي دون إرادتهم، على الرغم من تشرذمهم وتنافرهم الروحي قافزين على الهم المشترك الذي كان من شأنه أن يوحدهم لو أرادوا.

استيقظ فزعاً. كان نور الفانوس الخافت يصارع ظلمة الملجأ، تقدم صوب الفانوس ورفع ضوءه. تناول إبريق الماء وشرب قليلاً بعد أن جلس على الكرسي اليتيم إلى جانب الطاولة الصغيرة، انتبه إلى بعض أوراق ودفتر مدرسي أخضر الغلاف ذي ثلاثين ورقة، راحت أصابعه تعبث بالأوراق، كان حريصاً على ألا يصدر صوتاً يوقظ زوجته أو أحد الشابين في غرفة المطبخ. كف عن العبث بالأوراق التي كانت جميعها خالية من أي حرف، وانصرف تفكيره عنها ليتحول إلى منعم حسن. راح يسأل نفسه، كيف يتحول الفنان، أو على الأقل من درس الفن وعرف مدارسه وفنانيه ودرس تاريخه، إلى مجرم سفاح يقتل البشر من أبناء جلدته، يتلذذ بمنظر الدم وقطع الرقاب؟ أفزعته الصورة، وحاول دون وعي أن يحوّل تفكيره إلى شيء آخر أقل مرارة. راحت مخيلته تحصي الفنانين والكتاب والأدباء والأطباء وغيرهم من أبناء المدينة. نقلة روحية مهمة، خففت عليه هول الفجيعة، نهض من على كرسيه فجأة وكأنه تذكر شيئاً مهماً، تسلل إلى حقيبة زوجته ليلتقط قلم رخيص بحبر جاف، ثم عاد إلى كرسيه، سحب عدة أوراق وراح يكتب بعد أن ترك الأسطر الخمسة الأولى فارغة. استمر يتذكر ويدون لفترة لا بأس بها وكأنه يكتب قصيدة شعر، أو رسالة عشق أولى، ثم صار بعد

ذلك يكتب سطوره بانسيابية ودون أن يرفع رأسه، وكأن وحي الكتابة قد هبط عليه دفعة واحدة ودون توقف.

من الصعب جداً أن يعرف علاء كم من الوقت استغرق في كتابة الورقتين اللتين في يده الآن، واللتان راح يقرأهما بتأن واضح، فالوقت داخل الملجأ لا يُعْرَف إلا حين تفتح بوابته، حذف شيئاً، ثم أضاف شيئاً آخرَ، قرأ مرة ثانية وثالثة، نظر صوب كميلة، كانت لا تزال نائمة، ثم تأكد أن باب غرفة المطبخ موصدة. طوى الورقتين مرة وثانية وثالثة ورابعة. مسك الكتلة الورقية في قبضته، فكر قليلاً، نظر إلى قدميه. أنزل جورب قدمه اليمنى حيث منتصفها. لصق الكتلة الورقية إلى باطن القدم، ثم أعاد الجورب حيث وضعه الطبيعي، حاول أن يمشي قليلاً كي يعرف حجم الكتلة الورقية ومقدار إعاقتها له. اقتنع بعد ثلاث خطوات خطاها صوب فردتي الحذاء، دس قدميه بحذائه وأفرد جسده على السرير ليطلق لمخيلته العنان ثم يغفو...

(18)

عاد مشيعو جثمان الشيخ ضاري علي دليمي إلى المحمودية بعد أن تمت مراسيم غسل الجثة ودفنها، كانت الساعة تقارب الثالثة بعد الظهر. توجه سعدي جبار الأوتجي إلى بيته كي يستحم ويزيل عنه تراب المقابر ويستبدل ثيابه. استقبلته "بشرى" زوجته وأم أطفاله السبعة، وكعادته، حمل ابنه المقعد "مصطفى" ذا السبع سنوات من على الأرض، قبله، ووضعه على زنده الأيسر، ليدخل معه الحمام.

لاحظت بشرى ملامح التكدر والوجوم على وجه زوجها، وقلق واضح في تصرفاته، كان متعكر المزاج شارد التفكير، حاولت أن تستبين الأمر أكثر من مرة، لكنه اكتفى بالصمت ولم يرد على أسئلتها رغم رغبته في البوح بما يجثم على صدره، ارتدى ملابسه وخرج متوجهاً إلى مكان عمله حيث دكانه الصغير.

سحب كرسيه الصغير لينضم إلى أصدقائه أمام دكانه، كان الحديث الذي بدأ قبل دقائق، هو تماماً ما كان يدور بين أغلب أبناء المحمودية، في البيوت والمقاهي والأماكن العامة، يدور حول مقتل الشيخ ضاري. كانت الصدمة التي تلقاها أبناء المدينة، شديدة جداً، صدمة ذات معنى كبير وخصوصية عالية.

لم ينطق سعدي جبار بأية كلمة، كان يبدو لمن يراه، أنه يستمع بإصغاء إلى الحديث الدائر بين أصدقائه الثلاثة، والحقيقة عكس ذلك، فقد كان هائماً في فلاة انكساره، انكسار مرّ لم يتذوق مرارته

من قبل. شعر بكف صديقه وهو يوقظه من هيامه، انتبه له، نظر إليه بعينين حمراوين لامعتين بدموع عصية وقال:

- ليس من الطبيعي أن يصبح منظر الدم شيئاً مألوفاً لدى البشر، ولكن هذا واقع الحال، فالموت والقتل في حياتنا، عمره يقارب ربع قرن، مات البسطاء، وقُتل الشبان، وأعدم من أعدم، وغير ذلك الكثير من المشاهد القذرة التي نعرفها جميعاً، ولكن مقتل "ضاري المحامي" تجاوز بدلالته كل ما سبق! تجاوز كل الصور البشعة التي تعتمر مخيلتنا، لقد قُتِلَ الإنسان البسيط بمقتل ضاري، قُتِلَ الأمل في الحياة والشعور بأهمية الآخر...

كان أصدقاؤه ينصتون إليه، بشيء من الغرابة والتركيز الشديدين، فهم يعرفون سعدي صاحب الروح المرحة، التي لا تهزها أكبر المصائب، قال أحدهم محاولاً تخفيف الفاجعة في روح صديقه:

- عزيزي أبا حازم، أنت تعرف جيداً أن الشيخ ضاري عزيز علينا جميعاً، ونعرف مدى محبتك له، ولكن هذا أمر الله، وكل نفسٍ ذائقة للموت...

ارتعش جسد سعدي جابر وقال بصوت عال:

- نعم كل نفسٍ ذائقة للموت، الموت، وليس القتل، كلنا نعرف التهديد الذي كان يتلقاه الشيخ ضاري بين الحين والآخر، وكنا نضحك في كل مرة يخبرنا بها الشيخ، أو نسمع من غيره أنه تلقى تهديداً...

هدأت نبرة صوته قليلاً وأضاف:

- كنا نضحك لأننا كنا على يقين أن الإرهابيين، والقتلة لن

يستطيعوا تنفيذ تهديدهم، بسبب المكانة الاجتماعية والسياسية التي يتمتع بها الشيخ، وكنا نقول أن أهله وأقاربه وأفراد عشيرته ومحبيه، يسدون عين الشمس بكثرتهم، وهذا سيحول دون تنفيذ القتلة لتهديداتهم، ولكن الذي حدث، هو أن الشيخ ضاري قد قُتِلَ، ولم تخرج كلمة واحدة من فم إنسان تتوعد القتلة بالقصاص، أليس هذا أكبر من كارثة؟

- إنها فعلاً كارثة، ولكن دم الشيخ لا زال ساخناً، دعنا ننتظر الأيام القادمة، فأنا متأكد من أن هناك مَنْ سيقتص من القتلة.

قال أحدهم، فنظر سعدي صوبه وقال:

- وهذا ما كنت أفكر به حتى انزويت بأحد أفراد عائلته وأنا أسأله سؤالاً مستفزاً، قلت له... ترى من هؤلاء الذين قتلوا الشيخ؟ كيف تجرؤا على فعلتهم هذه؟ ألم يخافوا الثأر له من قبل أهله وعشيرته وأقاربه؟... هل تعلمون ماذا قال لي؟! قال، أنه أمر ديني، يقصد الفتوى، قد صدر بحق الشيخ رحمه الله، ونحن ناس لا نستطيع التدخل بأمور الدين، وهذا قضاء الله وقدره.

- مستحيل! هذا أمر غير معقول!

قال الشخص الجالس إلى يمين سعدي.

- هذه هي الكارثة الكبرى تتضح أمامنا لتطرح سؤالاً مهماً، هو... إذا كان ضاري علي دليمي، شيخ عشيرة الغرير الكبيرة والمتفرعة إلى عدة فروع، ورئيس رابطة عشائر منطقة بغداد وما يحيطها، قد قتل بدم بارد، وضاع دمه، فمن يقف بجانب أطفالي إذا قُتلت؟ من يقف بجانب الإنسان البسيط، الذي لا حول له ولا قوة، الذي لا يملك سوى عمله وحفنة أطفال جياع؟...

نظر سعدي صوب أصدقائه في صمت وأضاف:

- بمقتل الشيخ ضاري، رسالة أرسلها الإرهاب إلى جميع البشر، ودون استثناء، أن دم البسطاء، دم العراقيين، أصبح مهدوراً ودون أي سبب، أليست هذه أكبر من كارثة؟ أليست هذه هي الحقيقة؟ إذا كان لديكم شيء مخالف لما قلته أسعفوني به الآن!

صمت الجميع وارتجفت أرواحهم، وتذوقوا مرارة المصيبة التي كشف الستار عنها صديقهم البسيط.

جاء صوت الأستاذ عبد الإله من الخلف حيث الشارع، وهو يلقي عليهم التحية، سألهم، قبل أن يأخذ مكانه بينهم، فيما إذا كانت هناك أخبار جديدة عن علاء كاظم وزوجته. أجابوا بالنفي، وقال سعدي جبار:

- المسكينة أم أحمد تكاد أن تجن، ذهبت إلى كل مكان، الشرطة، والمستشفيات والطرقات، ولكن لا نتيجة...

وزع نظراته على أصدقائه بصمت وأضاف:

- ومصيبة علاء مصيبة أخرى، لا يقل شأنها كثيراً عن مصيبة مقتل الشيخ ضاري، المسكين أتى لزيارة أهله وأصدقائه بعد غياب طويل، انظروا ماذا جرى له بعد مضي أقل من أسبوع على عودته، اختفى! ببساطة اختفى هو وزوجته المسكينة التي أتت لتزور وطن زوجها لأول مرة، هل هذا ما تربينا عليه، هل الغدر بالضيف والصديق والقريب وابن المدينة من شيمنا؟

قاطعه الأستاذ عبد الإله قائلاً وهو يبتسم بمرارة:

- عندما كان العراقي يسافر من مدينته إلى مدينة أخرى، كان

يقول مناجياً ربه "ربي لا تطل غربتي في هذا المكان" مع العلم أنه في وطنه وبين أبناء جلدته، والذي يدعيه إلى ذلك الدعاء، هو ابتعاده عن أهله وأصدقائه وأبناء مدينته الذين تطمئن لهم روحه ويشعر بينهم بالأمن، أما الآن، في هذا الزمن القذر، أصبحت روح الإنسان قلقة، غريبة وهي داخل دارها وبين أهلها.

- نعم...

قال أحد الثلاثة وأضاف:

- أصبح العراقي يحلم بشيئين، السفر، وطاقية الإخفاء، كي يتخلص من رعب الحياة...

(19)

ناوله سلمان الورقة المطوية التي استلمها من الشيخ منعم "أبو عبد الله" صباح أمس. لم يحاول العقيد حميد هلال النظر إليها، دسها في جيبه دون أن يحول نظره، كان ينظر صوب علاء، رهينته الذي يجلس على الأرض قبالته بمسافة خمسة أمتار، كان يتفحص الكدمات والشحوب الذي ظهر على وجهه بشكل واضح، ودون أن يحول نظره صاح حميد هلال منادياً رجب طالباً منه أن يذهب حيث الدار ليجلب جردل اللبن بعد أن يضيف عليه الثلج. ثم ابتسم إلى علاء وقال:

- كيف أنت يا علاء، هل شعرت ببعض الاستجمام وأنت بيننا؟

ثم سكت منتظراً الإجابة.

- سؤال سخيف.

قال علاء، وانفجر حميد ضاحكاً بصخب بعد أن سمع ما قاله أسيره، فقال:

- لا عليك، سوف نعوضك كل ما خسرته، أنت صديقنا وابن مدينتنا، وما شاهدته من إزعاجات أو مضايقات، كان بهدف أن تعلم مكانتنا وقدرتنا على كل شيء...

- هل أفهم من كلامك هذا، بأنكَ تريد أن تظهر لي قوتكَ وسلطتكَ، كي أتعرَّف عليك بالشكل الذي ترغبه؟ هل تريدني أن

أعترف بأنك قوي وذو شأن؟ لك هذا، أنا أعترف لك، ليس الآن، بل منذ زمن طويل، والدليل هروبي من النظام الذي كنت تنتمي إليه بعد أن حكم عليَّ بالإعدام كوني رفضت أن أكون جندياً يشارك باحتلال الكويت، وباعترافي هذا تكون قد نلت ما خططت له، وما عليك الآن سوى أن تطلق سراحي وسراح تلك المسكينة التي تقبع في ذلك المكان الحقير تحت الأرض...

أطلق حميد ضحكة أخرى وقال:

- هذا هو عيبكم يا أبناء المدينة، نظرتكم لواقع الأمر دائماً ناقصة ومشوشة، كيف تقول لي بأنني كنت أنتمي إلى النظام الذي أصدر بحق الجبناء أحكامه؟ كلمة "كنت" هذه لا تنطبق علينا، لا تصح أن تقال على نظام حُكم عظيم، ما زال موجوداً ويسيطر على الشارع العراقي، وما أنت عليه الآن، لدليل دامغ على ذلك، حزب البعث ورجاله، ورجال أجهزته هم من يحكمون الشارع العراقي الآن، هل لديك شك في هذا؟...

لم يجب علاء واكتفى بالنظر إليه، وفي تلك الأثناء دس حميد يده اليمنى تحت إبطه الأيسر وأخرج مسدساً راح يقلبه ويبتسم إليه ثم قال:

- أنا الآن أمتلك حياتك... حياتك يا سيد علاء وحياة زوجتك بيدي، يمكنني أن أسلبك الحياة الآن بطلقة واحدة من مسدسي هذا، ويمكنني أن أهبك الحياة حين أطلق سراحك، هل تتفق معي؟

التزم علاء الصمت، وفي تلك الأثناء اقترب رجب من حميد هلال حاملاً جردل مليء باللبن يعلوه كتلة من الثلج، تناول الكأس

الزجاجي من يد رجب وغمره في الجردل حتى امتلأ، ثم نهض من على كرسيه البلاستيكي وتقدم نحو علاء وهو يقول:

- الضيف أولاً، على صاحب الدار أن يقدم الشراب للضيوف أولاً. آه... أعرف أنك مقيد اليدين، لا عليك سوف أسقيك بنفسي.

حين اقترب حميد هلال منه، أشاح علاء بوجهه جهة اليسار، ليس رفضاً للشرب، بل أن رائحة نتنة وصلت مشمه، رائحة جثث بشرية تفوح من جسد وحش ضخم الجثة. هكذا ترجم علاء تلك الرائحة التي وصلته، وقال في سريرته "القتلة تلفهم رائحة ضحاياهم أينما ذهبوا".

دنا حميد منه أكثر وانحنى بجذعه، فصار وجهه قريباً من وجه علاء. طلب منه بصوت منخفض أن يشرب اللبن، عاد علاء بوجهه حيث الكأس وراح يتجرعه بمساعدة الجلاد، وحين عاد حميد إلى مكانه قال:

- والآن وبعد أن سقيتك بنفسي، نعود إلى موضوعنا السابق، باستطاعتي الآن أن أزهق روحك...

ثم أطلق ضحكة وأضاف:

- أستطيع أن أصدر الأمر لأحد ملائكتي ليقبضوا على روحك...

ناول المسدس إلى رجب، بعد أن سحب نابضه، وطلب منه أن يسدد فوهة المسدس، نحو رأس علاء ويطلق عليه، لم يتردد رجب، أخذ المسدس وسدد الفوهة حيث أمره سيده، ووقف ممدود الذراع ينتظر الأمر، حينها قال حميد:

– والآن ماذا تقول؟ هذا هو عزرائيل فوق رأسك، إذا أمرته بالإطلاق سوف تموت، وإذا لم أصدر له الأمر فأنت على قيد الحياة...

أغمض علاء عينيه وراح ينتظر دوي المسدس ليفجر رأسه، أخذت الأفكار تدور برأسه بسرعة مذهلة، حتى سمع صيحة من بين شفتي حميد وهو يقول "أطلق". فتح علاء عينيه ناظراً صوب المسدس. ضغط رجب على زر الإطلاق فأصدر المسدس صوتاً باهتاً. كان صوت ارتطام قطعة حديدية بأخرى. أطلق حميد ضحكة صاخبة امتزجت بضحكات سلمان ورجب الذي شحب لونه، كان متأكداً من أنه سيقتل الرجل الجالس على الأرض. شعر علاء بأن حميد يحاول أن يتسلى به. ربما شعر بقلق علاء وخوفه، فراح يستغل حالته المزرية تلك، متلاعباً بأعصابه، مستخدماً خبرة مخابراتية عملية امتدت لسنوات.

فكَّرَ علاء في محاولة تفضي إلى أن ينتزع من حميد حالة الكبرياء والغطرسة التي هو عليها آملاً أن يعيده إلى طبيعته البشرية فقال محاولاً التماسك:

– عليك ألا تنسى، وأنت تمتلك السطوة والجبروت، والشعور بالقدرة، التي تجعلك تؤمن بشكل مطلق بأنك تستطيع أن تهب الحياة لمن تشاء، وتسلبها ممن تشاء، أن رجولتك هذه وتكوينك الجسدي الذي أنت عليه الآن، ما هو إلا نتاج طفولة بريئة، محبة للحياة، نقية كأرواح العصافير، يمكنك الآن أن تتذكر جسدك الغض وأنت طفل صغير، تنشر الابتسامة بوجوه من تراهم، كفك الصغيرة كانت تحاول لمس الأشياء بدهشة رائعة المذاق، هل تستطيع أن تتذكر؟

ابتسم حميد وهو يوزع نظراته بين رجب وسلمان وقال:

- عليك أن تعرف أيها الفيلسوف، أن ما يمثل الإنسان وشخصيته، هو، ما هو عليه الآن، فالإنسان المعلم اللطيف مع طلابه، يقال عنه إنه معلم لطيف، وفي الغد، وعندما يحين موعد كلمة "الآن"، ويصبح ذلك المعلم متقاعداً، يقال عنه في حينها إنه رجل متقاعد، ولا يقال عنه معلم لطيف. ربما يقال عنه إنه كان، وكلمة "كان" هذه لا تعني شيئاً بالنسبة لـ " الآن " الحاضر، وهكذا، فحين تكون أنت الآن ضحية، كما تعتقد... فأنت ضحية... ولم تكن كذلك قبل بضعة أيام، ولن تكون كذلك في الغد، ففي الغد وحين يحين أوانه، تكون قد حملت صفة أخرى هي صفة القتيل أو الشهيد، كلٌّ حسب رأيه، وحين أكون أنا الآن مجرماً، كما تعتقد أنت أيضاً، فأنا كذلك، ولكني عندما كنت أعيش "آن" الأمس، كنت ضابطاً برتبة مرموقة، وفي "آن" اليوم كذلك، وما زلت وسأبقى ضابطاً برتبة مرموقة، ولا أريد أن أعود وأتذكر صفاتي الطفولية الجميلة والرقيقة، لأنني إن فعلت، سوف أفقد رتبتي العسكرية المرموقة، التي ستظل تلازمني ما دمت حياً.

اتجه حميد بنظره صوب رجب وطلب منه كاساً من اللبن، وبعد أن أفرغه في جوفه أمره أن ينزل بجردله إلى الملجأ ويسقي المرأة هناك. تحرك رجب صوب الملجأ، وراح حميد يعبث بمسدسه، يخرج مخزن إطلاقاته ويعيده، يستبدله بآخر ثم يخرجه ليعيد السابق، وهكذا استمر حميد بعبثه وكأنه يُخَيِّر نفسه بتردد بين المخزن المليء والآخر الفارغ، كان علاء ينظر صوبه، حتى أعاد حميد مسدسه إلى مكانه تحت إبطه الأيسر، دس كفه في جيبه وأخرج الورقة المطوية التي أعطاها له سلمان. فتحها وراح يقرأ، ثم رفع رأسه وطلب من سلمان أن ينادي رجب.

حين أصبح رجب على أرض الزريبة، ودنا من سيده استجابة إلى إشارة من إحدى أصابعه، ابتسم حميد وقال:

- وأخيراً يا رجب، سوف تنال مرادك، لقد صدر الأمر لقيامك بعملية استشهادية...

ارتعد جسد رجب، ورجع بجسده إلى الخلف، ثم ابتسم وتحولت ابتسامته إلى ضحكة مجلجلة، وصار يحمد ربه ويشكره على النعمة التي مَنَّ بها عليه، سحبه حميد من ذراعه وقال له:

- اسمعني جيداً يا رجب، غداً صباحاً، مع بداية الفجر، تذهب إلى الحصوة وتقابل الشيخ طه، سوف يسلمك أمانة، عبارة عن كيس أو حقيبة كبيرة بعض الشيء، تأخذها وتذهب إلى بيتي في البياع، تسلمها إلى افتخار شخصياً، وتسألها عن حقيبة موضوعة تحت الأريكة، هذه الحقيبة هي حقيبة المتفجرات التي ستنفذ بها العملية...

ناوله الورقة وأضاف:

- في هذه الورقة تستطيع أن تعرف مكان وزمان تنفيذ العملية، هل فهمت؟ هل لديك سؤال؟

حرك رجب رأسه مشيراً على فهمه للأمر، ثم انحنى على رأس سيده وقبله وقدم له الشكر.

عاد حميد هلال بنظره صوب علاء وقال ضاحكاً:

- ما رأيك لو تذهب مع رجب لتنفيذ العملية؟ ستكون بطلاً يتذكرك الشجعان من الناس، وتنعم برضا الله فيدخلك جناته من أوسع أبوابها.

ابتسم علاء بوجهه وقال:

- الجنة التي تعرفونها، هي ليست الجنة التي نعرفها نحن، والتي وصفها الباري جلت قدرته في كتابه المجيد. ربكم جديد علينا، هو ليس رب سائر البشر الذين عرفوه منذ آلاف السنين، ونبيكم هو ليس النبي المصطفى الذي نعرفه، أنتم تمتلكون رباً ونبياً جديداً "اسبشل" صنعتموه بأنفسكم، تماماً كما كان الرب يُصنع من قِبل البشر زمن الجاهلية...

كان علاء يتكلم بثبات واضح على الرغم من وحشية الموقف. فلقد شعر بصلابة وحرية حولت صورة حميد هلال في نظره إلى قزم تافه، مما منحه استرخاء اللحظة فأضاف:

- ثم مَنْ أنت حتى تتكلم بأمور الدين والجنة والنار؟ أنت مجرد شخص فاسق، سكير، أو بكلمة أدق، مجرم، تتاجر بأرواح الناس... الدين يا عزيزي، علم، قانون، وضعه الله سبيلاً كي ينعم البشر بالحرية والأمن وسكينة النفس، وليس فيه ما يدعو للقتل والسلب وهتك الأعراض والاعتداء على حرية وحقوق الآخرين...

ثم ارتسمت على ملامحه ابتسامة مستخفة وأضاف:

- هل تعرف حجم مشكلتك؟... أنت وقلة قليلة مثلك ممن ينتمون إلى الوسط الفلاحي، يتملككم الشعور بالدونية اتجاه أبناء المدن، في الوقت الذي يتمنى فيه ابن المدينة أن يعيش حياتكم ويمتهن مهنتكم، كونها مهنة نبيلة لا تقل أهمية عن المهن الأخرى... لقد غاب عن أذهانكم بأن أبناء الطبقة الفلاحية هم شريحة مهمة، بل وأساسية في بناء المجتمعات، وهناك الكثير من

الدول المتقدمة تعتمد اعتماداً كاملاً في اقتصادها على المنتوج الفلاحي... أنا أشعر بك، وأقدر حجم التشويه الذي اقترفته الحكومة الزائلة بحقك كونك أحد أبناء الطبقة الفلاحية... لقد حولت تلك الحكومة أبناء الطبقة الفلاحية من أيادي منتجة، إلى أيادي مستهلكة لا تعرف سوى القتل والتخريب، بعد أن فتحت لهم الباب على مصراعيها، لتدخلهم في خدمتها كرجال أمن ومخابرات وغيرها من الاختصاصات القذرة... يا حميد، أنت ضحية... ضحية الحكومة الساقطة التي تدافع عنها الآن وتتمنى أن تعيد أمجادها الوهمية... أنت مسكين، ضحية رخيصة ينقصها التفكير.

صفق حميد لما سمعه من علاء، وقال مستخفاً:

- الله، الله يا شيخ علاء، لم أكن أعرف بأنك رجل دين وسياسة في آن واحد، فالذي أعرفه عنك، أنك ملحد، فاسق، ابن كلب. من أين أتيت بمثل هذا الكلام الجميل؟

- جرائمكم هي التي تقول هذا الكلام، هذا الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره، والذي يقف إلى جانبك، لماذا عليه أن يموت؟ لماذا عليه أن يقتل عشرات الأبرياء؟ ما ذنبهم؟ هل هذا هو دين الإسلام الذي أنزله الله على نبينا العظيم؟

نظر حميد في ساعة يده. دس كفه تحت إبطه وأخرج مسدسه مرة أخرى، ومرة أخرى راح يقلبه وينظر إليه مبتسماً، ثم رفع رأسه ونظر صوب علاء، ابتسم له وقال:

- ما رأيك أن نعيد لعبة عزرائيل مرة أخرى؟...

ناول مسدسه مرة أخرى إلى رجب، وطلب منه التسديد صوب

رأس علاء. فعل رجب ذلك كما في المرة السابقة، ووقف ينتظر الأمر وهو مبتسم. تبدو أن اللعبة قد استهوته. أطال حميد النظر صوب علاء. حينها صارت ذكرى الروائح أكثر قرباً إلى روح علاء، وصار يستنشقها وكأنها حقيقة، رائحة الخبز والتنور والتراب والشال، حتى أغمض عينيه ليشاهد صورة والدته وهي تناديه كي يغتسل ويخلد للنوم، ثم ناولته شالها كي يضعه على وجهه ويبدأ النظر إلى نجوم السماء. فتح عينيه فشاهد حميد وقد تحول إلى كائن غريب لم يره من قبل، أنيابه تخرج من بين شفتيه متجاوزة حدود شفته السفلى وآذانه استطالتا وتجاوزتا محيط دائرة رأسه الذي اختفى منه الشعر تماماً.

أطلق حميد الوحش صرخته "أطلقْ" دوى صوت انفجار رهيب، أرعب رجب فسقط المسدس من يده في الوقت الذي ارتفع جسد علاء عن الأرض ليستلقي على ظهره.

نهض حميد هلال مذعوراً. التقط المسدس وراح يصرخ:

- كلاب. خونة. جواسيس...

وراح يطلق الرصاص صوب جسد علاء المهشم الرأس، مستمراً بصراخه الهستيري:

- مَنْ أنتم؟... لماذا تعتقدون بأنكم أفضل الناس؟ ماذا لديكم أكثر منا؟ لقد ولى زمن السخرية، نحن الأقوى، الزمن زمننا، ولتذهبوا أنتم إلى الجحيم، أنت قلت بأن حكماً بالإعدام صدر بحقك، لأنك جبان، لا تحترم الأوامر العسكرية، وأنا الآن أنفذ بك الحكم حسب ما أمرت به قيادتنا الحكيمة، أعدمك الآن حتى لو كان الوقت قد تأخر، كلاب. خونة. جواسيس...

احتضنه سلمان بعد أن أفرغ إطلاقات المسدس التسع في جسد علاء. أخذ سلمان المسدس من يد سيده وأخبره أن الأمر قد انتهى.

توجه حميد صوب الدار المجاور للزريبة وهو يلعن سكان المدن وكل من وقف بجانب الاحتلال الأمريكي، ولم ينسَ أن يشيد بمنجزات القائد الضرورة وحكمته، ثم طلب له من الله العمر المديد وأن يفرج عنه كربه ويخرجه من سجنه كي ترجع الحياة في العراق زاهيةً كما في السابق، وبقي رجب متصلباً في مكانه ينظر إلى الجثة الغارقة بدمها. اقترب سلمان من الجثة وحاول تحريكها، ثم مسك كفيها وحاول أن يسحلها صوب كومة التبن التي كانت تنام عليه حين كانت الروح تدب فيها. صاح على رجب كي يساعده في رفعها، تقدم رجب نحوه بجسده المرتعش وعينيه الجاحظتين، مسك الساقين ورفعهما بصعوبة شديدة، فلقد خارت قواه تماماً. جلس إلى جانب كومة التبن كي يسترد أنفاسه بعد أن صارت الجثة فوق الكومة. أطلق سلمان ضحكة مسموعة وصار يهزأ من رجب. سأله إن كان خائفاً، فأجاب رجب، على أنها ليست المرة الأولى التي يقوم فيها بقتل إنسان، إلّا أن هذه المرة لها وقعها الخاص، فلقد تفاجأ بصوت الإطلاق، كان يعتقد أن المسدس خالٍ من الإطلاقات كما في المرة التي سبقتها، والذي زاد من خوفه تلك الحالة الهستيرية التي ظهر عليها سيده، حتى تصور أنه سيلتفت نحوه ويطلق النار عليه، هدأه سلمان وذكّره بالعملية البطولية التي سيقوم بها صباح الغد، انتبه رجب لكلام صاحبه ثم سأله عن المكان الذي خبأ فيه جهاز التحكم الخاص بتفجير الحزام الناسف. أخبره سلمان بأن الجهاز داخل جيب الحقيبة الأمامي، ثم سأله عن يقينه من أن العبوة قد أعدت بالشكل المطلوب، فقال سلمان إنه جهزها بشكل كامل ومتقن، وأن لا مجال للخطأ أو الفشل.

أمر حميد هلال بأن تحمل جثة علاء عند الغروب وتلقى إلى جانب الشارع العام المؤدي إلى مدينة المحمودية حيث نهر شيشبار. وبالفعل، قام رجب بمساعدة سلمان في تنفيذ تلك المهمة. رميا جثة علاء كاظم إلى جانب الشارع الأسفلتي، تماماً عند المكان الذي تمت فيه عملية الاختطاف، وعادا حيث الزريبة...

(20)

كانت الساعة تقترب من السابعة صباحاً، حين خرج رجب من بوابة أحد المطاعم باحثاً عن سيارة أجرة توصله إلى مدينة البياع. لم يكن العثور على سائق يقبل بنقل رجب من ناحية الحصوة إلى مدينة بغداد سهلاً، فالمسافة تقارب الأربعين كيلومتراً، وهذا يعني، المرور بالعديد من نقاط التفتيش الحقيقية والوهمية. الحقيقية التي تعود للشرطة أو الجيش العراقي أو الأمريكي. أما الوهمية، فهي التي تعود إلى الخلايا المسلحة وقطاع الطرق والتي يصعب على المواطنين تبيان حقيقتها، كون أن الخلايا المسلحة اعتادت أن ترتدي ملابس الشرطة، وهذا يعني أن السائق سيقضي كل نهاره في طريق لا يتجاوز زمن قطعه في الظروف الاعتيادية ساعة واحدة. ولكنه أخيراً اتفق مع سائق كهل على أن يعطيه أجرة تعادل ما يحصل عليه في اليوم الواحد مقابل أن يوصله. جلس في المقعد المجاور لسائق السيارة وتوجه إلى المكان الذي خرج منه منذ قليل. توقفت السيارة أمام مطعم شعبي، دخل رجب المطعم متوجهاً حيث الحمامات، وهناك فتح باب صغير يفضي إلى غرفة صغيرة. تجاوزها مسرعاً، فتح باباً أخر يؤدي إلى سلَّم خشبي متحرك، تسلق السلم ووقف عند طرفه، مد يده وسحب كيساً بلاستيكاً كبير الحجم. كان الكيس ثقيلاً بعض الشيء، حاول رجب التماسك وهو ينوء تحت ثقل الكيس. هبط درجات السلم الخشبية ببطء شديد حتى وصل الأرض بأنفاس لاهثة. رفع الكيس ووضعه على كتفه وعاد إلى سيارة الأجرة. طلب من السائق أن يضع الكيس في حقيبة

السيارة، بعد أن أخبره بأن الكيس يحتوي على الخبر الجاف، اشتراه من المطعم بمبلغ زهيد. كان الكيس يحتوي على الخبز الجاف بالفعل، ولكنه كان يحتوي أيضاً على رزم المال التي يجب نقلها إلى بيت حميد هلال، والحقيقة أن رجب لم يشاهد المال بداخل الكيس، فلقد أعده رجال الشيخ طه منذ فترة، وقاموا بربط فتحته بإحكام بعد أن أعدوه بطريقة " البوري " وهي طريقة اعتاد الفلاحين استخدامها في غش محاصيلهم التي يبيعونها على أنها محاصيل زراعية من الدرجة الأولى. يحضرون الكيس الذي سيحتوي المحصول، يضعون في أسفله جزء من المحصول الجيد، ثم يضعون في وسطه أنبوباً مفتوح الطرفين يعتمد قطره على كمية المحصول التالف المراد خلطه مع الجيد، ثم يقومون بملء الفراغ بين الكيس ومحيط الأنبوب أو "البوري" حسب اللهجة العراقية، بالمحصول الجيد، بعد ذلك يضعون المحصول التالف داخل الأنبوب وحين يمتلئ، يقومون بسحب الأنبوب ليضعوا جزءاً من المحصول الجيد فوق الخليط، ثم يقومون بخياطة فتحة الكيس، وبهذا يكون من الصعب على من يشتري البضاعة كشف غشها. وهذه الطريقة في الغش، هي التي استخدمها رجال الشيخ طه أو "ماهر حامد" في تجهيز كيس المال والخبر الجاف (اليابس)، وتلك الطريقة جعلت من العراقيين يطلقون مقولة يستخدمونها حين يتعرضون للغش، فيقولون "فلان ضربني بوري" أي أنه غشني.

وصلت سيارة الأجرة أمام بيت العقيد حميد هلال عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، كان الطريق بين ناحية الحصوة ومدينة بغداد سالكاً بعض الشيء، فلم تتوقف سيارة الأجرة سوى ثلاث مرات، الأولى كانت برغبة رجب حين طلب من السائق التوقف عند حافة الطريق ليلقي النظرة الأخيرة على جثة علاء المرمية هناك.

عندها ابتعدت بعض الكلاب السائبة حين توقفت السيارة لثوانٍ ثم انطلقت، وتوقفها الثاني كان عند مدخل مدينة اليوسفية الشمالي، كانت هناك سيطرة أمنية نصبها رجال الشرطة، مرت السيارة بسلام دون أن يتم تفتيشها، أما التوقف الثالث فكان في مدينة السيدية المجاورة لمنطقة البياع، وكان التوقف بسبب الزحام الذي أحدثه طابور طويل لسيارات يروم سائقوها الحصول على البنزين.

استقبلته افتخار بوجه ضاحك يملأه الفرح، سأل عن سيده فأخبرته أنه خرج قبل ساعة، قال إن لديه اجتماعاً مهماً. وضع الكيس البلاستيكي على الأرض. نظر إلى شهلة وألقى عليها التحية، ثم سأل عن الحقيبة المخبأة تحت الأريكة. أشارت افتخار إلى مكانها. جلس على الأرض، ثم مال برأسه حتى لامست بعض شعرات رأسه بلاط الأرض البارد، سحب الحقيبة على مهل، فتح جيبها الأمامي واخرج جهاز التحكم الصغير، حمل الحقيبة حيث الباب ليضعها هناك ويعود إلى جانب افتخار التي طلبت من شهلة أن تعد له وجبة إفطار، وحين غابت الصبية حيث المطبخ، حظيَ رجب بقبلة ساخنة من شفتي حبيبته، ثم أخبرها أن لا وقت لديهما لإتمام ما اتفقا عليه، فتح غطاء جهاز التحكم كي يتأكد من عدم وجود البطارية المشغلة له، كانت البطارية الصغيرة في جيبه منذ أن تسلمها من سلمان ليلة أمس، جلس على الأريكة وسأل:

- كيف هي استعداداتك؟ هل جهزتِ كل شيء؟

- كل شيء جاهز...

قالت افتخار وهي تحتضن حبيبها، ثم همست بأذنه قائلة:

- في حوزتنا الآن خمسون ألف دولار، لقد ترك حميد عندي

حقيبة صغيرة تحتوي على المبلغ، وقال إنه سيأخذها غداً حين عودته من بيت زوجته الأولى.

- هذا خبر عظيم، يعني أنه لن يبيت هنا الليلة؟

- لا، هناك أمر هام في بيته الثاني.

- بمناسبة المبلغ، تعالي معي لنفرغ هذا الكيس الذي قصم ظهري، لنرى ما به... أنا على ثقة أنه يحتوي على مبلغ كبير من المال.

قامَ الاثنان بفتح الكيس فتبين أن هناك ثلاثة أكياس متداخلة مع بعضها، كان ذلك واضحاً من خلال الثلاث عقد المتتالية التي فتحها رجب، وعندما فتح العقدة الثالثة ظهرت كسر الخبز الجاف. قلب الكيس على الأرض فتناثرت قطع الخبز وسقطت كتلة كبيرة ملفوفة بورق أسمر مربوط بشريط لاصق غطى المساحة الورقية كلها، أخرج رجب شفرة قطع الورق من جيبه. تلك الشفرة التي يستخدمها في حماية نفسه منذ زمن طويل حين يغيب السلاح من بين يديه. قطع الشريط اللاصق بحذر ومزق الورق فظهرت رزم من الدولارات. كان عددها خمسين رزمة، وكل رزمة تضم مئة ورقة من فئة المئة دولار، أي بما يطلق عليه العراقيون "الدفتر"، والدفتر هو عشرة آلاف دولار، أي أن رجب كان يحمل على كتفه نصف مليون دولار. يبدو أن الشيخ طه قد اتفق مع حميد على تسليمه نصف المبلغ، ثم يتسلم النصف الثاني بعد أن يتم تسليم المرأة الدنماركية له. أمر رجب بحمل الأوراق داخل غرفة النوم، وطلب من افتخار أن تجهز مكاناً آمناً تضع فيه المبلغ. نادت شهلة على سيدتها لتخبرها بأن إفطار رجب أصبح جاهزاً، ولكن رجب رفض تناول الطعام لضيق وقته. خرج إلى الشارع واستأجر سيارة أجرة، عاد بها

إلى البيت ليأخذ حقيبة المتفجرات التي أُعدَّتْ ليلبسها كحزام ناسف تحت ثيابه، ولكنه لم يفعل هذا وراح يحمل الحقيبة بكاملها. ودع افتخار بحرارة، قبَّل عنقها وشفتيها. نظرت بعينيه وذرفت دمعتين ساخنتين، استدار إلى الخلف واتجه صوب سيارة الأجرة التي تنتظره.

❖

دخل رجب المقهى الشعبية حسب التعليمات، كانت المقهى مزدحمة. حركة دائمة. أشخاص يدخلون وآخرون يخرجون، عامل المقهى يتجول بين حين وآخر ليجمع الأقداح الفارغة، أو ليوزع الشاي على الزبائن. الجميع في حركة وأحاديث. طاولات مربعة وأخرى مستديرة تتوزع حولها عدد من الكراسي. لاحظ رجب أن هناك كرسي في الوسط تماماً لم يشغله أحد، وهناك رجل في الخمسين من عمره يجلس إلى الطاولة منشغل بقراءة صحيفة. اقترب رجب من الطاولة التي يشغلها الرجل الخمسيني وهو يحمل على كتفه اليمنى حقيبة مدرسية كبيرة الحجم بعض الشيء.

- أتسمح لي؟

قال رجب مشيراً إلى الكرسي.

- على الرحب والسعة، تفضل!

قال الرجل.

- شكراً.

أخذ مكانه على الكرسي ثم وضع حقيبته في حجره وقال:

- المقهى مزدحمة وليس هناك مكان لشخص واحد...

ابتسم واستمر قائلاً:

- بعد أن شغلت أنا هذا الكرسي بالطبع.

- الواحد يعود في الأصل إلى الجماعة، لذا فمن الطبيعي أن ينضم إلى الآخرين.

- ماذا تقصد؟

سأل رجب وعلامات الاستغراب على وجهه، فأجاب الرجل مبتسماً:

- أقصد أن الإنسان ابن المجتمع، وهو أيضاً ابن العائلة، ولذا فهو واحد من مجموع، وحين يكون وحيداً ولا يجد بداً من أن ينضم إلى الجماعة كما أنت عليه الآن، فالأمر يبدو طبيعياً جداً.

- أستطيع أن أفهم ما تريد قوله، على الرغم من أن كلامك لا يخلو من الغرابة!

- حسناً، المهم أنك فهمت الإشارة.

سحب الرجل صحيفته وعاد إلى القراءة.

- لماذا هذه المقهى مزدحمة جداً، وهل هذا حالها دائماً؟

هكذا سأل رجب، فرفع الرجل رأسه وقال:

- هنا يجتمع الناس من كل الفئات، شباب رائعون مثلك وشيوخ من أمثالي، عمال ينتظرون من يطلبهم للعمل ليؤمنوا لقمة عيشهم، أطفال، باعة متجولون، موظفون، مهنيون، طلاب جامعة، مثقفون، والكثير غيرهم من المارة والزوار، وهناك مَنْ يتخذ من هذه المقهى محطة انتظار أو استراحة لوقت قصير.

- ولكن لماذا تزدحم هذه المقهى دون غيرها من المقاهي؟

- هذه المقهى هي مسقط رأس المدينة...

قال الرجل بشيء من الاعتزاز، فسأله رجب ببعض من الدهشة:

- أية مدينة؟

- المدينة التي نحن فيها، المدينة التي تضم هذه المقهى وغيرها من الأماكن العامة. هذه المقهى، أو على الأصح، هذا المكان، هو أول مكان تجمع فيه حفنة من الناس منذ زمن بعيد، كان عددهم لا يزيد عن السبعة، تجمعوا تحت ظلال شجرة سدر كانت تقف شامخة هنا، في هذا المكان، وسط المقهى تماماً، حينها اتفقوا على أن يبنوا أكواخهم على بعد بضعة أمتار من الشجرة بعدما وجدوا أن المكان جميلاً، وأرضه خصبة ولا يبعد عن النهر كثيراً. بعد فترة وجيزة من الزمن أصبحت الأكواخ السبعة تحيط بشجرة السدر التي صارت مكان تجمعهم في أوقات الفراغ خصوصاً عند المساء.

- أنت تحدثني عن تاريخ هذه المدينة، أليس كذلك؟

- بالضبط.

- إذاً، أنت عارف بالتاريخ؟

- ليس بالشكل الذي تتصوره، فالتاريخ بحر مترامي الأطراف، وليس هناك من يعرفه بشكل شامل.

- ولكنك على الأقل تعرف تاريخ هذه المدينة؟!

- بالتأكيد فأنا حفيد أحد الرجال السبعة الذين حدثتك عنهم، أنا ابن هذه المدينة...

تقدم نادل المقهى من الطاولة حاملاً قدحين من الشاي وضعهما أمام رجب وجليسه واستدار ليلبي طلبات الزبائن المتكررة.

- وهل كل أبناء المدن يعرفون تاريخ مدنهم؟

سأله رجب وكأنه يتلقى معلومات قيمة لأول مرة، فقال الرجل:

- هذا هو المفروض، فالمعرفة واجبة، ولكن قد تظهر الحقيقة غير ذلك... بالمناسبة أنا أستاذ مادة التاريخ في مدرسة هذه المدينة، وأستطيع أن اعرف بأنكَ لست أحد أبنائها.

ظهرت علامات الارتباك على رجب وقال:

- ولكن لم تقل لي، من أين جاءوا الرجال السبعة ليسكنوا هذه الأرض؟ وكيف اختفت الشجرة لتحتل هذه المقهى محلها؟

- الشجرة اختفت من على الأرض فقط، ولكن جذورها باقية غاية الآن، ويمكنك أن تتأكد من ذلك...

قال الرجل مبتسماً وأضاف:

- فما أن تحفر في الأرض حتى تجد الجذور. والمقهى لم تحتل مكان الشجرة، بل إنها تأسست تحت ظلالها، حين صار الرجال السبعة وأولادهم ومن ثم أحفادهم يجتمعون تحتها. أما سؤالك عن الرجال السبعة ومن أين أتوا. فالحقيقة أنهم لم يأتوا بمفردهم، بل كانوا يصطحبون عائلاتهم، أتوا إلى هذا المكان من مناطق ليست بالبعيدة، مناطق تنتمي إلى نفس الأرض والسماء التي تنتمي إليها هذه المدينة، ولكنهم قرروا الرحيل عن أماكنهم السابقة عندما أصبحت المياه في مدنهم شحيحة، وعدد الذئاب التي كانت تفتك بهم وبماشيتهم كثيرة.

– هذا يعني أن الذين بنوا هذه المدينة هم من الغرباء!

ابتسم الرجل بغضب وقال:

– كيف يكونون غرباء على أرض هي جزء من بلدهم؟ فهم لم يأتوا من بلد آخر، إنهم انتقلوا من مناطق معروفة إلى أرض غير معروفة باسم معين، الاسم فقط، اشتغلوا بها وجعلوها أرضاً تطرح الخير الوفير. جعلوا لها اسماً وتاريخاً وميزات. كيف يكونون غرباء وهم أول من سكنها؟

– لا عليك أستاذ، أرجو أن تعذر لي جهلي، فعلى الرغم من أني أعرف القراءة والكتابة بشكل بسيط، إلّا أني أنتمي إلى جيل التعساء في هذه الأرض، التعساء الذين لم يسعفهم الحظ في الجلوس على مقاعد الدراسة كما ينبغي، ولكني في الوقت نفسه أعرف الكثير عن هذه الحياة بالرغم من صغر سني، فلقد علمتني الأيام كيف أؤمن لقمة عيشي. أستطيع أن أختطفها لو كانت في جوف أسد.

– للأسف، الحروب والموت اليومي جعل نسبة الذين ينتمون إلى عالمك عالية جداً في مجتمعنا، الحروب تصنع الأيتام والأرامل، تجعل من لقمة العيش الغاية والوسيلة في آن واحد، فتتلاشى رغبة التعلم والإحساس بأهميته.

– ولكن هل تعرف بأني أحببتك جداً؟ فكلامك ومعرفتك جعلتني أحترمك بشكل خاص!

– شكراً يا بني...

قال الرجل، ثم أشار إلى نادل المقهى الذي يقف بجوار وجاهه قائلاً:

- لو سمحت، أرجو أن ترفع صوت المذياع قليلاً، فنشرة الأخبار قد بدأ بثها.

اتجه النادل صوب المذياع وأدار مفتاح الصوت ليعلو صوت المذياع وهو يعلن:

" صرحت المصادر الأمنية صباح هذا اليوم الخميس بأن أكثر من ثلاثين عراقياً بينهم أطفال ونساء وشيوخ قد استشهدوا هذا الصباح جراء انفجار سيارة مفخخة يقودها انتحاري أمام مستشفى قضاء المحمودية جنوب بغداد، وقال المصدر إن الانفجار قد خلَّفَ وراءه بالإضافة إلى عدد الشهداء، أكثر من ستين جريحاً. حدث هذا بينما كان الضحايا مجتمعين عند بوابة المستشفى بانتظار السماح لهم بالدخول لزيارة مرضاهم الراقدين في ردهاتها. " ارتسمت ابتسامة على محيا رجب وقال في سريرته:

- لقد فعلها سلمان، مهندس التفخيخات، في الأمس تهشم رأس علاء، واليوم تهشمت سيارته.

ثم طرح سؤالاً على الرجل:

- من أين أتت كلمة انتحار؟

رفع الرجل رأسه بعد أن أطرقه مستمعاً إلى نشرة الأخبار وقال:

- لماذا تريد معرفة مصدر كلمة أصبحت نتائجها فوق ما نحتمل؟ أليس من الأفضل أن نفكر بها كنتيجة أو كمرض يفتك بنا؟

- لك هذا، ولكن، ألم يكن الانتحار موجوداً قبل أن نعرف المتفجرات والسيارات المفخخة؟

- نعم، هذا صحيح...

قال الرجل وأضاف:

- في السابق كنا نسمع بأناس ينتحرون، كنا نسمع بهذا في فترات زمنية متباعدة جداً، ربما مرة كل عامين أو ثلاثة، وأغلب حالات الانتحار التي سمعنا بها من قبل، كانت بسبب المشاكل العاطفية أو المعيشية، ولا يروح ضحيتها سوى الشخص المنتحر، وهناك وجوه متعددة أخرى للانتحار.

- ماذا تقصد بالوجوه المتعددة؟ الانتحار واحد، هو أن ينفذ الشخص قراره بنفسه حيث الموت الذي لا رجعة منه إلى هذه الدنيا الفانية.

- أقصد بالوجوه المتعددة، الأسباب التي تدفع الروح البشرية إلى اتخاذ مثل ذلك القرار، وأرجو ألا تعتقد بأن هذا يأتي اعتباطاً أو في وقت قصير! الإنسان يا عزيزي يسعى دائماً إلى مستقبله، إلى تحسين صورة مستقبله، وهو يعرف تماماً نهايته أو مصيره، وفي الوقت الذي يصبح عقل الإنسان عاجزاً عن رؤية المستقبل كما يحب ويتمنى، عند ذلك تكون نقطة البداية للوصول بأسرع وقت ممكن إلى النهاية حيث المصير الذي نعرفه جميعاً.

- الموت نتيجة الانتحار!

- نعم، الموت نتيجة قرار الانتحار، ولكن هناك فرق كبير بين الانتحار الذي كنا نعرفه سابقاً، وانتحار اليوم الذي لم نعرف حقيقته حتى الآن. هناك حقيقة علمية تقول بأن المشاكل والإحباط والجزع والمرارة والكثير من منغصات الحياة، تدفع العقل الباطن أحياناً إلى إصدار أوامر غير مباشرة إلى الإنسان توحي له بضرورة تبني فكرة الانتحار، نجد أن المريض مثلاً يرفض العلاج، أو

يذهب صاحب المشكلة إلى الكحول والإدمان، أو يعتاد على أكل أشياء مضرة وخطيرة على حالته المرضية أقصد الصحية، وهذا تماماً ما يفعله بعض الأشخاص دون أي تفكير بالنتائج، ودون معرفة الدوافع الحقيقية لتصرفهم هذا كونه أحد طرق الانتحار.

- أكيد، أكيد...

قال رجب وهو يوحي إلى أنه قد فهم كلام الرجل، رغم أنه لم يفهم شيئاً، ثم أضاف:

- هذه أمور مهمة على الإنسان أن يعرفها!

- ولكن هناك نوع جديد أو وجه جديد من الانتحار عرفناه منذ فترة وجيزة...

ابتسم رجب وقال مستفهماً:

- نوع جديد، بالله عليك قل لي ما هذا النوع؟

- الانتحار بالوهم.

صمت الرجل لثوان ثم أضاف:

- نعم، الوهم الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار، وهذا أيضاً لا يأتي اعتباطاً أو بوقت قصير، الانتحار بالوهم يحتاج أولاً إلى عقل بسيط، ساذج، غير متعلم، ومن ثم دروس تجعل ذلك العقل في إغفاءة تامة، تماماً كالتنويم المغناطيسي، دروس توهم العقل بأنه سوف يحصل على ما يريد، كل ما يريد، المال والجمال والمتعة وكل شيء يحلم به شريطة أن ينفذ قرار الانتحار. ولكن هل تعلم بأن هناك فترة زمنية قصيرة جداً لا تتعدى بضع ثوان يندم فيها المنتحر على فعلته ويتمنى لو أنه يستطيع العدول عن قراره؟... إنها

الفترة المحصورة بين تنفيذ القرار والموت، وبهذا يكون كل الذين انتحروا، قد ماتوا نادمين.

- ولكن الموت أمر لا مفر منه، وهو مكتوب على الإنسان، هو حقيقة. أنا مثلاً أعرف بأني سأموت عاجلاً أم آجلاً، فلماذا أخشاه؟

نظر الرجل صوب رجب وكأنه يحاول أن يكتشف حقيقة بعض شكوك راودته للتو، وقال:

- إذا كنت تعرف بأنك ستموت عاجلاً أم آجلاً، فلماذا تفكر بالموت، دعه يأتيك في حينه، والتفت إلى الحياة التي تريد منا نحن البشر، أن نجعلها بأحلى صورها، أن نعمل وننتج ونخطط إلى المستقبل، مستقبل ينعم به أطفال اليوم. علينا أن نحرص على ألا تتكرر ظاهرة جيل الأيتام كما نحن عليه الآن. علينا أن نصنع مستقبلاً جميلاً، خالياً من الخوف والمرض والجوع. على الإنسان قبل أن يغادر هذه الحياة أن يترك بصمته فيها، أن يعطيها حقها.

- على الحياة أن تعطينا حقنا أولاً، ثم نعطيها ما تريد بعد ذلك...

قال رجب، ثم استدرك وكأنه تذكر شيئاً مهماً:

- هذه الحياة فانية، فهي عندي لا تساوي أي شيء، أما الموت، فأنا لا أخافه، أنا لا أخاف من أي شيء سوى الله سبحانه وتعالى.

ضحك الرجل بصوت مسموع وقال:

- الخوف هو سر بناء وتطور هذه الحياة، وكل إنسان يدعي

عدم الخوف، هو إنسان كاذب، الخوف يا عزيزي هو الذي أرشد الإنسان إلى الاحتماء بالكهوف، وأرشده لصنع آلات الصيد لتكون أسلحة يدافع بها عن نفسه ويصطاد بها طعامه كي لا يموت جوعاً، الخوف هو الذي جعل الإنسان يتمسك بتكوين الأسرة ومن ثم العيش بين تجمعات بشرية تؤمن له ولغيره الحماية من الهلاك، الخوف يا عزيزي ميزة إنسانية مهمة وجميلة في الوقت نفسه.

- أرى أنك رجل جدير بالاحترام، فأفكارك النيرة ومعلوماتك الهائلة جعلتني أنجذب إليك...

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة سرعان ما تحولت إلى ضحكة مسموعة لن تثني رجب من الاستمرار بكلامه فقال:

- ولكن هل أفهم من كلامك بأنك تخاف، أقصد تعترف بأنك إنسان يتملكه الخوف؟

- نعم، أنا أخاف، وهناك خوف مرير يعتمر داخلي منذ فترة، أخاف على هذه المدينة من الانهيار، أخاف على تلاميذي من اليتم وعلى أطفالي من الانحراف والوقوع في هاوية الجريمة، أخاف على أشجار المدينة من أن تحترق أو تقتلع، أخاف من اللصوص وقطاع الطرق ومزوري الحقائق، هناك أمور كثيرة على الإنسان أن يخشاها ويحمي نفسه جيداً تحسباً لوقوعها.

رمقه رجب بنظرة إعجاب مفتعلة وقال:

- هل تصدق إذا قلت لك بأنني لم ألتفت أو أنظر يوماً بشيء من الإعجاب إلى شجرة أو مكان أو أي شيء آخر، ولم أعرف الخوف في حياتي؟

شزره الرجل وهو مطرق الرأس، بعد أن تأكد من صحة ظنونه

التي كانت تساوره حول الفتى الذي يجلس أمامه، كان يشك أن دواخل الفتى تعتمر شيئاً ما يثير الريبة. ابتسم وقال:

– دعني إذاً أحكي لك هذه الحكاية البسيطة... يحكى أن شاباً كان لا يعرف الخوف ولا يعير للأشياء التي تحيط به أي اهتمام، بل كان علاوة على ذلك، شقياً متمرداً، لا يحترم بشراً أو قانوناً، وهذا ما أدى به إلى ارتكاب جريمة قتل. حُكِمَ على أثرها بالإعدام شنقاً، على أن ينفذ الحكم في المكان الذي ارتكب فيه جريمته، كان ذلك المكان وسط المدينة تماماً، وبعد أن قضى الشاب عدة أيام في السجن، وحان وقت تنفيذ الحكم، اقتاده رجال الشرطة مشياً على الأقدام من مركز الشرطة الذي يقع في الطرف الغربي للمدينة إلى مكان تنفيذ الحكم حيث سوق المدينة. عندها أخذ الشاب وهو يقطع طريقه باتجاه الموت، ينتبه إلى كل شيء. انتبه إلى الطريق والأشجار والساقية، شعر بجمال الأشياء، وكانت الدهشة تعتريه، ثم جال في خاطره سؤال "لماذا لم أعرْ هذا الجمال أي اهتمام سابقاً؟" أخذ يتطلع في وجوه الناس، وراح يبتسم إلى كل شخص تقع نظراته عليه، وكان من بينهم مَنْ تعرض إلى أذيته ومضايقاته. وعند وقوفه تحت دائرة الحبل، قال كلمته الأخيرة التي ظلت عالقة بأذهان الناس "امنحوني فرصة أخرى كي أكون لكم خادماً مطيعاً وأكفِّر عن خطاياي، امنحوني هذا أيها الطيبون" ثم تأرجح جسده في الهواء بعد أن ضاق الحبل على رقبته.

كان رجب يستمع بإصغاء تام وعلامات الدهشة واضحة عليه، فقال بشيء من الدهشة:

– بالله عليك قل لي، من أين أنت؟ إلى أية ملة أو جماعة تنتمي؟ لماذا لم ألتقِ بكَ من قبل؟

- أنا ابن هذا البلد، ابن هذه المدينة التي ولدت فيها، لا أنتمي إلى جماعة أو ملة غير أبناء جلدتي من البشر، فأنا رجل حر، لم أسمح في حياتي إلى أي شيء يمتلكني، لا أشخاص ولا حتى فكرة، وبهذا أكون ذات نظرة خاصة محايدة... محايدة.

شدد الرجل على كلمة محايدة، فقال رجب:

- أريد أن أبوح لك بسر، فأنت رجل تمكّن من نيل إعجابي واحترامي بكل تأكيد. إن ذلك الشاب الذي اقتيد إلى الإعدام، يشبهني تماماً، فأنا لا أتذكر يومياً بأنني شاهدت منظراً جميلاً. ولم يدهشني شيء من قبل، ولم يسبق أن شدني منظر جميل، لأنني وبصراحة لا أعرف ماذا يعني الجمال وكيف يستطيع الإنسان أن يجده، علاوة على ذلك فلقد نال مني الكثير من الناس الأذى والتطاول والإهانة، حتى والدي وأفراد عائلتي لم يسلموا من شروري.

طأطأ رأسه خجلاً. كانت حركته صادقة جداً، حيث أتت بعفوية تامة، بينما ظهرت على الرجل علامات الدهشة، ثم شرع رجب يكمل حديثة فقال:

- وقد قررت الانتحار وعزمت عليه منذ شهور، ولكن كلامك لي وما حمله من معنى ساحر يفيض بحب الحياة، جعلني أنظر إلى هذه الدنيا بمنظار آخر، جعلني أمحو من ذهني فكرة الانتحار، وهذا أمر عظيم ومهم، لذلك قررت أن أهديك شيئاً أعتقده يليق بك وبأفكارك النيرة العظيمة.

- شكراً لك، أرجو ألا تفكر بالهدية، فلقد وصلتني منك أجمل هدية، هي عدولك عن فكرة الانتحار.

– لا، أرجوك ألا تردني عن عزمي بإهدائك الشيء الذي فكرت به، أنت رجل عظيم تستحق الاحترام والتبجيل، رجل يجب أن توضع بأعلى مرتبة في هذه الدنيا، سوف أهديك شيئاً ساحراً لم يسبق لك أن رايته في حياتك.

نهض رجب تاركاً حقيبته على الأرض بعد أن دفعها بقدمه لتكون بأقرب نقطة ممكنة من الرجل، أمسك بكتف الرجل وقال:

سوف أغيب لدقائق معدودات وأعود بعدها لأقدم هديتي لك، أرجوك أن تنتظرني، هل اتفقنا؟

– يا عزيزي أنت تخجلني، أرجوك ألا تكلّف نفسك.

– لا عليك، دقائق فقط.

اتجه صوب باب المقهى ثم استدار جهة اليمين. وقف بعد عدة خطوات. أخرج جهاز صغير من جيبه، فتح غطاءه ثم أدخل البطارية الصغيرة داخله وأعاد الغطاء، اقترب من الرصيف وأشار بيده إلى سيارة أجرة. توقفت السيارة وأخذ رجب مكانه إلى جانب سائقها، وحين أخبره الوجهة التي يقصدها، دارت عجلات السيارة وقطعت بضعة أمتار، كان جهاز التحكم في كف رجب الأيمن، رفعه إلى جانب أذنه اليمنى كي لا يراه سائق سيارة الأجرة، ضغط على الزر. دوى صوت انفجار رهيب هز الشارع والمباني، عندها صرخ رجب بصوت عالٍ:

– تحرك!... تحرك بسرعة!... يبدو أن هناك سيارة مفخخة قد انفجرت، الله أكبر، الحمد لله رب العالمين، لقد نجانا الله من الموت، لقد كنا واقفين بجانب المكان...

كان الفزع ظاهراً على رجب بشكل مخيف، فلقد تغير لونه

وارتعش جسده، ومثله كان سائق السيارة الذي تملكه شعور مفاجئ بأن من يجلس إلى جانبه قد بعثه الله بالوقت المناسب، فقال بعد أن قطع مسافة لا بأس بها مبتعداً عن مكان الانفجار:

- الحمد لله يا أخي، يبدو ان الله بعثك لي كي تنجيني من الموت، فلو لم أتحرك، لو تأخرت ثواني فقط، لكنت وإياك في عداد الموتى. شكراً لك يا ربي، يبدو أنها بركات أطفالي المساكين، صدقني يا أخي لو مرضت أو تعذر عليَّ الخروج للعمل يوماً واحداً، سيكون حال عائلتي مزرياً جداً، فكيف إذاً لو فارقت الحياة وتركتهم؟

◆

على الرغم من أن حديث الرجل الذي أصبحت أشلاؤه متناثرة في جميع زوايا المقهى، مختلطة بأشلاء أبناء جلدته، من الفقراء والمساكين وبجذور شجرة السدر مسقط رأس المدينة إلى الأبد، كان حديثاً شيقاً، إلا أن الهدف الذي كان يبتغيه رجب من إطالة الحديث معه، هو بحثه عن أشلاء تكون بديلة عن أشلائه، كان يريد شخصاً آخر ينوب عنه، شخصاً يعيره أجزاء جسده دون أن يدري. لقد قرر رجب أن يموت "شهيداً" ويحيا حراً، شهيداً بنظر مرؤوسيه وعصاباتهم، وحراً بطريقته التي خطط لها.

توقفت سيارة الأجرة عند منطقة "حافظ القاضي"، حيث موقف سيارات الأجرة المشتغلة بين عمان ودمشق وبغداد. مد رجب يده بمبلغ مالي إلى السائق، وحين شاهد الرجل المبلغ رفضه على الفور، فكيف يأخذ الأجرة من شخص أنقذ حياته، هكذا قال الرجل المسكين وانطلق بسيارته ليلتقط زبوناً آخر بعد أن كتب الله له الحياة على يد الشاب المفزوع.

اتجه رجب صوب بناية البنك، وقبل أن يصلها بأمتار قليلة قابل شاباً في العشرينيات من عمره.

- هل أنت جاهز؟

- نعم، على أتم الاستعداد.

- وماذا عن السيارة، هل هي جاهزة من جميع الجوانب؟

- بالتأكيد وسوف ترى بعينك.

قال ذلك الشاب الذي قابله رجب. كان واقفاً جنب سيارة شوفرليت نوع " دولفين " وهو نوع عرفه العراقيون في السنوات الأخيرة، أخذ الشابين مكانهما داخل السيارة وانطلقا حيث وجهتهم المتفق عليها، أخرج رجب تلفونه المحمول. استبدل شريحة المعلومات بشريحة أخرى. رمى الأولى من النافذة حيث الشارع وضغط عشر ضغطات على لوحة المفاتيح.

- ألو، كيف أنتِ حبيبتي؟... هل أنتِ جاهزة؟... كل شيء جرى حسب الاتفاق، سوف أكون عندك بعد نصف ساعة... مع السلامة.

ضغط على زر الإقفال وصوَّب نظره إلى الشاب الذي يقود السيارة، سأله إن كانت الدفاتر بحوزته. أجاب الشاب بالإيجاب وأشار إلى مكانها حيث الخزانة الصغيرة أمام رجب. فتح الخزانة واخرج جوازي سفر. نظر بهما مقلباً صفحاتهما. ابتسم وأثنى على الجهود الاستثنائية التي بذلها الشاب الذي يجلس إلى جانبه.

وصلت سيارة " الدولفين " إلى بيت حميد هلال قرابة الساعة الواحدة بعد الظهر. ترجل رجب واتجه صوب الباب الحديدي،

فتح الفلقتين، وأشار إلى السائق بالدخول إلى المرآب، وحين صارتا فلقتي الباب وراء السيارة، قام رجب بإغلاق الباب مرة أخرى. خرجت افتخار لاستقباله، كانت تحمل حقيبتين صغيرتين، تبعتها شهلة وهي تحمل أكياساً بلاستيكية. فتح الشاب حقيبة السيارة الخلفية ووضع بداخلها ما حملته افتخار ومن بعدها شهلة. خرج رجب من الداخل وهو يحمل حقيبة كبيرة بنية اللون، ثم عاد بعد أن تأكد من أن افتخار وشهلة قد أخذتا مكانهما داخل السيارة. وبعد عدة دقائق خرج وعلى كتفه حقيبة كبيرة أخرى سوداء اللون. وضع الحقيبة داخل صندوق السيارة واغلق الغطاء. توجه إلى الباب الحديدي ليفتحه مرة أخرى وتخرج السيارة. أعاد الباب إلى وضعه السابق وأخذ مكانه إلى جانب الشاب السائق، لتنطلق السيارة حيث وجهتها...

◆

صباح هذا اليوم، وحين توقفت سيارة الأجرة التي كانت تقل رجب وكيس الخبز اليابس عند نهر شيشبار، ليلقي رجب نظرة على الجثة الملقاة إلى جانب الطريق، لاحظ سائق السيارة التويوتا الذي كان يسير خلفهم بمسافة تقارب نصف الكيلومتر، أن سيارة الأجرة انحرفت قليلاً صوب حافة الطريق، ثم سرعان ما عادت لتأخذ طريقها صوب مدينة المحمودية. في بداية الأمر ظن سائق التويوتا، أن سائق السيارة التي أمامه ربما يكون سكراناً، أو قد أخذته غفوة لثوان، ولكنه، وعند اقترابه من المكان، لا حظ كتلة داكنة اللون إلى جانب الطريق الأسفلتي، وعلى مسافة قريبة منها تجمع لكلاب سائبة. خفف سرعة سيارته مجازفاً، ليرى... المجازفة كانت كبيرة، فالمنطقة مشهورة بخطورتها، وهي تمثل قلب المكان الذي أطلق

عليه اسم " مثلث الموت " منذ زمنٍ مضى. اقترب أكثر ليشاهد جثة بشرية ملقاة على الأرض، عندها صار الرجل متيقناً أن سيارة الأجرة التي شاهدها منذ قليل، هي التي رمت الجثة. توقف، وترجل متجهاً صوب الجثة، ألقى عليها نظرة، كانت مشوهة في بعض الأماكن، نظر إليها، ثم راح يجول بنظره على طرفي الشارع، عله يشاهد سيارة شرطة أو دورية عسكرية ليخبرهم بما شاهده. نقل نظرته إلى الجثة مرة أخرى، انتبه إلى الملابس التي كانت الجثة بداخلها، ثم وقع نظره على فردتي الحذاء، تمعن بهما جيداً وعرف أنهما نوعية أجنبية ممتازة، رفع نظره مرة أخرى عسى أن يجد أحد يخبره بما شاهده، ولكن المنطقة خطرة، ولا أحد يجرؤ على التوقف، انحنى ومد يديه صوب الحذاء البني الفاخر نوع " إيكو "، وأنتزعهما من قدمي القتيل، ثم توجه إلى سيارته. رمى فردتي الحذاء في صندوق سيارته وعاد إلى مكان الجثة. فكر أن ينقلها إلى مركز الشرطة أو مستشفى المحمودية، كي يخلصها من نهش الكلاب السائبة، أشار أكثر من مرة إلى المركبات التي تمر به مسرعة، ولكن دون فائدة، وأخيراً قرر أن يسحل الجثة إلى سيارته ويدخلها الحوض الخلفي، لينقلها إلى المستشفى. مسك القدمين، وحاول أن يسحلها، ولكنه توقف بعد أن شعر بوجود شيء غير طبيعي محصور بين الجورب وقدم القتيل، تحسسه، وتيقن من وجوده، خلع الجورب فوجد ورقة مطوية. أخذ الورقة، نظر إليها، دسها في جيبه دون أن يفك طوياتها. حاول أن يسحب الجثة مرة أخرى، ولكنه عجز لثقلها، في تلك الأثناء مرت سيارة صغيرة بجانبه، كانت تسير بسرعة بطيئة جداً، نادى عليه الشخص الذي يجلس جنب السائق

- ماذا تفعل؟ ما الخبر؟

- هذا رجل قتيل، رمته سيارة أجرة هنا منذ دقائق، أرجوكم أن تساعدوني كي ننقل الجثة إلى المستشفى.

- هل أنت مجنون، اتركها وأذهب، ألا تخاف أن تُقتل وتصير جثة أخرى إلى جانبها؟!

- ولكن الكلاب السائبة سوف تأكل الرجل، وهذا حرام!

- يا أخي، الرجل قد مات، وروحه عند ربه الآن، فلماذا تخاطر بنفسك؟ وما سيفيد نقلك الجثة، هل ستعيد إليه الحياة؟

دب الرعب في قلب الرجل، وتبين أن ما يقوله الشخص صحيحاً، أفلت القدمين وتوجه صوب سيارته، وهو يقول " أنا فعلت الذي أستطيعه، والباقي عند الله ".

لم يفكر الرجل في الخوف حين توقف وترجل عن سيارته ليلقي نظرة على الجثة، فالشجاعة من خصاله، وهو يعرف الطريق جيداً، يقطعه يومياً مرتين، ذهاباً إلى عمله وإياباً إلى بيته حيث القرية العصرية التي يسكنها، وهو يعرف بعض الوجوه ممن يعملون ضمن الخلايا المسلحة، لذا فهو لا يهابهم كثيراً. والحقيقة أنه رجل شهم، حلو الطباع، وما تفكيره بالاحتفاظ بالحذاء الفاخرة الصنع، سوى أنه واحد من أبناء المجتمع الذي يعيشه وتربى بين ثناياه، تعلم كيف يجد المبررات السريعة والحاسمة كي يصب القرار في مصلحته. في تلك اللحظة قال لنفسه " الرجل قد مات، وسوف لن يستفيد من حذائه الجيد لاحقاً، فهيهات أن يقف على قدميه مرة أخرى، لذا عليَّ أخذ الحذاء والاستفادة منه ثواباً على روحه الطاهرة، وسوف أذبح لروحه مقابل ثمن الحذاء دجاجة أو ديك ثواباً له ".

انطلق الرجل بسيارته حيث مكان عمله في مدينة المحمودية والحذاء بحوزته، وفي جيبه الورقة المطوية التي نسيها لفترة من الزمن، وحين دخل بناية بلدية المحمودية حيث مكان عمله، رفع سماعة الهاتف وأتصل بمركز الشرطة ليخبرهم عن مكان الجثة، ولم يعطِ تفاصيل أكثر...

◆

في تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً، كان سلمان نائم إلى جانب فتحة الملجأ بعد أن احتسى نصف قنينة "العرق"، وكانت كميلة غارقة في نومها بعد نوبة بكاء مريرة، وانهيار نفسي استمر لساعات منذ أن سمعت الإطلاقات. وزادت حالتها سوءاً، حين لم يعد علاء إليها مع بداية المساء، وعلى الرغم من أن الجميع أخبروها أن الإطلاقات قد أطلقت على كلب مسعور أجرب، وأن علاء قد أخذ لينام في البيت المجاور، كي تتحسن حالته الصحية، إلى أن شعوراً مريراً كان يتلبسها.

في ذلك الوقت عبر رجب وافتخار والصبية شهلة، الحدود السورية بسلام، بعد أن دفع رجب مبلغاً من المال كي يتجنب التفتيش. دخل الثلاثة إلى الأراضي السورية بجوازات سفر عراقية وبأسماء غير أسمائهم كزوجين عراقيين لديهما طفلة واحدة تعاني من مرض مزمن، وهي بحاجة إلى العلاج المتوفر في سوريا.

الوحيد الذي لم يغمض له جفن، في ذلك الوقت وفي ذلك المكان الذي شهد العديد من الجرائم، هو توفيق الحاج مطرود، ظل يتقلب في فراشه، قلق، كان يفكر في كلام حميد هلال عندما طلب منه أن يزوجه إحدى الصبايا من بنات المنطقة المجاورة، أسوة بزملائه، فسلمان تزوج مؤخراً من صبيتين، حيث لم يمضِ

على زواجه الأول فترة الشهرين من صبية في الرابعة عشرة من عمرها، حتى تزوج بصبية أخرى في السادسة عشرة. أما رجب فلقد تزوج وطَلَّق بعد عدة أسابيع لأسباب خاصة لا يعرفها سوى عشيقته السمراء الفاتنة. ولم يبقَ غير توفيق، وكان المتعارف في تلك المنطقة، أن الجماعات المسلحة تجبر العوائل على تزويج بناتها إلى أعضائها، وحين تفشت تلك الحالة، صارت العوائل تخبئ بناتها داخل البيوت، ويحرمن من الدراسة أو الخروج لأي سبب كان.

كان الرد الذي سمعه توفيق من سيده حميد هلال حازماً وقاسياً جداً، قال له، أن حالته الخاصة، لا تسمح له الذهاب يومياً إلى القرية أو الحي السكني، فيما إذا استأجر بيتاً، والسبب يعود إلى الأعمال التي لا يستطيع أحد غيره القيام بها في هذا المكان، والأمر الآخر هو استحالة أن تعيش زوجته في مكان عمله، حرصاً على سرية العمل، وبهذا يكون حميد هلال قد أغلق جميع الأبواب بوجهه.

مد يده بين فخذيه، وراح يداعب رمز ذكورته متذكراً آخر مضاجعة له. تذكَّر مؤخرة زاهر متأوهاً.. فكر بحلب عضوه بعد أن انتعظ. ارتفعت حرارة في رأسه أغشت كل تفكيره، بدأت دقات قلبه تتسارع، وهو يفكر بالمرأة النائمة حيث الغرفة، نهض من فراشه وفتح الباب يختلس النظرات إليها وقضيبه بين أصابعه، تنحنح بصوتٍ خافت كي يتأكد من نومها، لم تحرك المرأة ساكناً. عاد إلى وسط الغرفة، دس يده تحت وسادته واخرج مسدس نوع "طارق بن زياد" عراقي الصنع، تعكَّز ماشياً بخفة متناهية صوب المرأة، وقف إلى جانبها، وتحسس أنفاسها، امرأة شقراء جميلة الوجه والجسد،

بيضاء كالقمر. في تلك اللحظة فكر بغضب سيده والعقاب الذي سينزله بحقه لو عرف بأنه قام باغتصاب الرهينة، تلاشى خوفه، واقتنع بسرعة مذهلة، أن لحظة المتعة تعادل حياته البائسة في هذا المكان، ارتمى على جسد المرأة النائمة، فأرتعد جسدها، استيقظت مذعورة، وحين فتحت فمها لتصرخ، دسَّ توفيق فوَّهة مسدسه في فمها، وقال لها بلغة يصعب عليها فهمها، أنه سيفرغ طلقات المسدس في فمها لو حاولت المقاومة، استسلمت المرأة تحت تهديد السلاح، واكتفت بمقاومة واهنة غير مجدية لأصابع توفيق وهو ينزع عنها ملابسها الداخلية، حتى استطاع أن يولجها ويفرغ سمومه داخلها بفترة زمنية قصيرة. لم يكتفِ بذلك، بل بقي على وضعه، كانت لحظة الشبق المسيطرة عليه أقوى من أن يفكر، وكأنه على يقين، من أنه سيدفع حياته ثمناً لتلك اللحظات، لذا قرر استثمار كل ثانية من زمن المتعة التي حلم بها طويلاً. ظل عضوه منتصباً وراح يرهز فوقها حتى خرج ماؤه مرة أخرى. رفع جسده المتهالك، وراح يحنجل على ساقٍ واحدة حيث السرير المجاور، جلس هناك وراح يبكي بصوتٍ مسموع وكانه يعتذر عن فعلته، أو أنه شعر بحقارة العمل الذي قام به، هكذا فكرت كميلة التي انتابتها موجة بكاء هي الأخرى، وضعت رأسها بين كفيها محتضنة انهيارها، لاعنة سوء حظها. نهضت بشكل هستيري، وراحت تضرب توفيق بكل شيء قربها، الأحذية والإبريق والوسادة حتى توقفت عندما شهر توفيق المسدس بوجهها. عادت إلى مكانها حيث السرير، وعاد توفيق إلى غرفة المطبخ، أغلق الباب، وأدار المفتاح داخل القفل، تمدد بجسده المرهق على فراشه الإسفنجي وغفا...

(21)

توجه حميد هلال إلى بيت العميد ناهض أثر مكالمة هاتفية أجراها معه صباح هذا اليوم، أخبره أن هناك أمراً خطيراً يريد أن يناقشه معه. الأمر لا يحتمل التأجيل، وتلك الكلمة كانت كافية كي يفهم حميد خطورة الأمر، وعند العاشرة صباحاً وصل إلى بيت ناهض. كان هناك حليم فارس، الذي استدعاه العميد ناهض هاتفياً.

- ما الأمر؟!

قال حميد هلال بعد أن أخذ مكانه قبالة ناهض وحليم، أجابه ناهض بصوت واضح الجدية:

- الموضوع أن الشرطة العراقية ألقت القبض على خلية "السيف" وقائدها "أبو مجاهد" التي اغتالت مدير حدود شرطة المثنى ومدير جمارك القادسية، وقد اعترف جميع أفراد الخلية بقيامهم بالعملية، وقال أميرهم إن حليم فارس هو من أصدر لهم التعليمات...

اهتز كيان حليم ووقف على قدميه وراح يتساءل بشكل هستيري:

- أنا؟... أنا من أصدر لهم الأوامر؟... كيف هذا ومتى حدث؟...

صرخ به حميد هلال، وأمره الجلوس ساكتاً وإلّا قام بقتله، ثم التفت إلى ناهض وطلب منه أن يكمل.

- أنت تعرف بأني من أعطاك المعلومات عن السيارة التي كانت تقل الرجلين...

قال ناهض وأضاف بجدية واضحة:

- وتعرف أيضاً، بأنك من قام بتكليف حليم بإبلاغ "أبو مجاهد" بتفاصيل العملية. هذا يعني أن وجود حليم بيننا يشكل خطراً كبيراً، فماذا تقول؟

ارتعد حليم مرة أخرى، وانهمرت دموعه بعد أن احمرَّت عيناه. وراح يتوسل حميد وناهض بأن يجدوا حلاً للمشكلة بعيداً عن القتل. أطلق حميد هلال ضحكة مرتبكة. نزع عن رأسه العقال والكوفية والطاقية بحركة واحدة. وضع الكومة إلى جانبه، وطلب من ناهض أن يعد لهم الشاي. فهم ناهض الإشارة واتجه حيث المطبخ، وبعد أن غاب عن الأنظار، قفز حليم بين قدمي حميد وراح يقبِّل ركبتيه وهو يتوسله. استخدم حميد إحدى يديه ليبعد حليم عنه قليلاً، وطلب منه الجلوس حيث كان، كونه سيقول كلاماً في منتهى الجدية والخطورة. وحين عاد حليم إلى مكانه قال حميد:

- اسمعني يا حليم جيداً ولا تقاطعني! أنت واحد منا، ونحن نعرفك جيداً، وسلامتك رهن أعناقنا، عليك أن تختار أحد الأمرين، أما القتل أو الرحيل إلى بلد آخر، لقد عرفتَ للتو أن وجودكَ هنا أصبح يشكل خطراً كبيراً علينا، وبالتأكيد أنت لا تريد أذيتنا، فماذا تقول؟

انفرجت أسارير حليم، فلقد وجد فسحة للخلاص لا بأس بها. اختار على الفور السفر إلى الأردن كونه يعرف البلاد جيداً، ولكنه

عاد وتجهم وقال إن لا مال لديه كي يدبر أموره هناك. تفحصه حميد بنظرة ساخرة لا تخلو من الخبث وقال:

- حسناً، هذا هو الصواب، السفر أفضل الحلول، أما بخصوص المال فلا تقلق.

أخرج تلفونه من جيبه وضغط على لوحة المفاتيح. انتظر قليلاً ثم راح يتكلم مع الطرف الآخر. كان كلامه واضحاً. طلب جواز سفر لحليم باسم جديد، وكلف من يتكلم على الطرف الآخر، أن يوصله إلى تنظيمهم في الأردن، وألا ينسوا منحه مبلغ من المال كي يتدبر أموره. بعد أن أكمل مكالمته صاح على ناهض طلباً للشاي، ثم نظر صوب حليم وقال:

- عليك أن تكون في بعقوبة مساء اليوم، سوف يستقبلك أحد رجالنا الذين التقيتهم من قبل، عليك أن تبعد الخوف من قلبك، سوف يوصلكَ إلى هناك العميد ناهض، هل هناك شيء آخر تود أن تقوله؟

تململ حليم قليلاً وقال في حياء واضح:

- هناك طلب أخير، أرجو أن توافقني عليه...

هزَّ حميد رأسه إشارة للموافقة، وفي تلك الأثناء دخل ناهض يحمل إبريق وعدة الشاي، فقال حليم:

- أتمنى أن تسمح لي باصطحاب زاهر...

جحظت عينا حميد. مد عنقه صوب حليم وطلب منه أن يعيد ما قال، فأعاد حليم طلبه على مسامع العقيد، طلب الموافقة باصطحاب زاهر معه إلى الأردن، نهض حميد مفزوعاً وتوجه نحو

حليم، وقف أمامه وصفعه صفعة طرحته أرضاً، وراح يركله بكل قوة وهو يصرخ قائلاً:

- يا ابن الكلب، يا لوطي، نحن نعيش أيام صعبة وأنت تطلب متعة مؤخرتك، حيوان، قذر...

استمر حميد في حالته الهستيرية تلك حتى تَدَخَّلَ ناهض، وطلب منه أن يهدأ. سالت الدماء من فم وأنف حليم، وراح يعتذر. لكنه وفي غمرة الاعتذار، وحميد لا يزال منفعلاً، أطلق حليم كلمتين من بين شفتيه الداميتين جعلت الموقف في سكون تام للحظات، قال:

- أقتله إذاً !!

نظر حميد صوب حليم، ثم حول نظره صوب ناهض، ابتسم وطلب قدح ماء. ناوله ناهض القدح. أفرغه في كرشه، ثم مد يده إلى جيبه واخرج تلفونه المحمول، وبعد سماع الإشارة وفتح الخط، أمر إحدى خلاياه بقتل زاهر فوراً. وبعد أن اقفل الخط، توجه إلى حليم، قبله وقال له مداعباً:

- يا ابن القحبة، حتى وأنت مغمور في سخافاتك، تفكر بعقل سليم...

صمتَ قليلاً ثم أضاف:

- أنا متكدر بعض الشيء، وبصراحة، حزين على استشهاد رجب رحمه الله، العملية الاستشهادية التي نفذها صباح أمس، هزت العالم...

ثم التفت صوب ناهض وقال:

- إن قتل زاهر أمر في غاية الأهمية، حتى لو لم يطلبه هذا الشاذ، فزاهر يعرف العلاقة بيننا وبين حليم، وبهذا سيكون أضعف حلقة ممكن أن تؤذينا.

- أنا لم أكمل ما لدي من أمور هامة، لقد كان خبر القبض على خلية "السيف" أهون الأخبار، أما الخبر الآخر الذي علينا العمل على أساسه بعجالة وحذر، هو أن "أياد علاوي"، أمر بشن حملة واسعة لتطهير منطقة اللطيفية من الإرهاب...

قال ناهض ثم ابتسم بخبث وأضاف:

- هذا ما جاء في الرسالة السرية التي قرأتها مساء الأمس، حين كنت عند أحد رجالنا... الحملة ستبدأ خلال أيام تحت اسم "بلايموث روك" وستكون بمساندة القوات الأمريكية، وبتغطية جوية مكثفة، انتهى الخبر. لذا علينا إخلاء المنطقة بالكامل.

أنهى ناهض كلامه بابتسامة عريضة كي يلطف الجو. نهض حميد وارتدى طاقيته وكوفيته وعقاله، ثم أمر العميد ناهض بتوصيل حليم إلى بعقوبة ليكون مساء هذا اليوم في حماية الشيخ "أبو عبد الوهاب".

خرج حميد هلال متوجهاً إلى منطقة اللطيفة حيث بيت أهله الخالي من البشر سوى توفيق الأعرج وسلمان والرهينة وبعض الكلاب السائبة، وفي طريقه أجرى مكالمة هاتفية مع الشيخ طه ليبلغه تطورات الوضع، ثم اتفق معه على أن يُعَرِّج عليه كي يأخذ بعض ملابس اتفقا عليها أثناء المكالمة. وحين أنهى مكالمته مع الشيخ طه، وقبل أن يتجاوز بسيارته نهر "شيشبار" ليدخل ضمن نطاق منطقة اللطيفية، شاهد وقوف بعض أفراد الشرطة إلى الجهة الأخرى من الطريق، كانت الشرطة تقف لحراسة جثة ضحيته الذي

قتله أمس. لقد صارت الجثث الملقاة على الطرقات مصدر يبعث الرعب في قلوب الشرطة وأهالي الضحايا، حتى أصدرت السلطات أمراً يقضي بعدم نقل أي جثة أو الاقتراب منها بأقل من عشرة أمتار، حتى يتم فحصها والتأكد من سلامتها، من قبل خبير متفجرات. جاء ذلك القرار، بعد عدة حوادث راح ضحيتها رجال من الشرطة وأهالي الضحايا نتيجة تفخيخ الجثث من قبل الجماعات المسلحة، وآخر جثة انفجرت، كانت ملقاة أمام مركز شرطة اللطيفية، اكتشفها رجال الشرطة، وتوجه نحوها ثلاثة منهم، انفجرت الجثة حالما حملوها. والحادثة الأخرى الأكثر بشاعة، تحدَّث عنها الشاب "عدنان محمود إلياس"، المولود عام 84. تحدث عبر قناة التلفزيون بعد إلقاء القبض عليه، وقال أنه ينتمي إلى جيش أنصار السنة، درس غاية الرابع الابتدائي وترك الدراسة. يعمل منظفاً في بلدية تلعفر، شارك باختطاف شخص من أهل تلعفر، قام أمير المجموعة واسمه 'حبيب عزت' بذبح الشخص المخطوف وقطع رأسه، ثم قام المدعو "محسن" بفتح بطن الضحية وأخرج أحشاءه، ليحشو البطن بمواد متفجرة، ثم خاط الفتحة بخيط قطني، وأمر بنقل الجثة إلى منطقة قريبة من محطة وقود مدينة تلعفر. وضعت الجثة هناك مكفية على بطنها، ووضع الرأس على ظهر الجثة، وحين وصل الخبر إلى أهل الضحية، حضر والده بمعية عدة أشخاص يحملون نعش خشبي، وضعوا الجثة في النعش وحملوه. كان والد الضحية وثلاثة من أفراد الشرطة العراقية يحملون النعش، وبعد أن ساروا ثلاث خطوات، ضغط الإرهابي "أحمد سنجار" على زر في جهاز التحكم عن بعد، فانفجرت الجثة وقُتِلَ والد الضحية واثنان من أفراد الشرطة.

❖

وصل حميد هلال إلى الزريبة وفي يده كيس بلاستيكي كبير بعض الشيء، ألقاه بوجه سلمان الذي استقبل سيده بحرارة خاصة، صافحه وقبل يده ثم قدم له العزاء (باستشهاد) رجب. طلب حميد منه مناداة توفيق ليخرج إليه، بعد أن أخذ مكانه على الكرسي البلاستيكي الأبيض منتظراً. وحين صار الاثنان فوق أرض الزريبة، توجه بسؤاله إلى توفيق الذي بدا عليه الارتباك. سأله فيما إذا أغلق باب المطبخ بشكل جيد، ثم طلب من الرجلين الجلوس قبالته على الأرض بعد أن أجابه توفيق بالإيجاب. لاحظ حميد الارتعاش والقلق الذي بدا على توفيق، فسأله عن أمره. أجاب بأن لا شيء مهم، مجرد إرهاق وتعب. لم يكترث حميد له، وقال طالباً من الرجلين الإصغاء التام لخطورة الأمر. قال:

- غداً صباحاً، عند الساعة السابعة، تأخذون المرأة الدنماركية إلى اليوسفية، تسلمونها إلى الشيخ "أبو مصعب". ولكن، قبل هذا، سوف يستقبلكما الشيخ "منعم أبو عبد الله"، ستذهبون معه لغرض تصوير المرأة،. وعليكما الامتثال لأوامره أثناء التصوير. بعد ذلك، ستذهبون بها إلى الشيخ "أبو مصعب". وسلمان يعرف مكانه جيداً. والآن عليَّ أن أخبركما بأن الطريقين الترابي والدولي خطران هذه الأيام، لذا عليكما أخذ الطريق العام بين المحمودية واليوسفية، المرأة وتوفيق يجلسان في المقعد الخلفي، وأنت يا سلمان تقود السيارة...

- وإذا صادفتنا سيطرة؟

سأل توفيق باضطرابه الذي لا زال يسطر عليه. شزره حميد بعد أن أدار رأسه جهة اليسار وهو يظهر غضبه، وقال بحدة واضحة:

- أخرس ولا تقاطعني! عندما أنهي كلامي سأسمح لك بالسؤال...

هز توفيق رأسه علامة للاستيعاب، فأضاف حميد:

- هناك ملابس نسائية في الكيس الذي أعطيته لسلمان. الملابس عبارة عن نقاب وعباءة وثوب، المرأة ستخرج من هنا مكممة الفم بشريط لاصق، كي لا تستطيع الكلام أو الصراخ، وسوف يستر النقاب منظر فمها، ويجب أن تكون يداها مربوطتين إلى الخلف، وفي حالة وجود سيطرة من الشرطة أو الجيش أو القوات الأمريكية، وفي حالة سؤالهم عن وجهتكم، عليكم أن تبينوا لمن يسأل أن سلمان سائق سيارة أجرة وتوفيق استأجره لينقل زوجته المريضة إلى المستشفى. هل هذا مفهوم؟

أجاب الاثنان بالإيجاب، عندها قال حميد إلى توفيق وهو يبتسم:

- أبشر يا توفيق، سوف نزوجك غداً عندما توصل المرأة، أو بعد غد...

تهلل وجه توفيق فرحاً وأراد أن يقول شيئاً، لكن حميد استمر بكلامه وهو يقول:

- زوجتك حاضرة، وهي هدية لك من الشيخ طه، لأننا وببساطة سنخلي هذا المكان اعتباراً من ليلة الغد، هناك عملية واسعة النطاق سيقوم بها رجال الجيش والشرطة على هذه المنطقة، وستكون العملية بمساعدة القوات الأمريكية. هذا كما جاء في القرار الصادر من الحكومة. ولكن هذا يعني، وكما تعرفون، أن القوات الأمريكية هي من ستقود الحملة بشكل كامل، لذا عليكما أن تقوما بتنظيف كل شيء، وألا تبقوا شيئاً وراءكم. سأكون هنا بعد ظهر الغد كي أتأكد من كل الأمور، أرجو أن يكون كل شيء كما يجب، هل اتفقنا؟

- نعم سيدي.

قال الاثنان بصوت واحد وهمّا بالوقوف. مد سلمان يده إلى توفيق كي يعينه على الوقوف، وتوجه حميد هلال إلى سيارته، ثم توقف عند الباب الحديدي المؤدي إلى خارج الزريبة وقال:

- عليكما أن تتذكرا، إذا حدث شيء أو اتصل بكما أي شخص، عليكما الاتصال بي فوراً!

- أمرك سيدي.

قال سلمان بطريقة عسكرية لا تخلو من الزهو.

جلس حميد خلف المقود وأنطلق بشوق غامر لملاقاة زوجته الصغرى، مأخوذاً برغبة عارمة لرؤية المبلغ الهائل الذي ينتظره في بيته بعد أن استلمه رجب من الشيخ طه، وغداً سيستلم نصف المبلغ المتبقي عندما تصبح كميلة بحوزة الشيخ " أبو مصعب ".

❖

ضغط حميد هلال كعادته مرتين على منبه السيارة عندما صار مقابلاً لبابِ داره في منطقة البياع. انتظر قليلاً ولكن لا أحد، فمن المعتاد أن تخرج شهلة لتفتح فلقتي الباب ومن ثم إغلاقها بعد أن يولج سيارته في مرآبها حيث الحديقة. أعاد الضغط على المنبه وأنتظر أكثر، ولكن بقي الحال على ما هو عليه. تملكه الغضب، وترجل عن سيارته، وحين وصل باب الدار وحال وضع يده عليها، انفتحت الباب دون أي جهد. دخل المرآب وصاح بأعلى صوته:

- ما بكم هل أصابكم الصمم؟ أين أنتم؟

نظر صوب الباب الخشبي المؤدي إلى مدخل المنزل فوجده

موارباً. ساورته شكوك للحظات، من أن هناك شيئاً غير طبيعي قد حصل. دخل البيت وصار يصيح بحدة، ولكن لا أحد يجيبه سوى صدى صوته. لاحظ أن المنضدة الصغيرة منكفئة على الأرض، ومثلها كان ما تحتويه صينية الإفطار، مما يدل على أن هناك عراكاً أو سرقة قد حدثت داخل الدار. خطا خطوتين ليكون داخل الصالة فشاهد ورقة مرمية على الأرض، رفع الورقة وقرأ كلمات كانت مكتوبة بقلم رصاص. أخذ جسده يرتعش، وتغير لون وجهه. راح يقرأ بذهول واضح:

"إلى الإرهابي المجرم حميد "أبو أيمن" لقد جاء اليوم الذي ستدفع به ثمن جرائمك، زوجتك وأبنتك وبعض الأشياء التي ستبحث عنها ولم تجدها، جميعها في حوزتنا، سنتصل بك خلال ثلاثة أيام كي نطرح عليك مطالبنا"، وفي أسفل الورقة دُونت الجملة التالية "إن الله يمهل ولا يهمل"... شاط حميد هلال غضباً، وراح يفتش في جميع زوايا البيت عن المبالغ التي كان يحتفظ بها، وجد بعض الأوراق وثلاث قطع سلاح ومبلغ خمسة آلاف دولار مع مليون دينار عراقي كان قد خبأه دون علم زوجته.

بعد أن استوعب الصدمة، أجرى بعض المكالمات الهاتفية مع بعض الأشخاص، كان سؤاله الوحيد عن الجهة التي يمكنها أن تقوم بمثل هذا العمل، وجميع الأجوبة التي تلقاها كانت غير شافية، كانت الأجوبة تطلب منه الانتظار ريثما يتم تقصي الحقيقة، أو يتصل به الخاطفون.

لم يفكر حميد هلال، بأن الذي قام بوضع الرسالة في مكان ظاهر على الأرض، والعبث بأثاث البيت هو رجب خضر، صبيّه الذي آواه لأكثر من عام، وكيف يفكر بهذا ورجب الآن يلاقي ربه

بعد أن قام بعمليته "الاستشهادية"؟ ثم أن الخاطفين قد كتبوا، أنهم خطفوا شهلة كونها ابنته، وهذا دليل عدم معرفتهم بعائدية شهلة له! حاول أن يعيد بعض الأشياء إلى مكانها، ثم أقفل الأبواب وراح يسأل الجيران فيما إذا شاهدوا سيارة أو أشخاصاً قد دخلوا بيته، ولكنه لم يلقَ جواباً شافياً على أسئلته...

◆

في صباح اليوم التالي وعند الساعة السابعة صباحاً، انطلق سلمان بسيارته صوب مدينة اليوسفية متخذاً من الشارع العام المؤدي إلى مدينة المحمودية طريقاً له، حسب التعليمات. في نفس الوقت، كان بعض الأشخاص وعدد من أفراد الشرطة مجتمعين حول جثة زاهر الملقاة إلى جانب الطريق العام مقابل "بنزين خانة" (محطة وقود) المحمودية، كان الجميع بانتظار خبير المتفجرات كي يكشف على الجثة قبل نقلها إلى المستشفى، ضربت الشرطة طوقاً على منافذ المنطقة بعد أن أخبرهم أحد المارة أن الجثة ألقيت قبل دقائق.

عند وصول سلمان وتوفيق بمعية المرأة الدنماركية التي كانت ترتدي النقاب، إلى مسافة قريبة من محطة الوقود، كانت هناك نقطة سيطرة وتفتيش نصبها رجال الشرطة. لم يكن هناك أي منفذ يستطيع سلمان أن يغير منه وجهته، وكان سلمان يعرف جيداً أن أية سيارة تحاول التملص أو الهروب من نقاط التفتيش سوف تحوم حولها الشكوك وتُلاحق، لذلك انتظر حتى يصل النقطة ويمر خلالها، وعند وصولهم إلى نقطة السيطرة، اقترب منهم أحد أفراد الشرطة. ألقى نظرة داخل السيارة. سألهم عن وجهتم، فقال سلمان، إن الرجل المعاق قد استأجره لينقل زوجته المريضة إلى مستشفى

اليرموك ببغداد، دار الشرطي حول السيارة ليتفحصها حتى صار إلى جانب سلمان. نظر إليه جيداً وطلب منه إجازة السوق، وحين أصبحت الإجازة في يده، أشار إلى رفاقه، فأقترب شرطيان. طلب منهما إلقاء القبض على سلمان كونه مشتبه به، وأن السيارة التي يقودها مشتبه بها أيضاً، ثم طلب من توفيق والمرأة المنقبة أن ينزلا ويستأجرا سيارة أخرى.

أصيب توفيق بصدمة كبيرة بعد أن شاهد الشرطيان وهما يلقيان القبض على سلمان. وراح يتلعثم في كلامه مع المرأة، فهو يعرف تماماً أنها لا تفهم لغته. بدأ يصرخ بوجهها ويشتمها أمام رجال الشرطة، مسكها من ذراعها وقادها إلى جانبه، متكئاً عليها. وحين صارا على مسافة بعيدة بعض الشيء من رجال الشرطة، دس يده في جيب دشداشته الجانبي، كان هناك مسدس، مسكه دون أن يظهره للمرأة، ولكنه حرَّكهُ اتجاهها وقال لها:

– يو (you) تنهزمين، مي (me) طاخ طاخ.

فهمت المرأة أنه يهددها بعد أن رسم لها بأصابعه إشارة الهروب. لقد فهمت بأنه يمتلك سلاحاً، وسوف يطلق عليها الرصاص إذا حاولت الهرب. سارا بهدوء صوب الجهة الشمالية لمدينة المحمودية حيث موقف سيارات الأجرة، وكان عليهما أن يسيرا بجانب شارع المحمودية العام قاطعين مسافة تقارب الكيلومترين. وقبل أن يصلا منتصف المسافة كان توفيق قد توقف مرتين، تحدث فيهما مع سائقين لسيارتي أجرة، وطلب منهما توصيله وزوجته المريضة إلى اليوسفية، ولكن السائقين رفضا بسبب إغلاق الطريق من قبل رجال الشرطة. كان الرصيف الذي يسيران عليه مزدحماً بعض الشيء، وكانت كميلة منتبهة بشدة إلى إيقاع قدم

توفيق وتناغمه مع صوت العكاز، وراحت تستخدم ذكاءها محللة خطوات توفيق، ناظرة إلى طريقة رمي توفيق لقدمه على الأرض بعد صوت العكاز، وعند تجاوزهما المنطقة المقابلة لمبنى " خان السبيل " بعدة أمتار، وبعد أن سمعت صوت العكاز، أزاحت قدمها أمام قدم توفيق، فلامس قدمه قدمها وأصبح فوقه تماماً، عندها دفعت قدمها إلى الأمام فسقط توفيق الأعرج على قفاه. وبسرعة ركضت كميلة عدة خطوات ثم انحرفت نحو اليمين لتدخل فتحة سوق صغير تتوزع محلات بيع الملابس على جانبيه، وبعد مسافة عشرة أمتار استدارت نحو اليسار ثم إلى اليمين بعد أمتار خمسة قطعتها راكضة لتكون داخل زقاق طويل. واصلت الركض المرهق وهي مربوطة اليدين إلى الخلف ناظرة إلى أبواب البيوت المختلفة الألوان، وبعد أن تجاوزت قرابة العشرة أبواب، وجدت باباً خشبياً بني اللون. كان الباب موارباً. دخلت البيت وسقطت على الأرض بعد خطوتين من تجاوزها ستارة القماش التي كانت وراء الباب. كان أهل الدار يجلسون في باحته يتناولون الإفطار، أطفال ونساء وشباب، فزعوا جميعهم عندما شاهدوا الكومة السوداء على الأرض. اتجهت النسوة صوب العباءة السوداء كي يستطلعوا الأمر، انقلبت المرأة على قفاها بمساعدة الأيادي النسوية، وحين رفعوا عنها النقاب شاهدوا امرأة شقراء مكممة الفم بشريط ملفوف بإحكام على فمها ورقبتها عدة مرات، كانت المرأة تستنشق الهواء بصعوبة بالغة من منخريها، سارعت إحدى البنات إلى إحضار مقص وقصت الشريط اللاصق بعناية تامة، ثم رفعته عن فمها بحركة سريعة، شهقت كميلة شهقة قوية طالبة الهواء، فدخلت في إغماءة أرعبت من حولها.ية، وحين رفعوا عنها النقاب شاهدوا امرأة شقراء مكممة

حين استفاقت كميلة وجدت نفسها دون الملابس السوداء التي

أجبرها سلمان على ارتدائها، وأن شعرها قد ابتلّ وقطرات الماء متناثرة على صدرها، ووجدت يديها طليقتين، شاهدت وجوهاً نسائية متباينة الأعمار تبتسم لها، قالت لها إحداهن:

- لا تخافي، أنت في مكان أمين، ولا تتكلمي الآن، عليك أن تهدئي...

لم تفهم كميلة شيء من كلام الفتاة، ولكنها شعرت ببعض الطمأنينة، وطلبت أن يحدثوها باللغة الإنجليزية، فصرخت الفتاة التي كانت تكلمها منذ قليل:

- والله عرفت أنها أجنبية، ألم أقل لك يا جدتي؟

راحت الفتاة وعمتها يكلمان كميلة بلغة إنجليزية مدرسية. طلبت كميلة جرعة ماء، ومكان تنام فيه لبعض الوقت...

◆

خرج سلمان داود من التوقيف بعد يومين من إلقاء القبض عليه. كان ذلك بجهود بذلت من قبل العميد ناهض، حيث تم تغيير اسم سلمان وكنيته إلى اسم آخر في الأوراق الخاصة بالتوقيف. ولكنه وبعد فترة قصيرة ألقي القبض عليه خلال مداهمة قامت بها قوات الحرس الوطني العراقية لمنطقة "أبو دشير" وجاء الخبر منشوراً بالصحف العراقية كالتالي:

* أعلنت وزارة الدفاع العراقية اليوم الأحد أن قوات الحرس الوطني تمكنت من إلقاء القبض على أكبر شبكة لتفخيخ السيارات من خلال العمليات التي شملت منطقة أبو دشير في بغداد. وتقع منطقة أبو دشير في محيط مدينة بغداد من ناحية الجنوب وتعد واحدة من أسخن المناطق وتحيط بالمنطقة بساتين وأراضي ضاحية

"آل بوعيثة" و"عرب جبور" التي ترتبط بمنطقة اليوسفية. وقال مصدر مسؤول في الحرس الوطني أن القوة داهمت جامع ياسين في منطقة أبو دشير وضبطت فيه سبع سيارات ملغومة جاهزة للتفجير، وتسع قاذفات ستريلا مع صاروخ سترلا و30 قاذفة (آر بي جي 7) بالإضافة إلى صاروخ وخمس رشاشات (بي كي سي) و25 بندقية كلاشنكوف ورشاشين من نوع آر بي جي وأسلاكاً لعمليات التفخيخ وريموت كونترول بأعداد كبيرة و35 رمانة يدوية وهاونين 82 ملم وهاونين 60 ملم".

في تلك الأثناء كانت كميلة أندرسن تتلقى العلاج في إحدى مستشفيات عَمّان. حيث تسلمتها القوات الأمريكية مباشرة من البيت الذي اختبأت فيه عدة أيام. حيث أصر رب الأسرة على عدم القيام بتبليغ الشرطة العراقية عن وجود كميلة في بيته، بعد أن شرح لها يقينه من أن الشرطة العراقية مخترقة من قبل الجماعات المسلحة، ومن الممكن أن تعيد تلك الجماعات اعتقالها، وهذا ما قد يشكل خطراً كبيراً على العائلة التي تأويها. لذلك أصر على أن يتم تبليغ القوات الأمريكية بشكل مباشر. عند ذاك ذهب أحد شباب العائلة إلى مجمع اللحوم شمال مدينة المحمودية، والذي أصبح مقراً للقوات الأمريكية، وأبلغ عنها، لتأتي بعد وقت قصير قوة عسكرية أمريكية وتأخذ المرأة...

(22)

كان الثلج يتساقط والأشجار تلبس ثوباً ناصع البياض وهي تعلن قرب حلول أعياد الميلاد. حينها وصلت كميلة أندرسن إلى شقتها الصغيرة المطلة على أشجار السرو والكستناء الشامخات اللواتي تحتضنها مقبرة النوربرو. فتحت فلقتي شباكها المطل على الحديقة أو المقبرة. استنشقت هواء بلادها الجميلة وهي تداعب بطنها بكفيها. تحرك كفيها بشكل دائري على محيط بطنها، ثم ابتسمت وقالت:

"إرهابي صغير داخل رحم دنماركي..."

استدارت حيث مطبخها الصغير لتعد لنفسها فنجان قهوة، وفي طريقها إلى هناك، ألقت نظرة على صورة صغيرة تظهر علاء واقفاً خلفها ويداه تطوقان خصرها، حاولت تقليد التواءة رقبتها وهي تتكئ على صدر حبيبها كما تظهرها الصورة، ابتسمت وأوقدت شمعة بيضاء كانت تنتصب جانب إطار الصورة، ثم مضت وفي طريقها.

◆

بعد خمسة أيام من وصول كميلة أندرسن إلى كوبنهاغن، وفي تمام الساعة الثامنة مساءً، هناك حيث مدينة المحمودية، كان سعدي جبار جالساً بين أفراد عائلته حين سمع طرقات متتالية على باب الدار. خرج ليتعرف على الطارق، فوجد أربعة شبان يرتدون

الدشاديش والجاكيتات، كان اثنان منهم يعتمران الكوفية الحمراء.

- أهلاً وسهلاً، تفضلوا...

أشار سعدي لهم بالدخول، ولكنهم رفضوا، فقال أحدهم:

- نريد أن تأتي معنا، فهناك حالة مستعجلة نريدك أن تقوم بتطبيبها.

اندهش سعدي من طلب الرجل. نظر في الوجوه الأربعة وعرف أنهم ليسوا من أبناء المدينة، صمت قليلاً ثم قال سائلاً:

- ما نوع الحالة، ولماذا لا تنقلوها إلى المستشفى؟

- لا نريد أن ندخل المستشفى، بصراحة أختنا تعرضت إلى حريق ونريدك أن تعالجها.

لم يصدق سعدي جبار القصة، فهذه هي المرة الأولى التي يُطلب منه مثل هذا الطلب. صحيح أن هناك أناساً كثراً يترددون عليه حيث بيته، ولكنهم يأتون بطلب مسائل بسيطة، زرق إبرة، طلب ضمادات أو بعض الأدوية التي لا تحتاج إلى مراجعة طبيب، فكر قليلاً ثم قال معتذراً:

- أعتذر منكم بشدة، لم أعتد الخروج ليلاً، وانا منهك الآن، أنصحكم أن تنقلوا أختكم إلى المستشفى، أو تجدوا لها شخصاً آخر غيري.

حاول أن يعود إلى الداخل ولكن أحدهم مسك ذراعه وحاول إيقافه، ثم قال الآخر الذي كان يكلمه منذ قليل:

- إذا لم تأتِ معنا الآن، سندخل ونقتل جميع من في الدار.

شعر سعدي بخطورة الموقف، وفكر إن الأمر يتعدى حالة مرضية، ولكنه عاد منساقاً إلى طبيعته الإنسانية الطيبة المحبة لمساعدة الآخرين، وأقنع نفسه بإمكانية صدق هؤلاء، ربما هناك روح بشرية بحاجة إلى مساعدته، ثم طلب منهم أن يسمحوا له بالدخول إلى البيت ليغير ملابسه ويحضر حقيبته الطبية. عاد بعد دقائق وكانت زوجته بأثره، وحين صار بينهم التفت لزوجته وقال لها بطريقة مازحة لا تخلو من الخوف والقلق:

- إذا لم أعدْ، عليكِ أن تتأكدي بأن هؤلاء قد قاموا بقتلي، احفظي وجوههم جيداً!

انطلق السيارة جهة الشمال متخذة من الطريق الزراعي مسيراً لها. كانت السيارة تسير بظلام دامس، لقد اعتاد سائقها على السياقة ليلاً دون أن ينير مصباحيها، كان يحفظ الطريق عن ظهر قلب، وبعد قرابة نصف الساعة، توقفت السيارة عند بيت يتوسط أرضاً زراعية واسعة، كان الظلام يلف المنطقة، وهدير المولد الكهربائي يمزق سكون مسائي موحش. ترجل الجميع عن السيارة، تقدم اثنان أمام سعدي بينما تخلف الآخران خلفه. دخل سعدي إلى غرفة كبيرة مغطاة جل مساحتها بسجاد وفراش إسفنجي. في الزاوية البعيدة المقابلة لسعدي جبار كان رجلان مستلقيين على ظهرهما، رفع الأول رأسه فبانت سحنته السمراء ولحيته الطويلة. كان الرجلان يرتديان ملابس غريبة بعض الشيء، فالزي الأفغاني لم يعد مألوفاً لأبناء المدينة، على عكس ألفته في عيون أبناء الأرياف، قال الرجل الذي رفع رأسه حين دخل سعدي جبار:

- هل هذا هو الطبيب؟

أجابه أحد الأشخاص الواقفين بالإيجاب ثم مسك ذراع سعدي، هزه وقال:

- هذان الرجلان جريحان، حياتهما متوقفة عليك.

تقدم سعدي جبار منهما، ثم مد يده تجاه الرجل الصامت. سأل عن مكان إصابته، فأجابه أحد الواقفين "في الظهر" فقال:

- كيف تجعلونه يستلقي على ظهره إذاً، هذا خطأ كبير...

حاول قلب الرجل على بطنه. جاءته مساعدة أحد الواقفين، فظهرت بقعة دم كبيرة. رفع ثيابه ونظر في مكان الإصابة، كان ثقباً واحداً لرصاصة، ربما استقرت في عموده الفقري أو تجاوزته مهشمة الفقرتين اللتين مرت من خلالهما، رفع سعدي رأسه صوب الرجال الواقفين وقال:

- هذا الشخص لا أمل في شفائه، أستطيع أن أقول لكم إن الروح لا تزال تدب فيه، ولكن نجاته أمر مستحيل، أنصحكم بنقله إلى إحدى مستشفيات بغداد عسى أن يمده الله بعونه.

ثم تركه ليتحول إلى الرجل الأخر، سأله عن مكان إصابته فقال:

- الساق والزند الأيمنين.

- اصابتك هينة إن شاء الله.

فتح حقيبته وجهز إبرة للمضادات الحيوية، حقنه، ثم راح يتفحص العظام ليتأكد من سلامتها. وبعد أن تحسس مكان الرصاصتين، راح يعمل بجهد واضح من أجل إخراج الرصاصة المستقرة في الزند أولاً. كان سعدي جبار يفور غيظاً من هؤلاء

الناس، كان يحدث نفسه بطريقة زادت من زفراته وغضبه عليهم... قتلة، إرهابيون، حثالة... ثم استخدم مخيلته ليبصق في وجوههم. ازداد غضبه بعد أن عرف جنسية الرجلين المصابين، كانا سعوديين، عرف هذا من لهجة الرجل المصاب وهو يحاول إخراج الرصاصة من زنده، كان الرجل يتأسف على حياة ابن عمه الذي فقد الوعي والقدرة على الحركة، ثم طلب من الله أن يمنحه الشهادة كي لا يتعذب.

نهض سعدي جبار بعد أن أخرج الرصاصتين من زند وساق الرجل وضمد جراحه، طلب كأس من الماء وأعاد عليهم استشارته بضرورة نقل الرجل إلى المستشفى، ثم قال:

- الآن فعلت ما باستطاعتي، فهل تفضلتم بإعادتي إلى بيتي، أطفالي بانتظاري.

مسكه اثنان منهم حيث ذراعيه، واقتاداه إلى الخارج بعد أن ركل أحدهم حقيبة الطبابة لتسقط من يده وتتناثر محتوياتها على السجادة، وعلى بعد عشرة أمتار من باب البيت، طلب منه أحدهما أن يبرك على الأرض وينطق بالشهادة. نظر إليهما وهو يسأل:

- لماذا؟... ماذا فعلت لكم؟... لم أقصر بواجبي...

جاءت صرخة قوية صمت مسامعه:

- أبركْ على الأرض يا عدو الله وانطق بالشهادة! أم تراك تريد أن تموت كافراً كما عشت؟!

تيقن سعدي جبار أنه يعيش لحظاته الأخيرة، فطلب منهم أن يمهلوه لحظات حتى يخلع حذاءه. لم يجب أي منهما واكتفيا بالنظر إليه. خلع سعدي جبار حذاءه الأيمن ثم جوربه، وقبض على خنصر

قدمه قبضة شديدة وراح يكلمه بصوت خافت "يا صديقي، أيها الجميل الحنون، أنت أشرف من كل الجنرالات، وأطهر من هؤلاء الوحوش، تأكد بأني لن أؤذيك ما حييت". ظن الرجلان أنه يردد الشهادة. دوى صوت رصاصة مزقت سكون الكون وجمجمة سعدي جبار، ارتطم جسده الثقيل على الأرض ليقابل وجهه نجوم الليل، فاتحاً ذراعيه إلى السماء وكانه يستقبل طفلاً صغيراً أتى إليه راكضاً بشوق كبير.

(23)

بعد أن دخل بيته واستقبلته زوجته وأطفاله، جلس موظف البلدية كي يقيس الحذاء الفاخر نوع "إيكو" الذي جلبه معه. سألته زوجته عن المصدر الذي حصل منه على الحذاء، فقال، أن رجلاً طيباً أعطاه إياه، ثواباً على روح ولده الذي قتله الإرهابيين. دس قدميه في فردتي الحذاء، وابتسم بوجه زوجته وقال:

- يا سبحان الله، على قياسي بالضبط، والله لو كنت قد فصلته في معمل، فلن يكون بهذه الدقة!

كان موظف البلدية يكذب، فالحذاء أكبر من قياسه بنمرة واحدة. ناوله لزوجته وطلب منها أن تنظفه جيداً، ثم تحتفظ به حتى تحين مناسبة مهمة تستوجب ارتداءه.

بعد أن تناول طعامه، ذهب إلى غرفة نومه طالباً ممن في البيت عدم إزعاجه، كونه يريد أن يأخذ قيلولته. خلع بنطاله أولاً ثم راح يحرر أزرار قميصه من محابسها. تحسس الورقة في جيبه. أخرجها وجلس على سريره برغبة كبيرة لقراءة ما فيها، ربما هناك بعض الأسرار، أو أن الضحية كتب أسماء الذين قاموا بقتله. شرع في فك طيات الورقة حتى أفردها ليتبين أن الطيات كانت تحتوي على ورقتين، ولحسن حظه كانت الورقتان مرقمتين، حسب الطريقة التي اعتاد عليها علاء في ترقيم الأوراق، يرسم دائرة صغيرة وسط طرف الورقة العلوي للورقة ثم يكتب رقمها داخل الدائرة. شرع الرجل بقراءة الورقة الأولى ولكنه سرعان ما أفلتها من بين اصابعه لتستقر

على سريره، فلقد لاحظ أنه لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية، وأن عليه ارتداء بيجامته. وحين انتهى من ارتداء البيجامة، عاد حيث السرير ونظر إلى الورقتين، مسكهما بين أطراف أصابعه وأعاد طوياتهما ثم دسها في جيب بيجامته وأستلقى على السرير ناظراً صوب السقف. أغمض عينيه وهو يقول:

- حين أكون في مزاج جيد، سوف أقرأ ما كتبه ذلك المسكين... ثم غفا...

كوبنهاغن

تموز 2006

سيرة (1)

سلمان داود الحاج سلمان

حين تزوج داود الحاج سلمان، بعد معارضة قوية أبداها أهله وأهل العروس الذين لم يكونوا أقل معارضة من أهله، اضطر داود إلى الانتقال من مدينة الخالص إلى مدينة المحمودية، كان داود آنذاك يشتغل في البناء، فلقد أخذ عن والده مهنة تبييض الجدران، وكان والده من أمهر مبيضين " الجص " في مدينة الخالص. ولم يكن انتقال داود إلى مدينة المحمودية بمحض إرادته، بل كان شرطاً، اشترطه عليه أهله وكذلك أهل حبيبته، على أن يتزوج في مدينة أخرى بعيدة عن مدينة الخالص مقابل موافقتهما على الزواج. لم تكن هناك أية جريمة أو أثم ارتكبه داود أو " مهدية " زوجته، سوى الحب، فحين انتشرت قصة الحب الجارف بين داود ومهدية في أرجاء المدينة، أصبح من الصعب على أهل مهدية القبول بفكرة زواج ابنتهما من حبيبها، خوفاً من انتشار الأقاويل على أن داود سلب عذرية مهدية قبل الزواج، وبالمقابل امتنع أهل داود عن القبول بزواج ابنهم من فتاة عرفت الحب والطريق إلى الرجال وهي بنت عذراء. ولكن إصرار العاشقين على الزواج، وتهديد داود لأهله بالانتحار، ومهدية بالهروب مع عشيقها، وضع العائلتين أمام خيار القبول في الأمر المر خوفاً من وقوع الأكثر مرارة، وكان من ضمن الشروط أيضاً، ألا تزور مهدية أهلها وتنسى إلى الأبد إن لها إخوة وأخوات أو أسرة تنتمي لها.

مدينة الخالص التي تبعد مسافة العشرين كيلومتراً عن مدينة

بعقوبة مركز محافظة ديالى، لا تختلف عن مدينة المحمودية من حيث الطبيعة السكانية، فهي مدينة تتحلى بالأخلاق الريفية وتقوم تربية أبنائها على أسس مدنية.

لم يصعب على داود الحصول على عمل في مدينة المحمودية، فلقد عمل منذ الأيام الأولى في تبيض جدران البيوت بعد أن توجه عصراً إلى المقهى المقابلة لمقهى "ديعي" وسأل عن المقاولين والأسطوات الذين يتواجدون في ذلك الوقت. أشار أحدهم إلى الأسطى "علي الظاهر"، فتوجه داود إليه. شرح له وضعه ومهاراته بكلمات بسيطة ومقتضبة، حركت قلب الأسطى علي الظاهر الذي عرف عنه نبل روحه وفراسته في معرفة معادن الرجال، علاوة على شغفه بمساعدة الناس، فعرض عليه أحد البيوت في منطقة "حي الموظفين" شمال المدينة. ومنذ فجر اليوم التالي، اجتمع داود بالأسطى علي الظاهر عند موقف عمال البناء "المَسْطَرْ" ليختار له ثلاثة عمال نشطاء. منذ ذلك الصباح، صار الأسطى داود "المبيضجي" ملازماً لعلي الظاهر أو " علّو الظاهر " كما كان الناس يلقبونه تحبباً.

في بداية عام 79 رزق الأسطى داود بأول مولود. كان صبي جميل، كثير الشبه بجده الحاج سلمان، هكذا قال داود، لذا أطلق عليه اسم " سلمان " تيمناً باسم والده.

أصبح الأسطى داود من أهم أسطوات تبييض المنازل في المحمودية، وكان كثيراً ما يطلبه الناس. حتى أن بعضهم كان يفضل الانتظار عدة أسابيع على أن يشتغل بيته شخص آخر. وحين كان ابنه سلمان في عامه الأول، عُرِضَ على داود بيتاً في القرية العصرية بمنطقة اللطيفية، كان البيت لأحد ضباط الشرطة. قَبِلَ الأسطى داود

بالعرض، فالمسافة بين مركز مدينة المحمودية والقرية العصرية لا تزيد عن السبعة كيلو مترات. باشر الأسطى داود في عمله وكان ضابط الشرطة يباشره بعض الأحيان ويتكلم معه في أمور الحياة العامة. كانت شخصية الضابط شخصية قوية، تظهر قدراً من الثقافة، بالإضافة إلى النزعة المترفة في تصرفاته. وفي غضون أيام قليلة، نشأت علاقة وطيدة بين الأسطى داود والسيد ضابط الشرطة، فعرض الضابط على داود أن يستأجر البيت الذي يعمل بتبييضه عند اكتماله. حينها تفاجأ داود بالعرض، وقال إنه عامل بسيط لا يقوى على دفع إيجار بيت فخم كهذا. راح الضابط يشرح له سبب ذلك العرض، وبيَّن له أن قطعة الأرض أتت كهدية من زوجته بمناسبة ترقيته إلى رتبة عميد، وأنه شرع في بناء البيت لأنه يريد أن يحتفظ بهدية زوجته، وفكر أن يؤجره كي لا يبقى مهجوراً، كونه لا يستطيع التخلي عن بيته في منطقة الأعظمية ببغداد، مسقط رأسه ومكان عمله وحاضنة تاريخه وتاريخ أجداده، وعرض عليه أن يستأجر البيت بنفس السعر الذي يدفعه لبيته الحالي في منطقة المحمودية خلف سكة القطار. كان المبلغ خمسة وعشرين ديناراً، وبالفعل تم انتقال داود وزوجته وابنه إلى منطقة اللطيفة بعد أن أصبح بيت السيد ضابط الشرطة مهيأً للسكن بشكل تام.

لم يمضِ على سكن داود وعائلته في البيت الجديد سوى أشهر قليلة حتى اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، ليصبح الأسطى داود جندياً في القاطع الجنوبي لجبهة القتال، وصار رامي قاذفة (RBG). وبعد توالي الأيام والأشهر على وجوده في جبهات القتال، عرف هناك مرارة الابتعاد عن حبيبته وابنه الوحيد، فلقد عزَّ على مهدية أن تحمل بطفل آخر رغم مراجعاتها المستمرة للأطباء.

في كل إجازة دورية يحصل عليها داود، كان يقضي اليوم الأول والأخير فقط في بيته، أما الأيام الخمسة الأخرى، فيقضيها في العمل بعد أن تنازل تحت ضغط الحاجة والعوز، على أن يعمل بالأجرة اليومية عند أحد الأسطوات.

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 82، وحين صار ليل العراق يعرف بواكير لسعات البرد الشتوي، كان سلمان قد تخطى سن الثالثة. في ذلك الوقت رن جرس البيت على غير عادته... نهضت مهدية من سريرها... أضاءت مصباح غرفة النوم ثم الصالة فالمدخل الخارجي، وحين أفلتت جسمها من باب الصالة نظرت صوب الخارج حيث سياج البيت... صرخت بأعلى صوتها وسقطت على الأرض، وما هي إلا ثوان حتى تجمهر الجيران أمام المنزل، ثم أدخلوا نعش الأسطى داود ملفوف بالعلم العراقي إلى الصالة.

رحل الحبيب مُقَطَّعَ الأوصال مُهَشَّمَ الرأس، وبقي الحب الذي تفيض به روح مهدية، الحب الذي أصبح زادها وهواءها، الحب الذي تحول إلى ذكرى، ذلك الحب الكبير الذي نشأ بذرة صغيرة لينمو ويمتد ليغطي العالم كله، عالم مهدية وداود، والذي أثمر صبياً جميلاً وقطيعة لا رجعة فيها للأهل الذين وقفوا بوجهه.

عاشت مهدية على ذكرى حبيبها الذي اختارته وفضلته على أهلها ومدينتها وتاريخها، حبيبها الذي سكن التراب، وهو ناصع اليدين والضمير، سكن التراب ولم يرتكب ذنباً بحق مخلوق.

لم يعد ذلك الحب قادراً على جلب الأمان لمهدية وابنها. هكذا شعرتْ بعد عدة شهور من مقتل زوجها دون ذنب يذكر، صحيح أن ذكرى ذاك الحب وطيف الحبيب كان يمنح الدفء لمهدية وصبيها أوقات وحشة الروح والإحساس بالغربة والتيه، إلا أن أي صوت

ومهما كان مصدره، كان كفيلاً بإثارة الرعب في قلب مهدية حد البكاء. دبيب فأر أو نباح كلب في عتمة الليل، كان كافياً ليسقط قلبها بين قدميها. أيام وأشهر ومهدية غير قادرة على استيعاب حياتها الجديدة، لم تعد قادرة على فهم نظرات الناس وتكاثر الخاطبين لها، لقد أصبحت تملك أرضاً سكنية، وراتباً تقاعدياً، أرض " الشهيد " وراتبه، ومبلغاً مالياً محفوظاً لها في خزائن الدولة، إذا وافقت على الزواج برجل آخر، حسب ما نصه القرار الذي أصدره ديوان رئاسة الجمهورية، الذي يمنح مبلغاً محترماً من المال إلى كل شخص يتزوج من زوجة شهيد. ذلك القرار وما صارت مهدية تمتلكه، جعل الرجال يتسابقون على الأرملة، زوجة الشهيد.

وبعد عام ونصف من الإصرار على عدم الزواج، رضخت مهدية إلى الأمر الواقع ووافقت على الزواج ليفوز سعد الميكانيكي بها.

كان سعد، الرجل الوحيد الذي تقدم لخطبة مهدية ولم يسبق له الزواج. رضيتْ به كي تشعر بالأمان، وتتخلص من الرعب الذي كانت تعيشه وحدها مع صغيرها. وفي فترة قصيرة استطاع سعد أن يسيطر على مهدية سيطرة تامة. وبعد سنة من زواجه منها تلقت مهدية أول صفعة من كفه، كان ذلك في نفس اليوم الذي سجلت فيه مهدية، بيت الشهيد داود الحاج سلمان، باسم زوجها الجديد. البيت الذي بنته خلال العام الذي تزوجت فيه سعد بعد أن شعرت بأن هناك رجلاً يمكنها الاعتماد عليه.

حين أصبح سلمان في السادسة من عمره، كان من الطبيعي أن يجلس على مقاعد الدراسة شأنه بذلك شأن أقرانه، إلّا أن زوج

والدته رفض، وأقنع مهدية على أن يعلمه مهنة الميكانيكي خيراً له من أن يقضي سنوات عمره في الدراسة. وافقت مهدية والدموع تنهمر من عينيها، واشتغل سلمان مع عمه في محل ميكانيك السيارات " الفيترجي " وصارت مهدية كلما رأت الصبية يحملون حقائبهم المدرسية، أو حين يعود صغيرها من العمل ويداه ووجهه وملابسه ملطخة بالشحوم. تقول في سرها مرة وفي العلن مرات عدة " إن الله يأخذ الشجعان ويترك الأنذال ".

أصبح سلمان من أمهر ميكانيكي السيارات. وكان في كل مرة يقوم بتصليح عطل صعب، أو ينجز عمل يعتمد على عقل خبير بشؤون السيارات، كان عمه سعد الميكانيكي، يذكره بأن الفضل يعود إلى الصفعات والركلات التي كان ولا يزال يوجهها له، فهي التي علمته كل تلك المهارة، وكان سلمان يلوذ بالصمت أو يبتسم بطريقة واضحة الاحتقار لزوج أمه. وقد حاول سلمان بعض مرات أن يدافع عن نفسه، وأن يمنع زوج أمه من توجيه الإهانات إليه. استخدم الكلام أولاً ثم الغضب والهروب، وكان آخرها عندما استخدم سلمان القوة معه حين شرع سعد برفع يده ليصفعه، تلقف سلمان يد سعد وطواها إلى ظهره ثم مده على الأرض وراح يركله ركلات موجعة وهو يصيح:

- كفاك ضرباً وإهانة، لقد أصبحت رجلاً، وأنا أحذرك، إنها المرة الأخيرة التي ترفع فيها يدك عليَّ، إذا عاودتها سأقتلك.

في ذلك اليوم ذهب سعد إلى البيت وأشبع زوجته ضرباً كونها لم تؤدب ولدها ولم تقم بتربيته جيداً، وحين عرف سلمان بالأمر همَّ ليحطم رأس زوج أمه، ولكنها توسلته كثيراً ورجته أن يترك الشرير بحاله، خصوصاً وهو أب أختيه الصغيرتين.

منحت الفوضى الضاربة في العمق، وغياب السلطة، والخوف والقلق الذي ساد الشارع العراقي بعد دخول القوات الأمريكية إلى العراق، فرصة سانحة للتخلص من النذل سعد الميكانيكي. هكذا فكر سلمان، وصار يقول في سريرته في كل مرة يقع نظره على زوج أمه..." هذا القذر الذي علمني شرب الخمر وأنا في العاشرة من عمري، الذي كان يشبعني ضرباً إذا لم " أكرع " الكأس دفعة واحدة، والذي يبقى كل ليلة في محله يحتسي قنينة الخمر " العرق " مع غلمانه وأصدقائه من صبيان وسائقي الشاحنات واللصوص، يقوم بمضاجعة أمي وينام إلى جانبها دون أن يغتسل "... كان سلمان يشعر بالحيف والقرف ورغبة بالتقيؤ كلما تنتابه موجة التفكير تلك، وتغزوه صورة سعد وهو يرهز فوق أمه بقذارته. حاول أكثر من مرة أن يتخلص منه، وفكر بأكثر من طريقة لقتله، والآن الفرصة سانحة كي يتخلص منه، خصوصاً بعد أن كثرت حالات السرقة والتهجم بالسلاح على أصحاب المحلات والبيوت، وجاء وقت التنفيذ. الساعة العاشرة ليلاً. كان سعد قد احتسى نصف قنينة الخمر. التيار الكهربائي مقطوع منذ أكثر من شهرين. شهر تموز/ يوليو القاتل بحرارة الخانقة أجبر سعد على اتخاذ حديقة الدار مكاناً له كي ينعم بنسمة هواء. مهدية وبنتيها نيام فوق سطح الدار. اقترب سلمان من سعد الذي كان جالساً قبالة سياج البيت... التصقت عضلات بطنه بظهر سعد، ثم طوق وجهه بذراعه اليسرى الفتية... أطبق الزند على فم سعد... لزَّ رأسه الثمل إلى صدره، ونحره بالحربة العسكرية التي كان يحملها معه أينما ذهب... خرَّ الرجل صريعاً واصطبغ الثيِّل بلون الدم الساخن... نظر سلمان إلى منحر زوج أمه وهو يفور بدمائه... بصق بوجهه وهو يسمع شخرات موته، ثم توجه إلى خزان الصرف الصحي... رفع الغطاء ورمى الحربة

العسكرية في جوفه... أعاد الغطاء بسرعة بعد أن استنشق رائحة الخزان العفنة... صعد إلى سطح الدار... اقترب من سياج السطح وكأنه ينظر صوب الحديقة حيث جثة الرجل، ثم صاح في هلع وحرقة:

- لا، لا، اتركوا الرجل، إنه أبي، أولاد الكلب اتركوه، يا ناس أنقذوا أبي، اللصوص قتلوه، اللصوص قتلوه...

وراح يردد عبارته الأخيرة حتى شاهد أول ظلٍّ آدمي يقترب من باب الدار، هبط إلى الأسفل وتوجه صوب جثة القتيل. احتضنها صارخاً ودموعه تغرق عينيه:

- أبي، أبي، لقد قتلك اللصوص...

تلطخت ثياب سلمان بالدم، ووقف وهو يندب حضه بين جموع الرجال من الجيران الذين تجمهروا حول الجثة الساخنة، وراح يصرخ:

- لقد تيتمت للمرة الثانية، في الأولى كانت الحرب وفي الثانية كان اللصوص... لقد تيتمت مرتين...

بعد أن انطلت المسرحية التي لعبها سلمان بإتقان على الناس، ووالدته بشكل خاص، وبعد بضعة أسابيع من قتله زوج والدته الذي كان يعيش بكلية واحدة نتيجة تعرضه لحادثة سير قبل أن يتزوج مهدية بسنوات، والتي كانت السبب المباشر لعدم سوق سعد الفيترجي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية، أصبح سلمان المالك الوحيد لورشة تصليح السيارات، وراح يباشر عمله بشكل يومي على الرغم من أن العمل أصبح لا يجدي نفعاً. فلقد شح المال عند الناس وتوقفت الدوائر الرسمية عن العمل، علاوة على أن أغلب

الموظفين لم يستلموا رواتبهم منذ شهور. ولكن الذي كان يحصل عليه سلمان، كان كافياً لسد رمقه وعائلته، والغريب أن سلمان أخذ يمارس نفس الطقوس التي كان يمارسها زوج والدته. فعندما يحل المساء، يبقى داخل الورشة بعد أن يغلقها من الداخل، يشعل شمعة، ويخرج قنينة العرق من خزانة صغيرة كان يستخدمها سعد الفيترجي لنفس الغرض، يضع القنينة على الطاولة الصغيرة المغطاة بالشحوم وأثار الأصابع المتسخة، ويضع إلى جانب القنينة طبق يحتوي على شرائح الخيار أو وريقات الخس، ثم يحتسي الخمر في قدح متوسط الحجم يستخدم في ساعات العمل نهاراً لاحتساء الشاي، وبعد أن يشعر بالاكتفاء، وأن الخدر تملكه، يخرج من الورشة ويقفلها من الخارج ليتوجه إلى بيته الذي يبعد قرابة نصف الكيلومتر عن الورشة.

بعد مضي ستة أشهر على استلام سلمان داود لورشة زوج أمه، التقى بشخصية كان يظهر عليها الترف والتسلط في آن، شخصية غريبة لم يألف سلمان مشاهدتها من قبل، رجل في الأربعين من عمره يرتدي دشداشة بيضاء قماشها من النوع الفاخر، يعتمر العقال والكوفية الناصعة البياض، وكانت سيارته، سيارة أحلام سلمان، فلطالما حلم بسيارة مارسيدس آخر موديل بيضاء اللون. كانت زيارة الرجل الأولى إلى الورشة بسبب تبديل أحد الإطارات، وبما أن سلمان ميكانيكي وليس " بنچرچي " فلقد اكتفى بتبديل الإطار المثقوب بآخر سليم، ورفض تقاضي أي أجر جراء عمله. كانت شخصية الرجل مدهشة بعض الشيء في نظر سلمان، فلقد لا حظ عليه أنه يخرج الكلمات من فمه كلمة كلمة، كلماته تنزلق من بين شفتيه بوضوح تام، تماماً كانزلاق خرزات مسبحة بين أصابع رجل عجوز. في زيارة الرجل الثانية لورشة سلمان، قال إن سيارته

سليمة، وأنه لم يأتِ إلى الورشة بسببها، ولكنه استلطف سلمان في زيارته الأولى وفكر أن يشرب الشاي معه، راح الرجل يسأل عن سلمان وأحوال عمله:

- كم تحصل من عملك في هذه الورشة كمعدل شهري؟

فأجابه سلمان على الفور:

- ليس هناك مبلغ ثابت، المسألة متعلقة بالرزق، ولكن على العموم، كان العمل سابقاً أفضل بكثير من الآن، أقصد قبل الاحتلال، ولكن في هذه الأيام صار الحصول على زبون يمكنه دفع كلفة التصليح كما في السابق يكاد أن يكون شبه مستحيل.

- ولكن لم تجبني بالتحديد عن دخلك الشهري، يمكنك أن تضع مبلغاً تقريبياً، مئة دولار؟ مئتين، ثلاث؟

- يمكنك أن تقول مائتان.

قال سلمان، فابتسم الرجل وقال:

- لو وجدت عمل نظيف يخلصك من هذا اللون الأسود الذي يغطي جسدك وملابسك، وبضعف ما تحصل عليه شهرياً هنا، فماذا تقول؟

- بالتأكيد أقبل به...

قال سلمان بشيء من الدهشة وأضاف:

- ولكن على شرط أن يكون في مجال السيارات وتصليحها.

- اتفقنا إذاً... اليوم هو الإثنين، سوف أزورك يوم الجمعة القادم. تكون أنت في هذه الفترة قد وجدت شخصاً غيرك يدير أمور

الورشة، وأكون أنا قد جهزت لك العمل، سوف آخذك بسيارتي إلى المكان الذي ستعمل به بمبلغ خمس مائة دولار شهرياً.

وبالفعل أتى الرجل على موعده، وأخذ سلمان في سيارته حيث العقيد حميد هلال.

تخصص سلمان بتفخيخ السيارات وتجهيز العبوات الناسفة، وأصبح الساعد الأيمن للعقيد حميد هلال.

◆

لم يكن سلمان داود أسوأ نموذج لأيتام العراق، بل هناك من هو أكثر سوءاً، فالحروب التي شهدها العراق، والإعدامات المجانية التي كان يتعرض لها أبناء المجتمع العراقي، قد أنتجت ملايين الأيتام، نعم ملايين الأيتام، هم من يقود الشارع العراقي الآن. وهذا ما دعى الأستاذ عبد الإله مدرس مادة اللغة العربية، إلى التحدث بمرارة واضحة حين وقف على أشلاء متناثرة لصبي في العاشرة من عمره كان يشتغل حمّالاً في سوق المحمودية الشعبي. كان الصبي يشتغل على عربة صغيرة تتناسب وحجمه، ينقل البضائع مقابل أجر زهيد، يعول به عائلته. في ذاك اليوم وقبل قرابة الساعة من وقوف الأستاذ عبد الإله على أشلائه المتناثرة، كان الصبي قد اتفق على نقل علبة كارتونية متوسطة الحجم إلى جهة غير معروفة، حيث جرى الاتفاق مع شابين يعرفهما أبناء المدينة بشكل جيد، على أن يضع الصبي العلبة الكارتونية في عربته ويتجه بها صوب طرف المدينة الغربي حيث البناية المهجورة لمستشفى المحمودية القديمة، وعلى شرط أن تكون الجهة المقابلة لبناية " خان السبيل " هي الجهة التي يسير فيها الصبي مع عربته. وبالفعل أخذ الصبي طريقه دافعاً العربة في الجهة الأكثر ازدحاماً بالمارة، وما أن وصل

بعربته محل " باتا " لبيع الأحذية، حتى انفجرت العلبة الكارتونية وتطايرت خشيبات العربة، مختلطة بنتف لحم الصبي وأشلاء من كانوا بقربه. حدث ذلك بفعل ضغطة بسيطة من إصبع أحد الشابين على زر التحكم في جهاز التفجير.

اغرورقت عينا الأستاذ عبد الإله بالدموع. خلع نظارته الطبية السميكة ومسح عينيه ثم قال:

- قولوا عني ما تشاؤون، ولكن عليكم أن تسمعوني أولاً، نحن الرجال ومن خلفنا زوجاتنا، ننتمي إلى أسر نكون نحن بالضرورة من يحمل المسؤولية اتجاهها، وأسرنا تضم بالضرورة عدداً من الأطفال. ونحن نشقى ونسهر الليل ونكافح من أجل تربية أطفالنا، نكد في العمل، ونفكر في أفضل الطرق والأساليب لتعليم أبنائنا قواعد الحياة وأصول احترام البشر والتعامل معه، نتابع باستمرار، ونستشير باستمرار، نراقب ونرى ونسمع، ونبحث في كل شيء يخص عالم أطفالنا من أجل أن نهذب عالمهم ونعيده إلى عالم الصواب إذا اكتشفنا أي شطط أو بداية انزلاق نحو الخطأ، ورغم كل هذا، نكتشف في نهاية الأمر أن أحد أبنائنا قد انحرف عن طريق الصواب، أو سلك سلوكاً غير إنساني، فما بالكم بأيتام الحروب الذين اتخذوا من الشوارع مكاناً للتعلم والتربية والنوم والمعيشة؟ أيتام لم يعلمهم أحد، لم يعرفوا دفء الأسرة وحنان الأم ورأفة الأب، أيتام تعلموا الشحاذة وتعرضوا للاغتصاب ودخلوا السجون وامتصت الأرصفة الباردة كراماتهم...

مسح عينيه مرة أخرى واستمر بقوله:

- لقد شهدتُ الاتفاق الذي جرى بين الصبي الذي أصبح أشلاءً وبين الشابين الذين اتفقا معه، إنهما من أيتام الحروب،

الأول أُعدِمَ والده عام 83 في ساحة الإعدام التي نصبها النظام خلف سكة القطار بمحاذاة نهر " البزل " شرق المدينة، والثاني لم يُعرف عن والده أي شيء سوى تلك الورقة التي تسلمتها زوجته من الفرقة الحزبية عام 85 لتخبرها بأن زوجها قد فُقِدَ في معركة خاضها قاطع المحمودية للجيش الشعبي في إحدى جبهات القتال. ما ذنب هذا الصبي الصغير الذي نُحِبهُ جميعاً، كوننا نعرفه، ونعرف فقر عائلته المدقع؟... ما ذنب الآخرين من الضحايا؟... ما ذنب صديقي الذي ذهب بنفسه إلى مركز الشرطة ليبلغ عن مجموعة إرهابية تعيث في المدينة وأرواح أبنائها خراباً وقتلاً، ليقتل بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من وقت إبلاغه عن الإرهابيين وهو في طريقه إلى بيته؟

صمتَ الأستاذ... خلع نظارته وطأطأ رأسه إلى الأرض... شاهد بقايا قحفة رأس الصبي يغطيها شعره الأسود... وضع نظارته على عينيه واستدار نحو اليمين ليسير صوب مكانه المعتاد الذي شهد الاتفاق بين المجرمين والصبي... نقل أقدامه وهو يقول:

- إنا لله وإنا إليه راجعون... إنا لله وإنا إليه راجعون.

سيرة (2)
شياطين المدينة

قيل منذ قرون مضت، عن منطقة معينة، كانت تشكل جزءاً من الطريق الواصل بين بغداد عاصمة العباسيين ومدينتي الحيرة والكوفة، بأن مَنْ يسلك طريقها لا يتعرض لأشعة الشمس الحارقة مسافة تتجاوز الفرسخين، نظراً لكثافة نخيلها وأشجارها متنوعة الثمار. في تلك المنطقة التي كان المسافرون يتخذون منها مكاناً لاستراحتهم، حيث وفرة مائها وصفاء أجوائها، أنشئت مدينة المحمودية.

كانت المنطقة تحتوي على بيوت متفرقة بنيت حسب الحاجة. فأصحابها أما أن يكونوا فلاحين أو نواطير يحرسون البساتين والحقول، بالإضافة إلى بيوت مالكي البساتين والأراضي الزراعية. وظل الحال على ما هو عليه حتى عام 1868 حيث بني "خان السبيل" ليكون دار استراحة للمسافرين ودوابهم. بعد ذلك انتشرت البيوت متحلقةً حول الخان لتتسع المدينة بسرعة مذهلة. فلقد كانت محط أنظار كل من مر بها لجمال طبيعتها.

وحين أخذت المحمودية شكل المدينة، بدت صغيرة محاطة ببساتين النخيل حيث جوانبها الأربعة، لتمتد عشرات الكيلومترات كأراضٍ زراعية تسكنها العشائر العراقية الفلاحية. الجنابات والسعيدات والغرير والدليم وآل بوعامر والزبيد وغيرهم. وفي فترة الحكم الملكي للعراق، خرج منها أول نائب للبرلمان، كان الشيخ علي دليمي الغريري شيخ عشيرة الغرير.

حتى منتصف السبعينيات من القرن المنصرم، كانت أرضها خصبة ومنتجة للمحاصيل بشكل وفير. ولكن، حين أصبح أغلب أبناء الفلاحين والشيوخ ومالكي الأراضي في مراكز وظيفية حساسة، كالحرس الخاص والحرس الجمهوري وأجهزة الأمن والمخابرات والاستخبارات والأمن القومي، بدأ إنتاج تلك الأراضي يقل شيئاً فشيئاً، فأولاد الفلاحين سكنوا المدينة، وحققوا حلمهم بزواجهم من بنات " حضريات "، وتحولت بعض أراضيهم، خصوصاً تلك التي تجاور المدينة، إلى مناطق سكنية. والقليل منهم أجّروا جزءاً من أراضيهم إلى فلاحين أو مستثمرين من الذين يطلق عليهم اسم " الضمّانة " الذين يشترون المحصول قبل نضوجه وأحياناً قبل زراعته.

تعوَّدَ أبناء المدينة على وجود العديد من الفلاحين في شوارعها ومقاهيها نهاراً، فهم يأتون من قراهم مع طلوع الفجر لبيع محاصيلهم الزراعية ويعودون قبل الغروب محملين ببعض ما اشتروه من بضائع كالحبوب والأقمشة والأواني وغيرها من حاجيات، وكانوا في تنقلهم بين المدينة وقراهم يستخدمون الحمير. في الصباح يقوم الفلاحون القادمون من جهة الشرق بربط حميرهم عند عمود الكهرباء الذي يتوسط شارع النصر، أما القادمون من جهة الغرب فيربطون حميرهم عند ثلاث نخلات تجاور مبنى قائمقامية المدينة، وكانت أفضل لعبة لبعض من أولاد المدينة، هي استبدال الحمير، حيث ينقسمون إلى قسمين، وبسرعة قد تستغرق أقصاها نصف الساعة ينقلون بطريقة ذكية الحمير المربوطة غرباً ليربطوها جهة الشرق وكذا الأمر مع الحمير المربوطة شرقاً، ثم تبدأ الحفلة قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر حيث يهم الفلاحون بالرحيل إلى قراهم، تتعالى أصواتهم وهم يتشاجرون مع بعضهم حول عائدية الحمير،

وقد تصل في بعض الأحيان إلى الشجار بالأيادي أو الضرب بالعقال. وفي إحدى المرات تقاتلت مجموعتان بالسلاح راح ضحيتها أحدهم، ولولا تدخل الشرطة لكانت الخسائر أكبر. عندها كف الأولاد عن لعبتهم التي لم يحسبوا حساب عواقبها الدامية، ونتيجة لذلك، عقد الفلاحون اتفاقاً مع أصحاب المحلات المقابلة لعمود الكهرباء من جهة الشرق وكان من بينهم كاظم الصائغ والحاج كاظم أبو قاسم صاحب محل العطارة وعبد الله "أبو الحريرة" وحمود ذياب "أبو الفافون" وغيرهم. وفي الجهة الأخرى جرى الاتفاق مع كتّاب العرائض (العرضحلجية) المقابلين بسقائفهم، مبنى قائمقامية القضاء من جهة الغرب، وكان من بينهم علي سلومي وعباس جيوان والملا علوان، وكان الاتفاق يلزم هؤلاء بحراسة الحمير مقابل قليل من المحاصيل الزراعية التي رفضها أغلبهم حيث تطوعوا بالحراسة والمراقبة مجاناً. ولم تكن تلك اللعبة التي كان يمارسها الصغار من أبناء المدينة هي المشكلة الوحيدة التي يعاني منها الفلاحون. بل كان هناك بعض من رجال المدينة، متخصصون بالمقالب والنكات التي يقترفونها بحقهم. كان في المدينة رجل يدعى " أبو عيودة " وهو رجل من عائلة غنية امتهنت التجارة بالقماش، ولكن طبيعته المشاكسة، وشخصيته التي يغلب عليها الفكاهة والشطارة في آن واحد، حال دون أن يسير بركب أشقائه، فصار يشتغل بكل شيء، حتى ضبطته الشرطة وهو يتاجر بالسلاح بين السعودية والعراق، حيث تم إلقاء القبض عليه من قبل قوات شرطة الحدود وبحوزته ستة مسدسات وثلاث بنادق نوع " برنو ". حُكِمَ على أثرها بسبع سنوات سجن لم يتمها حيث أفرج عنه عام 1969 بمناسبة مرور عام على تسلم الحكومة زمام السلطة. عندما خرج شاكر العبد " أبو عيودة " من السجن،

واشتغل في بيع المحاصيل الزراعية بعد أن اتفق مع بعض الفلاحين على شراء محاصيلهم وهي في الحقل. كان شاكر العبد يتمتع بذكاء حاد ودهاء نادر. في إحدى المرات وحين كان الفلاحون نائمين ظهراً بمقهى أبو "صيدة"، أتى شاكر العبد وهو يصيح بأعلى صوته... أيها الفلاحون، لقد أتاكم يوم الحساب، انفذوا بجلودكم، الويل لكم، لقد أمر سيادة القائمقام بالقبض عليكم جميعاً... وراح يكرر العبارة عدة مرات وعلامات الهلع على وجهه، وعندما سألوه عن السبب قال لهم... إن المرافق الصحية (الخلاء) الخاصة بحضرة القائمقام قد تهدمت، فأمر بإحضار جميع الفلاحين النائمين بمقهى "أبو صيدة" ليقوموا بإعادة بنائها... فما كان من الفلاحين حين سماعهم الخبر، سوى إعلانهم الفرار من المدينة، ولم يدخلوها إلّا بعد أربعة أيام، حين تبينوا كذب ودهاء شاكر العبد. في تلك الأيام الأربعة، عانت المدينة من نقص في المحاصيل الزراعية، وبعد أن تبين حضرة القائمقام شخصياً السبب وراء غياب المحاصيل الزراعية من السوق، أمر بحبس شاكر العبد سبعة أيام تأديبية.

كان لأولاد الفلاحين الحق في إطلاقهم لقب "شياطين المدينة" على أولاد وبعض رجال المدينة، فكثيراً ما وقعوا ضحية دسائس ومؤامرات حاكها ضدهم رجال وأبناء المدينة، تحت ذريعة المزاح والتفكه، وبالتالي فإن أبناء الفلاحين، كثيراً ما سمعوا حكايات عن المدينة وسكانها، وكونوا أفكاراً وصوراً خاصة عنها قبل أن يدخلوها...

(*) إشارة... "إن أقدم مدرسة (منظمة) في العالم، شيدت في بلادنا في عهد حمورابي (1972-1750ق.م) في مدينة سبار، الواقعة في غربي مدينة المحمودية وهي اليوم أطلال (أبو حبّة). وقد تعلم الطلبة في صفوفها جميع العلوم المعروفة في تلك الأزمنة حتى أصبحت كوارة امتص منها جدودنا

كوثر العلوم والفنون ونبراساً يدد غياهب الجهل في البلاد. ولا عجب في كل ذلك إذ تعهدها أساتذة عديدون ودرس في صفوفها معلمون أفاضل. قال براستد في كتابه "العصور القديمة": (ورأى البابليون إن المدارس ضرورية لتربية الشعب واعداد الشبان لتولي أمر الكتابة في المحال التجارية الكبرى. وقد وجد الآثاريون آثار مدرسة في أطلال بابل منذ عهد حمورابي، ومن تلك الآثار، ألواح الآجر التي كان الطلبة من الجنسين يكتبون عليها الفروض المدرسية منذ أربعة آلاف سنة)".
عن كتاب، "مدراس العراق قبل الإسلام" تأليف رفائيل بابو اسحق. شركة دار الورّاق للنشر المحدودة. لندن 2006. الفصل الأول "التدريس في العراق القديم، صفحة 13-14.

سيرة (3)
توفيق الحاج مطرود (توفيق الأعرج)

توفيق الأعرج شاب في الرابعة والثلاثين من عمره. ولد في مدينة الإسكندرية التابعة لمحافظة بابل عام 1970. والده صاحب مقهى صغيرة. رجل أمّي، لكنه كان محباً ومشجعاً للعلم والقراءة والكتابة. كان يكن الاحترام لكل شخص يستطيع القراءة والكتابة كونه حُرِمَ منها نتيجة ظروفه العائلية والمعاشية الصعبة، كما كان يقول. وحين تزوج الحاج مطرود - والد توفيق - ورزق بذرية. صار شديد الحرص على تعلم أبنائه وبناته، كان يسمح بتقاعس أولاده في أي أمر، إلّا أمر الدراسة والنجاح والتفوق، حتى تخرج ابنه الأكبر "سعدون" من كلية الزراعة، ليكون مهندساً زراعياً يختص بالتربة، في الوقت الذي كان ابنه الثاني في سنته الثانية لدراسة الهندسة الكيماوية في الجامعة التكنولوجية ببغداد، كان توفيق آنذاك في الصف الرابع الابتدائي. في تلك السنة انطلقت شرارة الحرب، ليصبح شقيق توفيق الأكبر، ضابطاً مجنداً برتبة ملازم ثاني في سلاح الدروع، حسب ما خططت له وزارة الدفاع أو القيادة العامة للقوات المسلحة، حين أمرت بتصنيف كل خريج تخرج من الاعداديات والمعاهد والكليات الزراعية، إلى صنف الدروع كونه خبيراً بطبيعة الأرض والتعامل معها حسب اعتقادها.

استمر سعدون، شقيق توفيق الأكبر، ضابطاً في سلاح الدروع لمدة تجاوزت العام، حتى عاد إلى أهله في صندوق خشبي ملفوف بالعلم العراقي.

قبل موت ابنه الأكبر، كان الحاج مطرود يحث كل طالب يقابله في المقهى أو الشارع أو أي مكان آخر، على مواصلة الدراسة وأهميتها في بناء المستقبل، ولكنه بعد أن فُجِعَ بمقتل ولده الأكبر الذي كان يحسب له الأيام والشهور كي يحصل على شهادة جامعية، تغيرت نظرته للدراسة وأهميتها بشكل جذري، وصار يحارب كل من يهتم بدراسته، وأول ما فعله، هو إجبار توفيق الذي كان يخوض امتحانات السادس الابتدائي الوزارية، على ترك الدراسة. حدثت نتيجة ذاك مشاحنات بين الحاج مطرود وولده " محسن " الذي ينتظر تخرجه من كلية الهندسة الكيماوية، وبعد أن تحول بيت الحاج مطرود إلى جحيم لا يطاق، كان أكثر ضحاياه بنات الحاج وزوجته. نجح رب الأسرة في إيقاف توفيق عن الدراسة بعد أن حصل على شهادة السادس الابتدائي.

في إحدى الأمسيات الصاخبة بالنقاشات وارتفاع الأصوات وتقديم الحجج والبراهين من قبل الطرفين، وبعد أن حاول محسن أن يبين لوالده أهمية الشهادة وكيف أنه سيصبح مهندساً كيماوياً وهذا يبعده عن جبهات القتال. وقف الحاج مطرود بعد أن سمع نواح زوجته وهي تندب حظها العاثر في فقدانها ولدها الأكبر. وقف عند باب غرفة الجلوس، وكان جميع أفراد العائلة حاضرين، زوجته وولديه وبناته الثلاث، وقف ليتكلم، ولكنه صمت لبضع دقائق. تغير لون عينيه ليأخذا لون دم ولده القتيل، مما دعا إلى انهمار دموعه عند أول كلمة قالها:

– من منكم يقبل، أن يخسر سنوات من الكفاح والجهد المضني والقلق والسهر؟... كيف ترضون أن تمنحوا تعبكم وقلقكم على مستقبلكم إلى رصاصة تستقر في جسدكم لتصبحوا جثثاً

هامدة؟... ففي الوقت الذي كان سعدون حانياً على كتبه، حارماً نفسه من متعة اللعب ومشاهدة التلفزيون وضحكات الأصدقاء وهواء الليل الصيفي المنعش، كي يصنع لنفسه مستقبلاً محترماً، كان بعض من أقرانه يلعبون كرة القدم، جاعلين من كتبهم كرات تتناقلها أقدامهم، كانوا ينامون ساعات طوالاً، ويتمتعون بملاهي الحياة، حتى أصبحنا نطلق على قسم منهم التسمية المعروفة "أولاد شوارع"...

شعر الحاج مطرود بغزارة دموعه وحاول أن يجففها بطرف كوفيّته ثم أضاف:

- ولكن ما هي النتيجة؟... صار سعدون من حملة الشهادات الجامعية ليُساق إلى ماكينة الحرب فيتحول إلى زيت يديم عمر الماكينة، وصار أولاد الشوارع شرطة في الأمن والمخابرات وغيرها من الأجهزة، يحملون مسدساتهم ويتجولون في الشوارع، ينامون في أحضان زوجاتهم وعشيقاتهم وعشاقهم... يسكرون ويأمرون وينهون... يخشاهم الكبير من حملة الشهادات العليا والصغير من العمال والكسبة. والآن ماذا تقولون عن غبائي وجهلي؟ لو لم أزرع في روح سعدون حب العلم والتعلم وحب الناس، لما قُتِلَ... لكان قد أصبح واحداً من هؤلاء الكلاب الذين يخشاهم الناس، ولقد قررتُ أن أجعل من توفيق واحداً من هؤلاء الكلاب...

صمت الحاج مطرود لثوان ثم صرخ قائلاً:

- الزمن زمن الكلاب... الزمن زمن الكلاب...

ثم استدار واختفى عن الأنظار.

كان ذلك آخر نقاش دار بين أفراد العائلة حول أهمية استمرار توفيق بالتعليم.

انقطع توفيق عن الدراسة، وأصبح يشتغل مع والده في المقهى، وصار والده يذبل شيئاً فشيئاً، حتى عاد لا يقوى على العمل. وتخرج محسن شقيق توفيق من الجامعة التكنولوجية، وتم تعينه في القسم الكيميائي التابع لمنشأة القعقاع العسكرية القريبة من مكان سكناه. حين ذاك صار محسن يفكر بالزواج والاستقرار، وشغلته ساعات عمله الطويلة عن متابعة شؤون العائلة، وصار توفيق يدير مقهى والده بشكل كامل رغم صغر سنه. كانت والدته التي أنهكتها زيارة قبر ولدها مرة أو مرتين في الأسبوع، حيث طول المسافة بين مدينة الإسكندرية ومقبرة وادي السلام في النجف، تفكر بشأن صغيرها الذي صار يكبر ليزحف عمره نحو سن التجنيد الإلزامي والحرب لا تزال تأكل أبناء العراق من الشباب، ولكن شاء القدر أن تتوقف الحرب في نفس الشهر الذي سيق فيه توفيق للخدمة الإلزامية، وعلى الرغم من الفرحة الخجولة التي عمت أسرة الحاج مطرود، إلا أن الظرف الجديد الذي تمر به العائلة نتيجة إقفال المقهى لعدم وجود من يشغلها، وَضَعَ العائلة في موضع اقتصادي صعب. وأصبحت العائلة تعتمد على الراتب التقاعدي الممنوح لولدها القتيل، سعدون، خصوصاً بعد أن تزوج محسن وحصل على شقة سكنية في مدينة المحمودية، ضِمنَ مجمع الشقق السكنية الخاصة بموظفي وعمال المنشآت العسكرية.

صار توفيق ضمن صنف المدفعية، وكانت وحدته العسكرية تعسكر في أطراف مدينة العمارة حين شرعت القوات العراقية بعملياتها العسكرية لاحتلال دولة الكويت. وحين تم الاحتلال، انتقلت كتيبة المدفعية التي ينتمي إليها، إلى منطقة العبدلي الكويتية القريبة من الحدود العراقية. هناك قضى توفيق وغيره من الجنود العراقيين شهوراً، تحمَّلَ فيها قيظ الصحراء وبردها، عاش الخوف

وتحمَّلَ الجوع والعطش، فلقد دخل العراق فترة الحصار الاقتصادي، وصار الجندي العراقي يتناول ربع وجباته الغذائية الاعتيادية. ازدادت ظاهرة الرشاوى التي كان يدفعها الجنود إلى ضباطهم كي ينعموا بإجازة إضافية لزيارة عوائلهم، وتفشت ظاهرة الهروب من الجيش بشكل كبير، ومن الطبيعي حسب قانون الدولة، أن يقابل هذه الظاهرة، ظاهرة الإعدامات التي كانت تنفذ بحق الجنود الفارين.

عند اقتراب انتهاء المهلة التي حددها الرئيس الأمريكي، لانسحاب القوات العراقية من الكويت، وبعد تفشي الشائعات التي تفيد بأن القيادة العراقية هي من تعمدت تجويع الجيش العراقي وإنهاكه، كونها عقدت الاتفاق مع القوات الأمريكية على التخلص من الجيش العراقي، بعد أن أصبح جيشاً قوياً يمتلك الخبرة القتالية والعدد الهائل من المقاتلين بعد خروجه من الحرب العراقية الإيرانية، والذي أصبح يهدد أمن الأعداء، حدثت ظاهرة هروب جماعية لأغلب أفراد الجيش العراقي قبل ما يقارب عشر ساعات من انتهاء المدة المقررة.

فرَّ الآلاف من الجنود صوب البصرة سيراً على الأقدام، وعند وصولهم بعد منتصف الليل حدود المدينة، دوت الانفجارات وعلا هدير الطائرات وصارت الحرب أمراً واقعاً، مما تسبب بفرار البقية الباقية من الجنود العراقيين صوب البصرة، لتختنق المدينة وضواحيها بآلاف الجنود الذين قرروا مواصلة السير على الأقدام شمالاً حيث المحافظات الأخرى، بعد تأكدهم من استحالة الحصول على مركبات تقلهم حيث وجهتهم، وعند الساعة الثانية ظهراً، أي بعد اثنتي عشر ساعة من بدأ هجوم قوات التحالف

لتحرير الكويت، وحين كان الطريق الدولي الذي يربط محافظة البصرة بمحافظة الناصرية يكتسي اللون الخاكي بدلاً من لون الأسفلت، حيث العدد الهائل للجنود الفارين. صبت الطائرات الأمريكية غضبها على الفلول الهاربة، لتتطاير الرؤوس والأشلاء ويصطبغ الشارع بلون الدم العراقي المنهك، لا مكان للاختباء، لا شجرة، لا حفرة. رأس الجندي العاري مقابل حمم الفانتوم. قنابل عنقودية وانشطارية وحارقة واهتزازية. أصابع وأمعاء وأقدام ورؤوس، صرخات وعويل وبكاء، كان توفيق داخل هذا الجحيم، حاول أن ينبطح بجانب السور المعدني للشارع كي يتقي شظايا القنابل، وقبل أن يأخذ وضع الانبطاح سمع دوي انفجار قريباً منه، أفقده وعيه.

استفاق توفيق على ألم يمزقه، لا يعرف في أي مكان من جسده، وشعر أن قوة تسحبه باتجاهها، تصاحبها همهمات مفزعة، حاول أن يتبين مصدر تلك القوة التي تسحبه ببطء، ولكنه فشل في رفع رأسه، ثم حاول مرة أخرى ليشاهد حيواناً ضخماً يطبق فكيه على ساقه اليمنى، صرخ بأعلى صوته... أنجدوني الذئاب تأكلني... كرر توفيق صراخه ولم يتوقف حتى سمع إطلاق رصاص بالقرب منه، لقد أنقذه أحد الجنود بإطلاقه الرصاص على الحيوان الذي لا يعرف توفيق وصفه أو تحديد جنسه، إن كان كلباً أم ذئباً، ولم يعرف بعد ذلك كيف وصل إلى المستشفى، ومن الذي نقله إليها، والذي يعرفه فقط أن ساقه قد بُترت، ليصبح اسمه إلى الأبد توفيق الأعرج.

❖

منذ أن فقد توفيق الحاج مطرود ساقه، وهو ينتقل بين عمل وآخر، حتى فقد الأمل في إيجاد عملٍ له بعد أن استنفذ كل الأماكن في المدينة والمدن المجاورة. فما من مكان عرفه إلا وأشتغل فيه لفترة وجيزة لينتقل تحت ظروف مختلفة إلى عمل آخر. أستقر رأيه أخيراً على أن يعمل لحسابه الخاص، ولم يجد أفضل من صباغة الأحذية. أشترى صندوق الصباغة وبعض الدهون، ثم اتخذ الفسحة الترابية المحصورة بين السوق الشعبي ومركز شرطة الحصوة، مكاناً لعمله، وكان مردود العمل المادي بالكاد يكفي لسد رمقه وأخته الصغرى. استمر بعمله ذاك مدة عامين، حتى اقترح عليه أحد الأشخاص عملاً أفضل. كان ذلك الشخص يتردد عليه في فترات متقطعة. اقترح على توفيق أن يترك العمل في صباغة الأحذية، عارضاً عليه العمل مديراً لمنزل أحد الأشخاص، وراح الرجل يعد على أصابعه مزايا العمل، حيث السكن والأكل والشرب بالمجان مقابل مبلغ شهري لا بأس به.

الحقيقة، أن الرجل الذي اقترح على توفيق العمل كمدير منزل، كان قد تأكد بشكل قاطع من الكره الشديد الذي يكنه توفيق للأمريكان، فكان كثيراً ما يردد كلمات تعودت على سماعها آذان كل من عرفه وقابله، كانت الكلمات تلك تترجم مأساته وتظهر بساطة تفكيره، وذلك الانكسار النفسي الذي هو عليه، كان عادة ما يبدأ كلامه فيقول

- إن لم تمتْ بالسيف، تموت بالقندرة (الحذاء)، هذا هو حال الدنيا، موت في موت، الأحياء أموات والأموات أحياء عند ربهم يرزقون...

عادة ما يطلق ضحكة عالية بعد تلك المقولة ليضيف:

- جاءوا من آخر الدنيا ليحرروا الكويت، وهذا حقهم، ومن حق الكويت أن تدفع دم قلبها من أجل تحرير أرضها، ونحن الجنود المساكين قمنا بمساعدة قوات التحالف وتركنا جميع الآليات والمعدات والسلاح لهم وهربنا إلى مناطقنا، خطّينا بحروف الجوع والانكسار والمذلة، على شوارع البصرة والعمارة والناصرية والكوت وصولاً إلى بغداد، لافتة كبيرة يمكن قراءتها بجميع لغات العالم، تقول "لقد تركنا لكم كل شيء فاتركونا نصل بسلام لأهلنا"، كانت حشود الجيش الفارة من الحرب تترجم ذلك بوضوح. ولكن قوات التحالف كافأتنا بهدايا من النوع الثقيل، شتى أنواع القنابل والصواريخ، وأصبحت جثث الجياع تغطي الطريق الدولي بين البصرة والناصرية...

ثم يطلق توفيق ضحكة أخرى ليقول:

- قال لي أحد الجنود المصابين عندما كنا نرقد في المستشفى والذي بُتِرتْ يداه وإحدى ساقيه، أن الذين أسقطوا علينا قنابلهم وصواريخهم لم يكونوا من قوات التحالف!! بل كانوا من منظمة الرفق بالحيوان! هؤلاء عرفوا بعد البحث والتدقيق المضني، أن الكلاب وحيوانات الصحراء في جنوب العراق معرضة للانقراض نتيجة الجوع الشديد الذي تعانيه. فقرروا إطعام تلك الحيوانات اللحم البشري العراقي، لأنه ألذ أنواع اللحوم في العالم. لعنة الله على الحروب والجيوش وقادتها، ما ذنبي أنا؟...

وهنا تبدأ الجملة الأخيرة من كلام توفيق حين يعمد على رفع طرف دشداشته ليظهر ساقه المبتورة وهو يقول:

- ما الذنب الذي اقترفته كي أعيش طوال حياتي معاقاً؟... هل هناك امرأة تقبل بي زوجاً لها؟... صدقوني لقد وصلت إلى عمري

هذا وأنا أحلم في المرأة... متى أمارس الجنس كما يمارسه الآخرون؟...

ثم يرفع رأسه لينظر بوجه من يتحدث إليه ويسأله مازحاً:

- هل تعرف فتاة أو امرأة تقبل أن تتزوج معاقاً؟

امتثل توفيق لاقتراح الرجل. باع صندوق الصباغة إلى صبي في الرابعة عشرة من عمره، وأنتقل إلى العمل في منزل السيد العقيد حميد هلال في منطقة اللطيفية بدرجة مدير منزل، وهناك وجد توفيق ضالته وصار قادراً على ترجمة حقده على القوات الأمريكية التي حرمته من الزواج وممارسة الجنس كما يعتقد.

سيرة (4)
سليمة عليوي، كاتبة الطابعة
في محكمة بداءة المحمودية

كان يوماً ربيعياً من أيام عام 1983، ذلك اليوم الذي باشرت فيه كاتبة الطابعة "سليمة عليوي" عملها في محكمة بداءة المحمودية. تعرفت على الموظفين بعد أن قضت ساعة كاملة في مكتب "الرفيق عبد الكريم" مدير أمن المحكمة. وسليمة عليوي، امرأة عراقية سكنت مدينة المحمودية قادمة من جنوب العراق. كانت تضع سبب انتقالها إلى المحمودية على كاهل الحرب، فلقد أتت بسبب كوارث الحرب وأصوات الانفجارات وخوفها على طفلتيها. كان ذلك كلامها الذي صارت تتداوله بين زميلاتها موظفات المحكمة، بعد أن عقدت اتفاقاً مع عبد الكريم، بعدم ذكر المكان الحقيقي الذي أتت منه. ولكنها سرعان ما اختلفت معه، وأصبحت تتشاجر معه علانية، وكان صراخها يهز أرجاء بناية المحكمة في كل نوبة شجار بينها وبينه. وفي إحدى نوبات الغضب، صرخ الرفيق عبد الكريم بوجهها وبأعلى صوته:

- أنتِ امرأة مخادعة، لعوب، أتيتِ من محافظة الناصرية، وأوراق نقلكِ في درج مكتبي! رحتِ تكذبين على زملائكِ من الموظفين والموظفات على أنكِ أتيتِ هاربة من الحرب، ومن المؤكد أن وراء كذبك هذا جريمة غامضة! فأية حرب هذه التي شهدتها مدينة الناصرية؟... ثم من يثبت نسبكِ إلى مدينة الناصرية؟... إن كنتِ موظفة هناك، فهذا لا يعني بأنكِ تنتمين إلى المدينة!!

لم يتغير شيء في ملامح سليمة، بل بقيت على سكونها والابتسامة مرسومة على محياها، حتى قالت:

- لعنة الله عليك وعلى كل موظفين المحكمة، والذي لا يريد أن يصدقني، يستطيع أن يبول في طريقي كي أزلق في بوله وأقع على رأسي... رجل خرف ومراهق.

هكذا أنهت سليمة شجارها مع عبد الكريم حيث استدارت ودخلت الغرفة الخاصة بكاتبات الطابعة.

كان الرفيق عبد الكريم - وصِفة "الرفيق" تلك، اكتسبها بسبب درجته الحزبية العالية - محقاً في ما قاله. فسليمة جاءت من مدينة الناصرية مع بنتيها والرجل الذي تدعي بأنه زوجها، وهو عسكري برتبة نائب ضابط في سلاح المدفعية. وبعد فترة من عملها في محكمة المحمودية، صارت الشكوك تحوم حولها، بسبب كذبها المستمر والمفضوح في بعض الأحيان، حول حقيقة وضعها العائلي والاجتماعي. ولولا كذبها لما اهتم أحد بمعرفة ماضيها وحاضرها.

حين هدأت نوبة الشجار الأخيرة، بين الرفيق عبد الكريم وسليمة، تحلّق بعض الموظفات حولها، ورحن يهدئن من روعها، فشعرت ببعض الارتياح خصوصاً بعد أن قالت إحداهن بأنها وزميلاتها لا يكترثن كثيراً فيما إذا كانت قادمة من الناصرية أو أية منطقة أخرى، وانبرت إحداهنّ قائلة:

- شرف يكتسبه الشخص، إن كان ينتمي إلى تلك المدينة التي أنجبت كبار الفنانين والكتاب والمثقفين من أبناء العراق. فلماذا تحاولين إخفاء شيء مشرّف؟

وقالت الأخرى بأن عبد الكريم، رجل عصبي وكثير المشاكل،

والثالثة التي كانت أكثر جرأة من سابقاتها قالت، بأنه رجل متخلف ولا يملك سوى شهادة المتوسطة، ولكن درجته الحزبية هي ما كانت وراء تعيينه بهذا المنصب. بدأت سليمة تشرح لهن سبب المشاجرات المتكررة بينها وبينه، فقالت:

- هذا الرجل الخرف، الذي لا يستطيع قراءة سطر واحد بسبب تخلفه، وقصر نظره على الرغم من نظاراته القبيحة، حاول أكثر من مرة أن يغويني. وفي كل مرة يختلي بي في مكتبه، يحاول أن يمد يده إلى صدري أو يقترب مني ليلتصق بجسدي، وكنت في كل مرة أردعه وأعنفه وأهدده بفضح الأمر إلى القاضي، ولكنه كان مصراً على الإيقاع بي...

نظرت إلى الأخريات ضاحكة ثم قالت:

- والله لو كنت أعرف بأنه قادر على تحقيق ما يريد لمنحته مبتغاه وأنا راضية.

علت ضحكات الموظفات التي اصطحبت ببعض الإشارات الدالة على الممارسات الجنسية مستخدمات أكفهن وأصابعهن وسواعدهن كل حسب طريقتها في التعبير.

كعادتها لم تقل سليمة عليوي في حديثها إلى زميلاتها كل الحقيقة، بل اكتفت بالبوح في النصف الأول منها، وتركت النصف الثاني الذي يكشف ألاعيبها. فهي من بادرت بإثارة عبد الكريم، مدير إدارة المحكمة، أو مدير أمنها، وتلك وظيفة استحدثتها الحكومة العراقية منتصف السبعينيات كي تزرع في كل دائرة أو مؤسسة حكومية مهما كانت أهميتها، عين من عيونها الحزبية، تقوم برصد كل تحركات الموظفين، بالإضافة إلى مهمة التحقيق والحجز

بحق أي موظف، أو مراجع تصدر بحقه الأوامر من الجهات العليا، حزبية كانت أم أمنية. وكانت سليمة تعرف أهمية ذلك المنصب الذي يتمتع به عبد الكريم، وهي تعرف أيضاً بأنه سيستلم تقريراً مفصلاً عن كل مشاكلها في مكان عملها السابق، فهذه من مهمات مديري إدارة الدوائر الرسمية. ولهذا عمدت منذ اليوم الأول لاستلام وظيفتها في مكانها الجديد، التودد إليه. ففي المقابلة الأولى بينها وبينه، وحين أخذت مكانها على كرسي قبالة مكتبه. كانت المسافة بينها وبين المكتب كافية كي ينتبه السيد المدير إلى فخذيها التي تعمدت إظهار جزءٍ منهما، ثم راحت تتحدث بغنج عن حالتها وقلبها الطيب الذي لا يرد طلباً لأي شخص، مهما كانت صعوبة تحقيق ذلك الطلب، ثم راحت تبالغ بعض الشيء بإظهار بعض مفاتنها بحركات تمرست عليها، خصوصاً بعد أن لاحظت عدم اكتراث السيد لما أظهرته من فخذيها معتمدة على قصر تنورتها. راحت تضع كفها اليمنى على ثديها القريب لتمرره ببطء إلى الثدي الأيسر وهي تتكلم عن طيبة قلبها، ولم تتوقف عن تلك الحركات، حتى ناولها الرفيق عبد الكريم، ورقة طلب منها قراءتها كونه لا يستطيع رؤية ما مكتوب، متحججاً بصغر حجم الكلمات، عندها أيقنت سليمة بأن الرجل الذي أمامها شبه أعمى، وراحت مستغلة للموقف. اقتربت منه حتى لاصق جسدها ذراع الرجل وهي تضع الورقة أمامه، وشرعت بقراءتها بصوت خافت، شعر عبد الكريم بأنفاسها وعطرها الرخيص، وعرف ما تبتغيه تلك المرأة. اعتراه شيء من الزهو وتحركت ذكورته على غير عادتها. طلب منها على الفور تأجيل اللقاء حتى نهاية الوقت المحدد للدوام الرسمي، متحججاً باجتماع طارئ في الفرقة الحزبية، وأن عليه الذهاب حالاً كي لا يتأخر، وأنه سيعود قبل انتهاء وقت العمل بقليل. سحبت

سليمة جسدها وفهمت الإشارة، نتيجة خبرتها الواسعة في مثل تلك المواقف. شعرت ببعض الارتياح لنجاح مساعيها الإغرائية مع الرجل "الأعمى البغيض" كما صارت تسميه.

في الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة دخل "عناد" الفراش إلى غرفة الطابعة ليخبر سليمة أن الأستاذ مدير إدارة المحكمة يطلبها في مكتبه. لاحت إشارات الفرحة على وجه المرأة. خرجت من غرفتها وهبطت السُلَّم لتصل الطابق الأرضي حيث مكتب عبد الكريم. كان باب المكتب مغلقاً. وقفت سليمة عند الباب وراحت ترتب هندامها بحركات سريعة، ثم طرقت الباب وفتحته دون أن تسمع الإذن بالدخول:

- السلام عليكم... قال لي عناد الفراش بأنك تطلبني!... تحت أمرك أستاذ، تفضل، أنت تأمر وأنا أنفذ.

ثم أطلقت ضحكة ماجنة، كانت كافية لحقن الدم في عروق الرجل. طلب منها أن تدير المفتاح المعلق بثقب الباب، وتتأكد من إقفالها والجلوس إلى جانبه، حيث الأريكة المجاورة لطاولة المكتب. جلست المرأة إلى جواره، وكانت المسافة بينهما لا تتعدى بضعة سنتيمترات، حينها قال:

- اسمعي سليمة! أنا رجل محترم وسمعتي لا تشوبها شائبة، وعدم معرفتك بي، يعد أمراً طبيعياً، لأنك جديدة على هذا المكان وهذه المدينة. أنا ابن هذه المدينة من أب وجد، لذا أرجو منك ألا تعصي لي أمراً، وألا تناقشيني في أي أمر، وسوف أقدم لك أية مساعدة تطلبينها، في حال طاعتك لأوامري، فمنصبي ودرجتي الحزبية كفيلة بحل أية مشكلة...

حاولت سليمة أن تقول شيئاً، ولكنه طلب منها السكوت والاستماع له ثم أضاف:

- ولكن، وفي المقابل عليكِ أن تعرفي جيداً أن غضبي شديد ومؤلم جداً، وإذا غضبت على أحد، فأني أكسر رقبته بسهوله.

لم تستطع المرأة الالتزام الصمت طويلاً فقالت:

- عيوني أستاذ عبد الكريم، أنا طوع يديك، أنت فقط تأمر، ليس في الكلام، لا، تكفيك الإشارة فقط، وسأكون خادمتك المطيعة...

ثم حاولت التقرب منه حتى لامس وركها فخذ الرجل، وأصبح وجهها قريب من وجهه وصار الإثنان يتنفسون أنفاس بعض، ثم أضافت بهمس:

- حتى لو طلبت مني أن أخلع لك ملابسي، فأنا جاهزة من الآن، وإذا لم تصدق ما أقوله، جربني، الآن...

ثم مسكت كفه اليمنى وسحبتها حيث ثديها الأيسر وهي تقول:

- هذا قلبي كله لكَ، أنتَ من الآن الآمر الناهي، وأنا في خدمتك...

لم يتمالك الرجل نفسه. احتضنها وراح يقبلها ويتحسس أجزاء جسدها المثيرة. شرعت سليمة إلى استنزاف خبرتها الطويلة في المضاجعة، ومعرفتها الجيدة بمعادن الرجال. مدت يدها إلى أزرار بنطاله، وراحت تدلّك رمز ذكورة الرجل... سيطر الشبق على كيان عبد الكريم. دفع المرأة لتستلقي على الأريكة، ثم ارتمى عليها. ضاجعها، أم هي التي ضاجعته، هذا لا يهم، المهم أن المرأة التي

تحته، صارت له مصدر جديد من مصادر المتعة، وشعر بأنه قد امتلك هذه المرأة، التي ستكون له عوناً في التجسس والسيطرة على أمور المؤسسة التي تقع عليه مسؤولية إدارتها أمنياً...

استمرت العلاقة بين سليمة والرفيق عبد الكريم وقتاً ليس بالقصير، خصوصاً بعد أن أبرم الاثنان اتفاقاً، يقضي بأن تمتثل سليمة لأوامر مدير أمن الدائرة، مقابل التزام عبد الكريم بعدم ذكر المنطقة التي أتت منها سليمة، وعليه أن يقول لمن يسأله عنها، بأنها أتت من المحافظات الجنوبية بسبب ظروف الحرب، وصارت لقاءات العشق التي تجمعهما، كثيراً ما تجري في بيت سليمة عليوي بمنطقة "السراي"، كونها تعيش وحدها مع بنتيها، بسبب ظروف الحرب التي فرضت على زوجها الغياب عن بيته أغلب أيام الشهر. والحقيقة، أن الرجل الذي ادعت سليمة أنه زوجها، هو في الواقع صديق زوجها الحقيقي، والد بنتيها الذي تم أسره من قبل القوات الإيرانية عام 82.

كانت سليمة قبل أسر زوجها تضاجع الاثنين في أيام إجازتيهما. لقد كان الاثنان في كتيبة واحدة، ومن الطبيعي أن تكون إجازتيهما متفاوتة، وفي الوقت الذي تم فيه أسر "أبو ساهرة" زوجها، كان العشيق يتدفأ بأحضانها.

تسلمت سليمة الأوراق الرسمية التي تؤكد أسر زوجها، لتستلم بعد ذلك كامل حقوقه التي منحتها له الدولة والتي كانت عبارة عن قطعة أرض سكنية، ومنحة مالية مقدمة من المكتب العقاري، لبناء دار سكنية على تلك القطعة، بالإضافة إلى سيارة نوع تويوتا أو متسيوبوشي، من موديل العام نفسه. استلمت سليمة كافة حقوق زوجها، وقامت ببيع قطعة الأرض، بعقد ابتدائي حتى تسنى لها

استلام منحة دائرة العقاري، واستلمت مبلغاً مالياً بدلاً من السيارة بحجة أنها امرأة وحيدة وليس لديها من يقودها. اتفقت مع عشيقها وصديق زوجها على ترك مدينة الناصرية والسكن في العاصمة، فأستقر لهما الأمر في مدينة المحمودية...

لم تدخر سليمة جهداً في التعرف على معالم مدينة المحمودية وسكانها. تعرفت على الرجال قبل النساء، ساعدها بذلك، الاحتكاك المباشر مع أصحاب الدعاوى الذين يراجعون المحكمة للنظر في مطاليبهم، وكانت عائلة أم زاهر من أهم العوائل التي تعرفت عليها. حدث هذا حين أرادت أم زاهر تسجيل البيت الذي تسكنه باسمها، بعد أن اتفقت على شرائه من مالكه الحاج حسين، وصار لتلك العلاقة الخاصة بين سليمة وأم زاهر طعم خاص، حيث نقلت سليمة إلى عالم الأعمال. المتاجرة بأجساد الفتيات وعذريتهن والتعرف على رجال يشغلون مراكز مهمة بالدولة. والمحمودية، مدينة تعج بمثل هؤلاء الرجال كونها تقع ضمن الحزام الأمني لمنطقة بغداد، الذي اتخذته الحكومة العراقية لحمايتها، وهي أيضاً مدينة محببة عند الرئيس العراقي، منذ أن اتخذها مكاناً آمناً له حين اختفائه بعد مشاركته في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، أول رئيس للجمهورية العراقية عام 59، كونها مدينة رفيقه عبد الوهاب الغريري الذي شاركه محاولة الاغتيال وقُتِل فيها، نتيجة تعرضه لرصاصات رفاقه، ويقال أن الرصاصات التي قتلت عبد الوهاب الغريري، خرجت من بندقية صدام حسين، عن طريق الخطأ... ولهذا ولغيره من الأسباب، كان ابن المحمودية مزكى بشكل تلقائي عند رجالات الدولة. يضاف إلى ذلك الولاء التام الذي قدمه رؤساء العشائر المنتشرة في مناطق المحمودية الريفية للحكومة العراقية، والعائلة الحاكمة على وجه الخصوص، لذا فأن الكثير من أبنائها،

خصوصاً أبناء المناطق الريفية، قد أصبحوا ضباطاً وجنوداً في جهاز الحماية الخاصة لرئيس الجمهورية، وأجهزة الأمن والمخابرات وغيرها من المؤسسات الحساسة التي كان يعج بها البلد.

بعد أربع سنوات من إقامة سليمة عليوي في المحمودية، هي الآن حامل في شهرها الرابع بعد أن أنجبت بنتها الثالثة قبل ما يقارب العام، أي بعد ما يقارب السنة والنصف من تعرفها على أم زاهر، وبعد أن أصبح العمل المشترك بينهن يدر أرباحاً جيدة، ويدر عليهن معرفة الكثير من الشخصيات المؤثرة، داخل المدينة وخارجها، اتفقتا على إيجاد طريقة عمل تؤمن لهن الحماية والغطاء القانوني لعملهن، بعد أن أصبح الحصول على فتيات جديدات، يعملن ضمن خليتهن، صعباً بعض الشيء. فالزمن أجبر سليمة على تغيير مجرى حياتها، لتستبدل مكاني مراهناتها. ففي السابق كانت تراهن على ما بين فخذيها بدلاً من ما يحتويه صندوق رأسها، ولكنها وبعد أن مضى بها العمر، أصبحت تراهن على تفكيرها بدلاً من فرجها. اتخذت قرارها بمرارة، وذلك الشعور قادها إلى الاتفاق مع أم زاهر على أن تؤجر محلاً في وسط المدينة تجعله صالوناً للحلاقة النسائية والتجميل. وبالفعل، وبعد جهود مكثفة، اهتدت سليمة إلى مكان جميل من حيث موقعه ومساحته في بناية حديثة تجاور مبنى بلدية المحمودية. وبعد خمسة أشهر من التحضيرات وبناء الديكورات والحصول على التراخيص الرسمية المهمة، أفتتح "صالون ساهرة" للحلاقة النسائية وتجميل العرائس، وأصبحت سليمة تدير الصالون بذكاء وصلابة. جلبت ثلاث فتيات من مركز العاصمة، اثنتين بمهمة الحلاقة وقص الشعر والثالثة بمهمة إزالة الشعر من الوجه والأماكن الأخرى، وأصبح المكان يعج بالفتيات من بنات المنطقة، والمناطق المجاورة. والسبب الحقيقي لتوارد

الزبائن على الصالون، هو أن الفتاتين اللتين تقومان بمهمة الحلاقة كانتا فعلاً من المتخصصات ومن ذوات الخبرة في مثل هذا العمل، وهذا ما أصرت عليه سليمة منذ البداية، فلقد أرادت من الصالون أن يكون صالوناً من الدرجة الأولى بكل مواصفاته، أما الأمور الأخرى فسوف تأتي كتحصيل حاصل.

بعد مرور شهر واحد، أصبحت الساحة الفاصلة بين الصالون وسياج حديقة مبنى البلدية، موقفاً للسيارات، خصوصاً بين الساعة السادسة والثامنة مساءً. فالصالون يغلق عند السابعة مساءً، ومن الطبيعي تواجد الزبائن من الرجال في ذلك المكان وفي مثل ذلك الوقت، لاستلام بضائعهم ذات الأجساد اللدنة الساخنة. هكذا كان الاتفاق بين الزبائن وسليمة، اتصال هاتفي، ثم الانتظار خارجاً والمكوث داخل السيارة، حتى تخرج البضاعة ماشية على قدميها وبرفقتها إحدى العاملات. تفتح لها الباب الخلفي وكأنها سيدة أو زبونة مهمة، وفي أثناء ذلك، تتسلم العاملة الثمن الذي تم الاتفاق عليه بين الزبون وصاحبة الصالون، لتنطلق السيارة حيث وجهتها.

كان أكثر ما يقلق سليمة ويزعجها، الطلبية التي تقتضي توفير أكثر من فتاة. ففي بعض الأحيان تصلها طلبية من شخص مهم، يطلب فيها أربع أو خمس فتيات، كان ذلك النوع من الطلب يرهق سليمة كثيراً، فذلك يعني إنها تكون عاجزة عن تلبية طلبات أخرى لأشخاص قد يكونون على أهمية خاصة. وقد حاولت جاهدةً أن تتخلص من تلك المشكلة عن طريق الإيقاع بأكبر عدد ممكن من الفتيات، نجحت في أغلب محاولاتها، وفشلت مع القليل منهن، ولكن المحاولات الفاشلة كان لها ثمن باهظ. فكيف ستضمن سكوت الفتاة، وعدم إفشائها لما تعرضت إليه؟ كانت سليمة تتبع

طريقة شيطانية في حالة فشلها، كانت تتحجج بأنها تختبر الفتاة، والتأكد من أنها شريفة وتتمتع بسمعة طيبة، كون أحد الأشخاص طلب منها ذلك، لأنه يريد أن يتقدم لخطبتها، وكانت كثيراً ما تعرض على الفتاة التي تفشل في إغوائها، الحلاقة والتجميل بالمجان...

في صيف عام 88، وتحديداً في اليوم الثامن من شهر آب/ أغسطس، أُعْلِنَ على شاشة التلفزيون العراقي، بيان إيقاف القتال بين القوات العراقية والإيرانية بعد ثماني سنوات حرب، أكلت مئات الآلاف من الشبان العراقيين بين قتيل ومعاق ومفقود ومعدوم، وكان وقع الخبر على عامة الناس أشبه بالزلزال الذي راح يحرك كل جزء أو خلية في جسد العراق بشكل هيستيري. تضاربت الأحاسيس واختلطت المشاعر واختلفت ملامح الناس، فهناك من أصيب بالهستريا وراح يخلع ملابسه على عجل ليخرج إلى الشارع كما خلقه ربه، وهناك من أصيب بالجنون المؤقت ليقفز من على سطح الدار إلى الشارع ليتحول إلى حطام، والأمهات الثكالى أصبحن يلطمن على صدورهن حسرة على فقدان أولادهن دون سبب يذكر، حتى أشيع خبر متفكه مفاده، أن الأسماك في نهر دجلة صارت تتقافز خارج الماء فرحاً بذلك القرار وحزناً على الأرواح الشابة النبيلة التي زهقت بسبب حرب لا أحد يعرف سبباً لها، أو مكسباً منها بعد ثماني سنوات من اشتعالها.

في تلك الأثناء كانت سليمة تتوسد فخذ عشيقها وإلى جانبها بناتها الخمس مستلقيات على فراشهن في باحة الدار. انتفضت مفزوعة عند سماعها الخبر حتى أنها لم تنتبه إلى انكفاء قنينة الويسكي وتناثر الأقداح وحبوب المكسرات، وقفت على قدميها

ونظرت صوب عشيقها، لطمت خديها وقالت بفزع:

- مصيبة... هذه مصيبة يا "علي"... مصيبة لم تخطر على بال أحد!

- ما بك؟...

صرخ بها عشيقها وأضاف:

- ألم تفرحي لتوقف الحرب التي قتلتنا جميعاً؟

- أفرح؟... أفرح؟... تقول لي، وتطلب مني أن أفرح يا ابن الكلب؟... هل تعرف ماذا يعني هذا؟!... هذا يعني أن الأسرى سوف يعودون إلى مدنهم، يعني "أبو ساهرة" سوف يعود من الأسر ويسأل علينا، ماذا سيفعل لو عرف بأني أنجبت ثلاث بنات بغيابه؟ هل سيسكت؟

ثم صرخت بوجه الرجل الذي دب به السكر:

- أجبني!... أجب يا ابن الكلب...

وراحت تضربه بقبضتيها حتى فقدت الوعي. فعلى الرغم من أنها لم تشرب سوى كأسين من الويسكي وأن تلك الكمية كانت غير كافية لتسكرها، إلا أن المصيبة التي شعرت بوقوعها أفقدتها وعيها.

◆

في النصف الثاني من عام 89، وحين اقترب زمن وصول الوجبة الأولى من الأسرى العراقيين إلى العاصمة العراقية بغداد، كانت سليمة قد وجدت الحل المناسب لمشكلتها. لقد اهتدت بمساعدة أحد زبائنها ممن يعملون في جهاز الأمن، إلى رجل

أردني ميسور الحال قَبِلَ أن يتبنى بنات سليمة الثلاث، وكان عمر أكبرهن آنذاك يقارب الأربع سنوات أما الصغرى فعمرها لا يتعدى بضعة شهور. والحقيقة أن سليمة قامت ببيع بناتها الثلاث إلى ذلك الرجل الأردني. والغريب في الأمر أن عملية البيع تمت بشكل رسمي وبمصادقة القاضي الأول في محكمة الأحوال الشخصية، وكانت تلك الواقعة، هي الأولى من نوعها التي تمت تحت سقف محكمة مدينة المحمودية، حتى تساءل "عناد" الفراش بصورة تلقائية ودون تردد كعادته بطرح الأسئلة، ودون أن يفكر بإحراج المقابل:

– هل هناك مادة قانونية يتضمنها القانون العراقي يجيز للأم بيع أبنائها إلى رجل غريب من دولة أخرى؟

طرح سؤاله هذا على السيد القاضي وهو يضع قدح الشاي على مكتبه، عندها زجره القاضي وأمره بالسكوت والخروج من الغرفة.

في تلك الصفقة الغريبة كسبت سليمة الكثير. كسبت المال الذي لم تكن بحاجة ماسة إليه، وكسبت اختفاء دليل جريمتها الأكيد في خيانتها لزوجها الحقيقي. وبفعلتها تلك، استطاعت أن تستقبل زوجها بكل شغف ومحبة، لتبكي على صدره شاكية صبرها وانتظارها المرير طيلة السنوات الخوالي، لتعيش معه في سعادة تامة بعد طول انتظار. لم تكتفِ سليمة بهذا، بل عمدت على تزويج عشيقها من إحدى الفتيات اللواتي كن يعملن لديها، واشترت له بيتاً في منطقة "الجديدة" المقابلة لمنطقة "السراي" كي يبقى قريباً منها.

لم تنقطع سليمة عن عملها في دار العدالة أو المحكمة، كما وأنها لم تغير ساعات عملها في صالون الحلاقة، الذي تمتلكه حتى

بعد قدوم زوجها، واستطاعت أن تلجم زوجها بطريقة خبيثة، حيث عمدت على إرسال إحدى الفتيات إلى دارها بحجة التنظيف، وترتيب البيت أثناء تواجدها في الدوام الرسمي، وطلبت من تلك الفتاة أن تغوي الرجل وتستدرجه لمضاجعتها، وهذا ما حدث بالفعل، وصارت سليمة تستبدل الفتاة بين الحين والآخر بفتاة أخرى لتقوم بنفس المهمة، وحين تعود إلى البيت تقوم بطرح الأسئلة الخبيثة على زوجها لتفهمه بأنها على دراية بما يحصل، حتى وصل الأمر به إلى اختيار الفتاة التي ستأتي بالغد لتنظيف البيت، وبهذا ضمنت بقاء الرجل في البيت، وضمنت سكوته على كل ما تفعله...

انتهى

حسين السكّاف
E-mail: halsagaaf@hotmail.com
Mobil: 0045 27440907

نعم، الوهم الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار، وهذا أيضاً لا يأتي اعتباطاً أو بوقت قصير، الانتحار بالوهم يحتاج أولاً إلى عقل بسيط، ساذج، غير متعلم، ومن ثم دروس تجعل ذلك العقل في إغفاءة تامة، تماماً كالتنويم المغناطيسي، دروس توهم العقل بأنه سوف يحصل على ما يريد، كل ما يريد، المال والجمال والمتعة وكل شيء يحلم به، شريطة أن ينفذ قرار الانتحار. ولكن هل تعلم بأن هناك فترة زمنية قصيرة جداً لا تتعدى بضع ثوان يندم فيها المنتحر على فعلته ويتمنى لو أنه يستطيع العدول عن قراره؟ .. إنها الفترة المحصورة بين تنفيذ القرار والموت، وبهذا يكون كل الذين انتحروا، قد ماتوا نادمين.

حسين السكاف
ناقد فني، وروائي من العراق

العارف للمطبوعات
www.alaref.net

ISBN 978-614-441-051-6

الغلاف :